

إِحْجَازُ الْقُرْآنِ

تَأْلِيفُ

الْقَاضِي السَّعِيدِ شَيْخِ السُّنَّةِ وَلِسَانِ الْعِلْمِ

أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الطَّيِّبِ الْبَاقِرِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةِ ٤٠٣ هـ

الْقَاهِرَةُ

١٣٤٩

الْمُطْبَعَةُ السِّيَافِيَّةُ - وَمَكِينَتُهَا

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

BT 53 B11

إِحْجَازُ الْقُرْآنِ

تأليف

808
B16 LjsA
1930

الفاضل الدعيدي شيخ السنة ولسان الملة

أبي بكر محمد بن الطيب الباقصوني

المتوفى سنة ٨٤٠٣ هـ

القاهرة

١٣٤٩

المطبعة السلفية - ومكنتها

مَقَدَّةُ النَّاسِرُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين • وصلى الله على خير خلق الله أجمعين • سيدنا محمد وآله وصحبه وسلمة هدايته • وسلم تسليماً كثيراً
أما بعد فإن أنبياء الله أقاموا على الناس الحجة بمعجزات كانت وزالت ، واختص الله خاتم أنبيائه صلوات الله عليه بمعجزة خالدة الى يوم الدين ، وهي القرآن الحكيم

ومن خير ما ألفه أئمة الهدى في بيان اعجاز كتاب الله كتاب القاضي أبي بكر البلاقلاني ، وإن للقاضي أكثر من مائة كتاب بادت كلها في مياه دجلة بكارثة التتار ، ولعل (اعجاز القرآن) هو الكتاب الوحيد الذي بقي من مؤلفات هذا الامام . وكان قد طبع في القاهرة عام ١٣١٥ ونفدت نسخته من سنين كثيرة ، فأعدنا طبعه الآن معارفاً بنسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية . وقد اقترح علينا المستشرق الشهير الاستاذ نليو أن ندل في كل آية وردت في هذا الكتاب على رقم سورتها ثم على رقم الآية من تلك السورة ففعلنا . وأعانني على تصحيحه في بدايته صديقي الاستاذ السيد محمود محمد شاكر ، ثم قام بعمل هذه المروءة فضيلة الاستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد في بعض كراريس منه . فشكراً لها . وأرجو الله أن يجعل هذا الكتاب نافعا ، وأن يثيبنا على نشره انه أكرم مسئول

محمد مصطفى طه

القاهرة : ربيع الثاني ١٣٤٩

أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني

شيخ السُّنة ، ولسان الأُمَّة : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد
ابن جعفر بن القاسم الباقلاني

نشأ نشأة العبقرية والنبوغ في مدينة البصرة أيام عزّها في القرن الرابع
لهجرة . وكانت البصرة يومئذ لا تزال على باب البادية (في موضع بلدة الزبير
الآن) وكانت عامرة بأعلام البيان وخبول علماء الاسلام : فيها رجال العلوم
العقلية الذين تبيّهُوا مراتب الحكمة وقلّبوا في الكون أوجه النظر ، وفيها حفاظ
الشريعة الذين برّج الناس اليهم في فهم كتاب الله الحكيم وصيانة السُّنة من عبث
الوضاعين ودس الكذابين ، كما كان في رجالها أهل الاهواء الذين يرون واجبا
عليهم هدم هذا الاسلام والثأر منه المجوسية والصابئية وسائر الظلمات التي
أشرق عليها نور القرآن فأزال غيابها ، ونكس رموس أهلها ، وقضى على
أضاليلها وسفاهاتها . وبين أولئك وهؤلاء علماء التاريخ العارفون بوقائع الدهر
وحوادث الزمان . وزينة البصرة ومفخرتها يومئذ أهل العربية الذين انتهت
اليهم الامامة في فنونها وقوانين بيانها والاحاطة بمادتها والبصر في سُنن العرب
في كلامها ، لا تأصلهم بالأعراب الخُلص من صدر الاسلام الى أن شَيبت
الفصحى بغيرها

في هذا البحر المتلاطم بأسواج المعارف نشأ محمد بن الطيب الباقلاني ، فكان
من خير الناشئين في الاسلام : عقلا وعلماء وفصاحة لسان وسرعة بادرة
وقوة ادراك الحقائق

شيوخه

أخذ محمد بن الطيب العلم عن ابن مجاهد الطائي ، وهو أبو عبد الله محمد بن

أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد البصري المالكي صاحب الامام أبي الحسن
 الاشعري . وكان الباقلاني أخص تلاميذ ابن مجاهد وعنه أخذ علم الكلام و فقه
 مالك بن أنس وأصوله وانتفع بعلمه وصحبته ما شاء الله أن ينتفع
 ومن أساتذة الباقلاني الشيخ الصالح أبو الحسن الباهلي الذي كان يمدُّ جبلا
 من جبال العلم ، وكان مع علمه متفرقا في الزهد والتقوى واعتزال الناس ، فكان
 يخلو له في جميع أوقاته أن يخلو بربه فلا يخرج من خلوته هذه الا الى درس في
 العلم يلقيه على مثل طبقة الباقلاني وابن فورك والاسفراييني ، وكان منهم في حجاب
 يرخي الستر بينهم وبينه كيلا يروه ، لانه كان يريد أن لا يراه غير ربه ، وكان
 يريد أن لا يتعلق قلبه الا بالله عز وجل . وأبو الحسن الباهلي هذا كان أيضا من
 أخص الناس بالشيخ أبي الحسن الاشعري

قلوا ومن شيوخه القطيعي ، ونحسبه أبا بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن
 مالك القطيعي (نسبة الى قطيعة الرقيق ببغداد) وكان مسند العراق في القرن
 الرابع توفي سنة ٣٦٨

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الابهري المالكي ، وأبو أحمد الحسين
 ابن علي النيسابوري ، وأبو محمد بن ماسي ، وأبو بكر بن مالك وغيرهم
 ومن زملاء الباقلاني في طلب العلم أمثال أبي اسحق ابراهيم بن محمد
 الاسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ ، وإني بكر محمد بن الحسن بن فورك المتوفى
 سنة ٤٠٦ ، وكان هؤلاء الثلاثة مضرب المثل في النبوغ حتى قال
 فيهم الأديب الأكبر الوزير صاحب بن عباد : « ابن الباقلاني بحر
 مفرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفراييني نار تحرق » . قال الحافظ ابن
 عساكر : وكان روح القدس نفث في روع صاحب بن عباد حيث أخبر عن
 هؤلاء الثلاثة بما هو حقيقة الحال فيهم

ظهور الباقلاني

وأول حادثة كبرى في حياة الباقلاني استدعاه الى شيراز لمناظرة المعتزلة في مجلس عضد الدولة فناخسرو . وكانت شوكة المعتزلة شديدة في العراق الى أن كان زمن هذا الملك ، وكان قاضي القضاة في وقته معتزلياً ، فقال له فناخسرو يوماً : — هذا المجلس عامر بالعلماء ، ألا أني لا أرى أحداً من أهل السنة والاثبات ينصر مذهب

فقال له قاضي القضاة : — ان أهل السنة والاثبات عامة راع أصحاب تقليد وأخبار وروايات ، يروون الخبر وضده ويعتقدونهما وأحدهما ناسخ للثاني أو متأول ، ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر فقال الملك : — محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر ينصره ، فانظروا أي موضع يكون مناظر ليكتب فيه ويحضر مجلسنا فلما عزم في ذلك قال له قاضي القضاة المعتزلي :

— أصلح الله الملك أخبروني أن بالبصرة رجلين — شيخاً وشاباً — أحدهما يعرف بأبي الحسن الباهلي ، والشاب يعرف بابن الباقلاني وكانت حضرة الملك يؤمئذ بشيراز ، فكتب الملك الى العامل ليعينهما اليه ، وأطلق مالا لتفتنهما من طيب المال . قال القاضي أبو بكر الباقلاني : فلما وصل الكتاب إلينا قال للشيخ (يعني أبا الحسن الباهلي) وبعض أصحابنا :

— هؤلاء القوم فسقة لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال ان مجلسه مشتمل على أصحاب الحبار كلهم ، ولو كان ذلك لله عز وجل خالفاً لتهضت ، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم

فقال القاضي : — كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهما من المتكلمين : ان المأمون لا يحضر مجلسه ا حتى يساق احمد الى طرسوس ثم مات المأمون وردوه الى المعتصم ، فانتعنه وضربه ، وهؤلاء أسلموه ، ولو مروا اليه وناظروه لكفوه عن هذا الأمر ، فانه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على

دعاهم . . . وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على
أحمد ، ويقولون بخلق القرآن ونفي رؤية الله تعالى ، وها أنا خارج أن لم تخرج
قل : تخرجت مع الرسول نحو شيراز في البحر حتى وصلنا إليها . ثم ذكر من
دخله على الملك ومناظرته مع المعتزلة وقطعه أيام ما ذكر
وقد بلغ من احترام الملك عضد الدولة فناخسرو هذا العالم الشاب النابغة
أن دفع إليه ابنه يعلمه مذهب أهل السنة ، وألف له كتاب (التمهيد)
سيرته وعلو همته

قل الحافظ ابن عساكر : كان القاضي أبو بكر رضي الله عنه فارس هذا العلم
مباركاً على هذه الأمة ، وكان يُلقب شيخ السنة ولسان الأمة ، وكان . . فاضلاً
متورعاً ممن لم يحفظ عليه رلة قط ، ولا انتسبت إليه تقيصة ، وكان حصناً من
حصون المسلمين

ويكفي لتعلم علو همة هذا الرجل العظيم أن تراقب استعماله لوقته ترى كيف
كانت حياته مباركة فيها . فقد كان نوابغ الطلبة يزدهجون على باب منزله في نهر
طابق ببغداد لينتلقوا دروس العلم منه نهاره وأكبر ليله (١) . وكانت له في جامع
المنصور ببغداد حلقة عظيمة يجلس فيها مجلساً عاماً يحضره علماء المذاهب ورجال
الدولة ودعاة النحل المختلفة فيسمعون من معارفه العجب العجيب . ومثل هذا
العمل في منزله وفي جامع المنصور كافٍ ليكون القائم به محسناً إلى العلم والدين .
ولكن القاضي الباقلاني لم يكن يقتنم من حياته بهذا وحده ، بل كان يزيد عليه
أنه كان كل ليلة إذا صلى العشاء وقضى رده وضع الدواة بين يديه وكتب
خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه . ثم ينام فإذا استيقظ وصلى الفجر دفع
ما كان كتبه قبل النوم إلى بعض أصحابه وأمره بقراءته عليه ، وفي خلال ذلك
يعلي عليه الزيادات فيه

(١) من نوابغ تلاميذه أبو عبد الله الأزدي وأبو طاهر البغدادي الثالث ، وقد رحلا إلى القيروان
وانفتح الناس هناك بهما ومواهبهما

على سبيل التحية : كيف أفت ، وكيف الأهل والاولاد ؟ فتعجب الرومي وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والاولاد ؟ فأجابه القاضي أبو بكر : رأيناكم لا تزهون الله سبحانه عن الأهل والاولاد ، فهل المطارنة عندكم أقدم وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟

وأراد كبير الروم أن يخزي القاضي فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ومريم أم المسيح . فلما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد نحمله على كتفها ، وقد يرءها الله مما رُميتا به . فانقطع الرومي ولم يجر جوابا

مصنفاته

قال أبو بكر الخوارزمي : كل مصنف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه ، سوى القاضي أبي بكر كان صدره حوى علمه وعلم الناس . وقال علي بن محمد بن الحسن الحرابي المالكي : كان القاضي أبو بكر يهيم بأن يختصر ما يصنفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه . وما صنف أحد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي فان جميع ما كان يذكر من خلاف الناس فيه صنفه من حفظه

وقد رأيت آنفا كيف ان القاضي الباقلاني كان يصنف في كل ليلة خمسا وثلاثين ورقة . ولما توفي القاضي أمر الشيخ أبو الفضل التميمي مناديا أن ينادي بين يدي جنازته « هذا ناصر السنة والدين ، هذا امام المسلمين ، هذا الذي كان يذب عن الشريعة السنة المخالفين ، هذا الذي صنف سبعين ألف ورقة ردآ على الملحدين » . هذا ما نودي به يوم وفاة هذا الامام العظيم ، ولا شك في أن مؤلفاته كانت موجودة في تركته ، اذ كانت تتداولها أيدي علماء بغداد وأفاضل الامصار . ولكن أين هي الآن هذه المؤلفات ؟ لقد قدناها وبالاسف وصرنا لا نستطيع

الوصول الى اسمائها . وأخشى أن يكون أثره الوحيد الباقي بين أيدينا هو كتاب
(انجاز القرآن) دون غيره من مصنفاته التي تكاد تملأ خزانة
أما الكتب التي بقي اسمها وأثرها معها فمنها كتاب له في (المال والنحل) ،
وآخر اسمه (الانتصار) وثالث عنوانه (كشف أسرار الباطنية) وكتاب
(التمهيد) الذي ألفه لابن الملك عضد الدولة . وذَكَرَ صاحب كشف الظنون كتاباً
باعتوان (هداية المسترشدين في الكلام) لأبي بكر بن الباقلاني الشافعي ، ولا
أدرى هل كلمة « الشافعي » من زيادات النساخ والطابعين أم هي خطأ من المؤلف
أم الكتاب لغير هذا الامام

مذهبه

لا شك أنه كان من فقهاء المالكية ، وقد ترجم له ابن فرحون في الديباج
المذهب وعدّه من الطبقة السابعة من أهل العراق ^(١)

هذا مذهب الفقهى . وأما مذهب الكلامي فانه كان أشعرياً كما علمت ، وله في
كتب الكلام آراء منسوبة اليه ، من ذلك أنه كان يقول بالواسطة بين الموجود
والمعدوم ، لانه ذهب الى أن المعلوم ان لم يتحقق أصلاً فهو المعدوم وان تحقق
بوجه قل لم يكن باعتبار ذاته فهو الخال وعرفوه بأنه صفة لوجود لا موجودة ولا
مدومة وان كان فهو الموجود في الخارج ^(٢)

ومن مواطن الخلاف بين المعتزلة والاشاعرة مسألة القدرة ونسبتها الى العبد ،
فالمعتزلة كانوا يشنعون على الامام أبي الحسن بأن قدرة العبد لم تكن مؤثرة
فتمسيتها بقوة مجرد اصطلاح فان القدرة صفة مؤثرة على وفق الارادة . وبأن

(١) ان القاضي ابا بكر الباقلاني اشتهر في عصره بمذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري صار يقال
له الاشعري . فذهب الامر على الناس في بعض الاحيان حتى اذا جرى امر الى القاضي ابي بكر الاشعري
(اي الباقلاني) ينسب الى المراد الامام ابو الحسن الاشعري . وعلى هذا يحمل قول من توهم ان ابا الحسن
الاشعري كان مالكيّاً فان شئت ذلك ان ابا بكر الباقلاني هو المالكي . هذا قال من زعم الاشعري مالكيّاً وهو
يريد ابا بكر الباقلاني . قلن من مع ذلك ان ابا الحسن الاشعري مالكي . وأبى كذلك (انظر طبقات

المشائخ للسيوطي ٢ : ٢٥٥)

(٢) انظر اول رسالة البصائر من عم الكلام الشيخ عبد الله بن محمد السكري

في رتبة السوي في
نسخة المطبعة في
ترجمة الباقلاني (١٩٥٠)
وكشف أسرار وعقد
الدينار (١٩٥٠) و
شعاع الرقة في الفكرة
(١٩٥٠) و

الفرق بين القدرة والعلم بتأثير القدرة وعدم تأثير العلم وبأنه لما لم يكن للعبد اختيار فلا يستحق الثواب والعقاب . والاشاعة ومن يذهب مذهبهم يردون على المعتزلة بان القدرة ليست صفة مؤثرة بالفعل ، بل صفة من شأنها التأثير على وفق الارادة ، سواء أثمرت بالفعل أو لم تؤثر ، وبه يحصل الفرق بينها وبين العلم ، اذ ليس من شأن العلم التأثير المذكور . والكسب عند الاشعري مقارنة الفعل للقدرة والارادة من غير أن يكون للقدرة تأثير ولا للعبد مدخل سوى كونه محلا للفعل . والقاضي الباقلاني مذهب في الفرق بين القدرة والكسب هو أن الكسب ما يقع به المقدر في محل القدرة ، ولا يصح انفراد القادر به في وجود المقدر ، والخلق بخلافه^(١) ونسب اليه صاحب روضات الجنات^(٢) القول بعدم استعمال المصطلحات الشرعية في خلاف معانيها اللغوية أبدا ولو مجازا ، بزعم أن الخصوصيات المؤثرة من جانب الشارع المقدس شروط مصححتها خارجة عن أصول تلك المسحيات ، فظير ما يقوله الداهبون الى وضع الحقائق الشرعية للاعم من الصحة منها والفسادة نظرا الى صحة الاطلاق عليه ، فلا نقل عنده الى احد من تلك المعاني المجمولات . وان قيل ان المشهور اختياره المذهب الثاني في الحقائق الشرعية ، وهو كونها مجازات لغوية

وفاته

وكانت وفاة هذا الامام آخر يوم السبت لست بقين من ذي القعدة سنة ٤٥٣ ودفن يوم الاحد لسبع بقين منه ، وصلى عليه ابنته الحسن . ودفن أولا في داره بنهر طابق ، ثم نقل الى مقبرة باب حرب ودفن فيها بقرب قبر الامام احمد بن حنبل رضي الله عنهما . ومما روي به :

أنظر الى جبل تحشي الرجال به وأنظر الى الفهر ما يحوي من الصكاف
وأنظر الى صارم الاسلام منعمدا وأنظر الى درة الاسلام في الصنف

(١) انظر حاشية الكليني عن العقائد العنصرية من ٢٥٦

(٢) من النجاة . انظر من ٦١٦ (١ : ١٧٧) ته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان ، والمنعم احسانه بما
 أقام لهم من حلي البرهان * الذي حمد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيراً
 ونذيراً ، وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً * وهدايا الى ما ارتضى لهم من
 دينه ، وسلطاناً أوضح وجه تبيينه * ودليلاً على وحدانيته ، ومرشداً الى معرفة
 عزه وجبروته * ومفصلاً عن صفات جلالة ، وعلو شأنه وعظيم سلطانه * وحجة
 لرسوله الذي أرسله به وعلماً على صدقه ، وبينه على أنه أمينه على وحيه وصانع
 بأمره * فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله ، ورسالة تشتمل على
 نصحيح قول مؤدبها ، يثبت فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع
 وضوحها الى بيته تعدوها ، أو حجة تلوها * وأن الذهاب عنها كالذهاب عن
 الضروريات ، والتشكك في المشاهدات * ولذلك قل عز ذكره (٧:٦) * ولو
 تَرَأْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَهَسُوهُ بَأْيَدِهِم لَغُلٌ الَّذِينَ سَفَرُوا مِنْ هَذَا إِلَّا
 سَحَرٌ مبین * وقال عز وجل (١٥:١٤-١٥) * ولو فتننا عليهم بأباً من السماء فظنوا
 فيه بمرجئون ، اقلوا إنما سكرت أبصارنا بلى نحن قوم مسحورون * * فله
 الشكر على جزيل احسانه وعظيم مننه * والصلاة على سيدنا محمد المصطفى
 وآله وسلم

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان
 لأصل دينهم قواماً ، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً ، وعلى صدق نبينهم ^{عليه} ^{السلام}
 برهانا ، ولعجزته نبأ وحجة . لاسيما والجهل بمدود الزواني ، شديد التفاق ،
 مُسنول على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس . وآله

في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشقيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشده ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكسود في صنعيته . فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين ، في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قلّ أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهل به فصار عرضة لمن شاء أن يمرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قاتل قل أنه سحر ، وقاتل يقول أنه شعر ، وآخر يقول أنه أساطير الأولين ، وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، الى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه اليه . وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله بعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه . وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظيم ما يقولونه اخوانهم من ملحدة قریش وغيرهم إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده ، وأبصر قصده ، فتاب وأناب ، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة اتقانه ، لا انصرف لسانه ، بل لهداية ربه وحسن توفيقه . وانجذب في هذا الوقت أغلب ، الملحدين فيه عن الرشده أبعد ، وعن الواجب أذهب . وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل السكتب النافعة في معاني القرآن ، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ، أن يبسطوا القول في الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانته ، فهو أحق بكثير مما صنّفوا فيه من القول في الجزء . ودقيق الكلام في الأتراض ، وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو ، فالخاجة الى هذا أمس ، والاشتغال به أوجب . وقد قصر بعضهم في هذه المسألة ، حتى أدى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها ، ورأوا أن عجز أصحابهم

عن قصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ولا وجه لها ، حين رأوهم قد
برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتسوا الى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا . ثم رأوا
ما صنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مستوفى في وجهه ، قد أخل بتهديب
طرقه ، وأهل ترتيب بيانه . وقد يعتد بعضهم في تفريط يقع منه فيه ، وذهاب
عنه ، لأن هذا الباب مما يمكن الحكماء بعد التقدم في أمور شريفة الخلل ، عظمة
المقدار ، دققة المسلك ، لطيفة المأخذ ، وإذا انتهينا الى تفصيل القول فيها
استبان ما قلناه من الحاجة الى هذه المقدمات ، حتى يمكن بعدها إحكام القول في
هذا الشأن . وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يرد فيه على ما قلناه
المشككون قبله ، ولم يكشف عما يأنس في أكثر هذا المعنى

وسألنا سائل أن تذكر جملة من القول جماعة تسقط الشبهات ونزيل الشكوك
التي تعرض للجهال وتنتهي الى ما يخطر لهم ويعرض لافهامهم من الظن في وجه
المعجزة . فأجبتنا الى ذلك متقربين الى الله عز وجل ومتوكلين عليه وعلى حسن
توقيفه ومعونته . ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ، ونشير اليه ، ولا نبسط
القول اثلا يكون ما ألفناه مكررا ومقولا ، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب
خاصة ، ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل منصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه
الكلام ، وما يختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما
يشبه له ظاهرا الفصاحة ، ويختلف فيه المختلقون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة
بلسان العرب في أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون
ما ينقسم اليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجاري الخطاب
وان كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاضل وتقصد فيه البلاغة ،
لأن هذه أمور يتعمل لها في الاغلب ، ولا يتجاوز فيها . ثم من بعد هذا الكلام
الدائر في محاوراتهم ، والتفاوت فيه أكثر لأن العمل فيه أقل ، إلا من غزارة

طبع أو فطانة تصنع وتكلف ، ونشير الى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق
ليعرف عقلم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد
الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها ، أو يشبه ذلك على متأمل . ولنا
نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن
معرفة الادب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ، لأن ذلك مما لا سبيل اليه إلا ان
يكون الناظر فيها معرض عليه عما قصدنا اليه من أهل صناعة العربية قد وقف على
جمل من محاسن الكلام ومنصرفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين
ونظر في شيء من أصول الدين . وإنما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من
وصفناه فقال (٤١ : ٣) « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون »
وقال (٤٣ : ٣) « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »



فصل

﴿ في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن ﴾

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة اعجاز القرآن ، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ، ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً ، وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم أنهم شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لا نكره أولاً نكره بعضهم نقل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر أصل النقل فيه . وبعضها مما نقل من جهة الآحاد ، وكان وقوعه بين يدي الآحاد . فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقليين وبقيت بقا ، العصرين ، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد ، وإن كان قد يعلم بمعجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله وجه دلالة فيغني ذلك عن نظير مجدّد في عجز أول العصر عن مثله ، وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الاتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول . وإنما ذكرنا هذا الفصل لما حكي عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بماجزين عنه . ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالنجدّي دون غيرهم . ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه . فأما الذي يبين ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبني أمر نبوته عليه سور كثيرة وآيات تذكّر بعضها وتنبه بالذكور على غيره ، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه . فمن ذلك قوله تعالى (١٤ : ١) « الرّكناّب أنزلنا إليك

لنخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد .
 فأخبر انه أنزله ليقم الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ، ولا تكون
 حجة ان لم تكن معجزة ، وقال عز وجل (٦ : ٩) « وان أحد من المشركين
 استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » فلو لا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره
 على سماعه ولا يكون حجة الا وهو معجزة ، وقال عز وجل (١٩٢ : ٢٦) (١٩٤)
 « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من
 المنذرين » وهذا بين جداً فيما قلناه من انه جعله سبباً لكونه منبراً . ثم
 أوضح ذلك بأن قل (١٩٥ : ٢٦) « بلسان عربي مبين » فلو لا أن كونه بهذا
 اللسان حجة لم يقب كلامه الأول به ، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف
 المنقطعة الا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه . ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك
 على ما بعده ، وكثير من هذه السور اذا تأملته فهو من أوله الى آخره مبني
 على لزوم حجة القرآن والتنبية على وجه معجزته . فمن ذلك سورة
 المؤمن (١ : ٢٠ - ٦) قوله عز وجل « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز
 العليم » ثم وصف نفسه بما هو أعلم من قوله تعالى « غافر الذنب » وقابل
 الثوب ، شديد العقاب » الى أن قل « ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا »
 فدل على أن الجدل في تنزيله كفر وإلحاد . ثم أخبر بما وقع من تكذيب
 الأمم برسولهم بقوله عز وجل « كذبتم قبلهم قوم قوح والأحزاب من بعدهم »
 الى آخر الآية ، فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنوبهم في تكذيب الانبياء ورد
 براهينهم فقال تعالى « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم توعدهم بالنار ، فقال
 تعالى « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ثم عظم
 شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم وما وعدهم عليه من
 المغفرة فقال تعالى (٧ : ٤٠) « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

يؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر
 للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » فلو لا انه يراد ان قاهر لم يدم
 الكفار على العذاب عنه ولم يحمى المؤمنين على المصير اليه . ثم ذكر تمام الآيات في
 دعاء الملائكة للمؤمنين ، ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات ثم قال (١٣: ٤٠)
 « هو الذي يرسم آياته » فأمر بالنظر في آياته وبراهينه الى أن قال (١٥: ٤٠) « رفيع
 الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينفخ في يوم
 النفث » فجعل القرآن والوحي به كالروح ، لأنه يؤدي الى حياة الأبد ، ولأنه
 لا فائدة للجسد من دون الروح ، فجعل هذا الروح سبباً للإنذار وعلماً عليه وطريقاً
 اليه ، ولولا أن ذلك يبرهان بنفسه لم يصح أن يقع به الإنذار والاخبار عما يقع عند
 مخالفته ولم يكن الظاهر عن الواقع في الآخرة عند ردهم دلالة من الوعيد حجة
 ولا معلوما صدقه فكان لا يلزمهم قبوله . فلما خلع من الآيات في ذكر الوعيد
 على ترك القبول ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات
 فقال (٢١: ٤٠) « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا
 من قبلهم » الى آخر الآية ثم بين أن عاقبتهم صارت الى السوء بأن رؤسهم كانت
 ثأنيهم بالبيئات وكانوا لا يقبلونها منهم فعلم أن ما قدم ذكره في السورة بينة رسول
 الله ﷺ ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ومحبتهما لبيئات ومخالفتهم
 حكمها الى أن قال تعالى (٣٥: ٤٠) « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم
 كبير مقاماً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »
 فأخبر أن جدالهم في هذه الآيات لا يقع بحجة وانما يقع عن جهل وأن الله يطبع
 على قلوبهم ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان الجعودهم وعنادهم واستكبارهم ، ثم
 ذكر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد ثم قال تعالى (٦٩: ٤٠) « ألم تر الى
 الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون » ثم بين هذه الجملة وأن من آياته

الكتاب فقال (٧٠: ٤٠) «الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا فسوف يعلمون» الى ان قل (٧٧: ٤٠) «وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله» فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر ويقع عندها العلم الضروري وأنها اذا جاءت ارتفع التكليف ووجب الاهلاك. الى ان قل تعالى (٨٥: ٤٠) «قلم يك ينفعهم ایمانهم لمّا رأوا بأسنا» فأعلمنا انه قادر على هذه الآيات، ولكنه اذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين. وكذلك ذكر في «حم» السجدة على هذا المنهج الذي شرحنا، فقال عز وجل (٤١: ٤-٤) «حم، تنزيل من الرحمن الرحيم» كذاب فصّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا، ولولا انه جعله برهانا لم يكن بشيرا ولا نذيرا، ولم يختلف بأن يكون عربيا مفصّلا أو بخلاف ذلك. ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله تعالى «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» ولولا انه حجة لم يضرهم الاعراض عنه

وليس لقائل أن يقول قد يكون حجة ويحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى كما أن الرسول ﷺ حجة ولكنه يحتاج الى دلالة على صدقه وصحة نبوته. وذلك انه انما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل ولم يذكر حجة غيره. وبين ذلك انه قل عقيب هذا (٦٠: ٤١) «قل انما أنا بشر مثكم يوحي الي» فأخبر انه مثلهم لولا الوحي. ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال (٨٦: ٤١) «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل وعرفوا هذه الحجة. ثم تصرف في الاحتجاج على الوحدانية والقدرة الى ان قل (١٣: ٤١) «قل أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المسكة بين بآيت الله من قوم عاد.

وَنُحَدِّثُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ نُوَعِّدُهُمْ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ فَقَالَ (٤١ : ١٩) « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فهُمْ يُوزَعُونَ » إِلَى انْقِطَاعِ مَا ذَكَرَهُ فِيهِ . ثُمَّ رَجَعَ إِلَى ذِكْرِ الْقُرْآنِ فَقَالَ (٤١ : ٢٦) « وَقُلْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ أَعْلَمُكُمْ تَقْلِيلُونَ » ثُمَّ أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ تَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ فَقَالَ (٤١ : ٣٠) « إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخْفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا » ثُمَّ قَالَ (٤١ : ٣٦) « وَإِنَّمَا يَنزَغُكُمُ الشَّيْطَانُ نَزْغًا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » وَهَذَا يُشَبِّهُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعْرِفُ أَعْجَازَ الْقُرْآنِ ، وَانَّهُ دَلَالَةٌ لَهُ عَلَى جِهَةِ الاسْتِدْلَالِ ، لِأَنَّ الضَّرُورَاتِ لَا يَقَعُ فِيهَا نَزْعُ الشَّيْطَانِ ، وَنَحْنُ نَبِينُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْفَصْلِ فِي مَوْضِعِهِ . ثُمَّ قَالَ (٤١ : ٤٠) « إِنْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا إِلَى أَنْ قَالُوا (٤١ : ٤١-٤٢) « إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مَنَاقِلًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ فِيهِ غَيْرُ الْحَقِّ مِمَّا يَنْصُدُّهُ مِنْ أَفَاصِيصِ الْأَوَّلِينَ وَالْخَبَارِ الْمُرْسَلِينَ ، وَكَذَلِكَ لَا يَوْجَدُ خَلْفَ فِيمَا يَنْصُدُّهُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ وَعَنِ الْحَوَادِثِ الَّتِي أَبَدًا إِنَّمَا تَقَعُ فِي الثَّانِي فَلَا يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَنَاقِلًا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ نِظَامُ الْخُطَابِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَأْتِيهِ مَا يَبْطُلُ مِنْ شَبْهَةٍ سَابِقَةٍ تَدْحُ فِي مُعْجَزَتِهِ أَوْ تَعَارِضُهُ فِي طَرِيقِهِ ، وَكَذَلِكَ لَا يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِهِ قَطُّ أَمْرٌ يَشْكُكُ فِي وَجْهِ دَلَالَتِهِ ، وَهَذَا أَشْبَهَ بِسِيَاقِ الْكَلَامِ وَنِظَامِهِ . ثُمَّ قَالَ (٤١ : ٤٤) « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِي وَعَرَبِي » فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ أَعْجَبِيًّا لَكَانُوا يَحْتَجُّونَ فِي رَدِّهِ ، أَمَّا بَأَنَّ ذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ عَرَفِ خُطَابِهِمْ - وَكَانُوا يَتَنَدَّرُونَ بِذَهَابِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ ، وَيَأْتِيهِمْ لَا يَبِينُ لَهُمْ وَجْهُ الْأَعْجَازِ فِيهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا مِنْ لِسَانِهِمْ - أَوْ يَنْفِرُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ ، وَانَّهُ إِذَا تَحَدَّثَ إِلَى مَا هُوَ مِنْ لِسَانِهِمْ وَشَأْنِهِمْ فَعَجَزُوا عَنْهُ وَجَبَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، عَلَى مَا نَبِّئُهُ فِي وَجْهِ هَذَا

الفصل، الى أن قل (٤١ : ٥٢) * قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد * والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين يتبعه على غيرها من السور، ففكرنا سرد القول فيها، فليأتنا في المتأمل ما دللناه عليه بجده كذلك

ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥٠ - ٥١) * وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب ينزل عليهم * فأخبر أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه ، وإن ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم ، ويدل عليه قوله عز وجل (١ : ٢٥) * تبارك الذي نزل الفرقان دلي عبده ليكون للعالمين نذيراً * وقوله (٢٤ : ٤٢) * أم يقولون اتعزى على الله كذباً فإن يشأ الله نختم دلي قلبك ونمحو الله الباطل ونحقق الحق بكلماته * فدل على انه جعل قلبه مستودعاً لوجهه ، ومستنزلاً لكتابه ، وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره ، وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وإبطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها . فبان بهذا وبظاهرة ما قلناه من أن بناء نبوته ^{عليه السلام} على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصفه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى ، وفرق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء لأنها لا تدل على أنفسهم إلا بأمر زائد ووصف مضاف إليها ، لأن نظمها ليس معجزاً ، وإن كان ما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لانه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظم معجز ، فيمكن أن يستدل به عليه ، وجل في هذا من وجوه محل سماع الكلام من اقدم سبحانه وتعالى ، لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم انه في الحقيقة كلامه . وكذلك من يسمع القرآن يعلم انه كلام الله

وإن اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه لأن موسى عليه السلام مسمعه من الله عز وجل وأسمعه نفسه منكلاً ، وليس كذلك الواحد منا . وكذلك قد يختلفان في غير هذا الوجه ، وليس ذلك قصدينا بالكلام في هذا الفصل . والذي نرويه الآن ما بيننا من اتفاقهما في المعنى الذي وصفنا ، وهو أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال



فصل

﴿ في الدلالة على أن القرآن معجز ﴾

قد ثبت بما يتنا في الفصل الاول ان نبوة فيينا عليه السلام مبينة على دلالة معجزة القرآن ، فيجب ان تبين وجه الدلالة من ذلك ، قد ذكر العلماء ان الاصل في هذا هو ان تعلم ان القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وانه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة . والطريق الى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به . وذلك انه قلم به في المواقف ، وكتب به الى البلاد وتحمله عنه اليها من تابعه ، واورده على غيره من لم يتابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشبهه على أحد ، ولا يحبل انه قد خرج من أي بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس ، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها وتعدى الى الملوك المصافية لهم كمالك الروم والعمجم والقيبط والحش وغيرهم من ملوك الاطراف ولما ورد ذلك مضادا لاديان أهل ذلك العصر كاهم ومخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر ، وقف جميع أهل الخلاف على جملته ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايان على جملته وتفاصيله . وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال ، وتنقلت به الرجال ، وتعلمه الكبير والصغير . اذ كان عدة دينهم ، وعلماء عليه ، والمفروض تلاوته في صلواتهم ، والواجب استعماله في أحكامهم . ثم تناقله خلف عن سلف هم متليم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى اليها ما وصفناه من حاله ، فلن يشكك أحد ولا يجوز ان يشكك مع وجود هذه الاسباب في انه أتى بهذا القرآن من عند الله ، فهذا أصل . واذا

ثبت هذا الاصل وجودا قلنا نقول انه محمد اهم الى ان يأتوا بمثله ، وقرعهم على
 ترك الاتيان به طول السنين التي وصفناها فلم يأتوا بذلك ، والذي يدل على هذا
 الاصل اننا قد علمنا ان ذلك مذكور في القرآن في المواضع الكثيرة كقوله (٢٤-٢٣:٢)
 « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم
 من دون الله ان كنتم صادقين ، قن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وفودها
 الناس والحجارة اعدت للكافرين » وكقوله (١٦-١٣:١٤) « أم يقولون افتراء قل فاتوا
 بمثل سورة مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين .
 فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم
 مسلمون » فجعل محجزهم عن الاتيان بمثله دليلا على انه منه ودليلا على وحدانيته .
 وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم انه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية
 وزعم ان ذلك مما لا سبيل اليه الا من جهة العقل ، لان القرآن كلام الله عز وجل
 ولا يصح ان يعلم الكلام حتى يعلم المنكلم أنزلا . قلنا اذا ثبت بما نبينه اعجازه
 وان اطلق لا يفهمون عليه ثبت ان الذي أتى به غيرهم ، وانه انما يختص
 بالقدره عليه من يختص بالقدره عليهم . وانه صدق ، واذا كان كذلك كان
 ما ينضمه صدقا ، وليس اذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع ان يعرف من
 الوجهين . وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل لانه خارج عن مقصود
 كلامنا ، ولكننا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه ، ومن ذلك قوله عز وجل
 (١٧: ٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا
 يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظميرا » وقوله (٣٤-٣٣:٥٢) « أم يقولون
 نقول به بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » قد ثبت بما وثقنا
 انه محمد اهم اليه ولم يأتوا بمثله

وفي هذا أمران : أحدهما التحدثي اليه ، والاخر أنهم لم يأتوا له بمثل . والذي

يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين . وإن قل قائل اعلم لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر الحديث وأنا قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن كان ذلك قولاً باطلاً يعلم بطلانه مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جبل وأنه كتم وسيظهره المهدي . أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما حيث وضع المصحف . أو يدعي فيه زيادة أو نقصاناً . وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووعد الحق . وحكاية قول من قل ذلك يغني عن الرد عليه لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الأسفار والحضر وضبطوه حفظاً من بين صغير وكبير وعرفوه حتى صار لا يشبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم الدوم والنسيان ، ولا التخليط فيه ، والكتمان ، ولو زادوا ونقصوا أو غيروا فظهر ، وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره - على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا أن يحفظ كحفظه ، ولا أن يضبط كضبطه ، ولا أن تمس الحاجة إليه مناسبتها إلى القرآن - لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت لأبطل غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه ، وأنكره أربابه . فإذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرئ القيس ونظرائه مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية ، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكره في القرآن مع شدة الحاجة إليه في أصل الدين ، ثم في الأحكام والشرائع واشتغال الهمم المختلفة على ضبطه : فمنهم من يضبطه لأحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها ، ومنهم من يحفظه للشرائع والمفرد ، ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ، ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ، ومن الملحدين من يحصله لينظر في عجيب شأنه . وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة أعدادهم واختلاف بلادهم ونفقات

أمر الله أن يجتمعوا على التغير والتبديل والسكتان . وبين ذلك أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا ، ومن نظائره في رد قوله عليه ورد غيرهم وقولهم (٨ : ٣١) لو نشاء لقلنا مثل هذا ، وقول بعضهم (٣٨ : ٧) إن هذا الاختلاف ^(١) إلى الوجوه التي يصرف اليها قولهم في الظن عليه فمنهم من يستبين بها ويجهل ذلك سبباً لتركه الايمان بمثله ، ومنهم من يزعم أنه مقترى فلذلك لا يأتي بمثله ، ومنهم من يزعم أنه دارس وأنه أساطير الاولين . وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحديته للواقع التطويل . ولو جاز أن يكون بعضه مكنوفاً جاز على كله ولو جاز أن يكون بعضه موضوعاً جاز ذلك في كله فثبت بما بيناه أنه تحدى اليه وأنهم لم يأتوا له بمثل . وهذا الفصل قد بينا أن الجيم قد ذكره وبنوا عليه . فلذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده أن تركهم للايمان بمثله كان لمعجزهم عنه . والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الايمان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدقه وتبوءه ونضمن أحكامه استباحة دماهم وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عاداتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال واكتار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الاوطان وعن تسليم الأهل والذرية للسبي . فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكاييد لا سيما مع استعظامه ما بدهه بالخيبيء من خلع آلمته وتسفيه رأيه في ديانته وتضليل آياته والتغريب عليه بما جاء به واظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته والنصرف

(١) اسم الاشارة هنا راجع إلى قولهم (٣٨ : ٥) لا أجل الآلهة إلا واحداً .

على حكم ارادته والمدول عن الفه وعادته والانخراط في ذلك الانباع بمد أن
كان منبوعا والتشيع بمد أن مشيعاً ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه اليه على
جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله . وقد علم
أن بعض هذه الاحوال مما يدعو الى سلب النفوس دونه . هذا والحية حينهم
والهمم الكبيرة همهم وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف
يجوز أن لا يتوصلوا الى الرد عليه والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف
أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يمرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر ، وهو
لأنهم الذي يشاغبون به مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها
مطامع والرتبة التي ليس وراءها منزع هو معلوم أنهم لو عارضوه بما نحتاجهم اليه
لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشتيت أسبابه ،
وكان من صدق به يرجم على أعقابهم ويمود في مذهب أصحابه . فلما لم يفعلوا
شيئاً من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً
وبلوا شيئاً فشيئاً وهم على العجز عن القدح في آيته والظعن في دلائله ، علم مما
يؤنا انهم كانوا لا يقدرون على معارضة ولا على توهين حججه . وقد أخبر الله تعالى
عنهم انهم (٤٣ : ٥٨) « قوم خصمون » وقال : (١٩ : ٩٧) « ونذير به
قوماً أدا » وقال (١٦ : ٤) « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين »
وعلم أيضاً ان ما كانوا يقولونه من وجوه اعراضهم على القرآن مما حكي
الله عز وجل عنهم من قولهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا
الاساطير الاولين » وقولهم (٢٨ : ٣٦) « ما هذا الا سحر مقترى وما سمعنا
بهذا في آياتنا الاولين » وقالوا (١٥ : ٦) « يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك
لمجنون » وقالوا (٢١ : ٣) « اننا نون السحر وانتم تبصرون » وقالوا
(٣٧ : ٣٦) « اننا لناركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٢٥ : ٤٠ - ٥) وقال الذين

كفروا أن هذا الا فلك اقترأه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا غلباً وذكورا
 وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا (٢٥ : ٨) وقال
 الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقوله (١٥ : ٩١) الذين جعلوا
 القرآن عضين الى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في
 امرهم متعجبين من عجزهم يغزغون الى نحو هذه الامور من تعليل وتفسير ومدافعة
 عما وقع التحدي اليه ، وعرف الخث عليه ، وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب
 وجاهروه ونابدوه وقطعوا الارحام وأخطروا بأنفسهم وطالبوه بالآيات
 والاثيان^(١) وغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ليظهروا عليه بوجه
 من الوجوه . فكيف يجوز أن يقدرُوا على معارضته القريبة السهلة عليهم
 وذلك بدحض حجته وبفساد دلالاته وببطل أمره - فيعدلون عن ذلك الى سائر
 ما صاروا اليه من الامور التي ليس عليها مزيد في المناظرة والمجادلة ويتركون
 الامر الخفيف ؟ هذا مما عتيم وقوعه في العادات ولا يجوز اتقانه^(٢) من العقلاء .
 والى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه
 ويمكن ان يقال أنهم لو كانوا قادرين على معارضته والاثيان بمنزل ما أتى
 به لم يجوز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة
 والمعرفة بوجود الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته
 وانهم يضعفون عن مجاراته ، ويكرر فيها جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي
 به وبقراءتهم ويؤنبهم عليه ويذكر آماله فيهم وينجح ما يسعى له بتركهم
 المعارضة . وهو يذكر فيها ينلوه تعظيم شأنه وتفضيل أمره حتى يتلو قوله تعالى
 (١٧ : ٨٨) قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

(١) هذا في الاصل ياء من ياءم لكاتبين

(٢) كذلك في المخطوطة والطبعة

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وقوله (١٦ : ٢) « يُنَزَّلُ
 الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلِيِّ مِنْ إِشَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 أَنَا فَاقْبَلُوا » وقوله (١٥ : ٨٧) « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَارِثِ وَالْقُرْآنَ
 الْعَظِيمَ » وقوله (١٥ : ٩) « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » وقوله
 (٤٣ : ٤٣) « وَإِنَّ لِلَّذِي نُكِّرُكَ وَالْقَوْمَ الَّذِي كُفِّرُوا عَنْكَ وَفِيهِمْ أَكْثَرُ الْغَافِلِينَ » وقوله (٢ : ٢) «
 هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » وقوله (٣٩ : ٢٣) « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
 مُّتَشَابِهًا مَتَابِعًا تَتَشَابَهُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
 إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمن تعظيم شأن القرآن .
 فمنها ما يكرر في السورة في مواضع منها ومنها ما ينفرد فيها ، وذلك مما
 يدعوهم إلى المبالغة ويحضيهم على المعارضة وإن لم يكن متحدثا إليه . ألا ترى
 أنهم قد كان ينافرونهم بعضا ولم في ذلك مواقف معروفة وأخبار
 مشهورة وأيام منقولة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والدلالة
 ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فلن يجوز والحال هذه أن يتناقلوا عن
 معارضته لو كانوا قادرين عليها ، ثم تأمل إليها أولم يتحدتهم . ولو كان هذا
 القبيح مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر ، وهو أنه لو كان مقدورا
 للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبينه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه
 به ، وكانوا لا يقتضون إلى تكلف وضعه وتعمل نظمه في الحال ، فلما لم
 احتجاجوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سائلة ، ونظم بديع ، ولا
 عارضوه به فقالوا هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله ، فلم يكن
 إلى ذلك سبيل وإنه لم يوجد له نظير ولو كان وجد له مثل لكان ينقل اليينا
 ولمرفاه كما نقل اليينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب
 وأدى اليينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع

بلاغتهم وصنوف فصاحتهم

فان قيل : الذي بنى عليه الامر في تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدي الى الاتيان بمثله وانهم عجزوا عنه بعد التحدي اليه ، فاذا نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه ، وما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدي ، وان ما أتى به قد عرف المعجز عنه بكل حال

قيل : انما احتجج الى التحدي لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان ، لان المعجزة اذا ظهرت فاعلمت تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه ، ولا تظهر على مدعى لها الا وهي معلومة أنها من عند الله ، فاذا كان يظهر وجه الاعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي ، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة ، وإلا فان مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب ويتفنن مصارف الكلام - وكان كاملاً في فصاحته جليلاً المعرفة بوجود الصناعة - لو أنه احتج عليه بالقرآن وقيل له ان الدلالة على النبوة والآية على الرسالة ما أتوه عليك منه لكان ذلك بلاغا في إيجاب الحجة ، وانما في الزامه فرض المصير اليه . ومما يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعا الآحاد الى الاسلام محتجاً عليهم بالقرآن - لانا تعلم انه لم يلزمهم تصديقه تقليداً ، ونعلم أن السابقين الأولين الى الاسلام لم يقلدوه وانما دخلوا على بصيرة - ولم نعلمه قل لهم ارجعوا الى جميع الفصحاه فان عجزوا عن الاتيان بمثله فقد ثبتت حجتى ، بل نارا هم يعلمون اعجازهم ألزمهم حكمه فقبلوه وتأهبوا الحق وبادروا اليه مستسلمين ولم يشكوا في صدقه ولم يرتابوا في وجه دلالته ، فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفة أبلغ كان الى القبول منه أسبق ، ومن اشتبه عليه وجه الاعجاز واشتبه عليه بعض شروط

المعجزات وأدلة النبوات كان ابطلاً الى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه موادته . وهذا فصل يجب أن يتمم القول فيه بعد فليس هذا بموضع له

ويبين ما قلناه أن هذه الآية علم يلزم السكك قبوله والافتقار له ، وقد علمنا تفاوت الناس في ادراكه ومعرفة وجه دلالة ، لأن الاعجمي لا يعلم انه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج في معرفة ذلك الى أمور لا يحتاج اليها من كان من أهل صنعة الفصاحة ، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة ، فربما حل في ذلك محل الأعجمي في أن لا توجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه ، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسل وحدها غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب وجوه الكلام وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المخصص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققة بعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه . فأما من كان متداهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها اظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف اعجازه ، وإن لم نقل ذلك أدنى هذا القول الى أن يقال ان النبي ﷺ لم يعرف اعجاز القرآن حين أوحى اليه حتى مبر الحال بعجز أهل اللسان عنه ، وهذا خطأ من القول . فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى اليه القرآن عرف كونه معجزاً ، وبأن (١) قبل له انه دلالة وعلم على نبوتك أنه كذلك ، من قبل ان يقرأه على غيره أو يتحدث

(١) كذا في المخطوطة ، وفي المخطوطة « كونه معجزاً » بأن « وقيل بعد »
« بأن » يابس يتسع لكلمة واحدة

إليه سواء . ولذلك قلنا ان المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاضل متى سمع القرآن عرف انه معجز ، لانه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه فيعلم ان عجز غيره كمجزه هو ، وان كان يحتاج بعد هذا الى استدلال آخر على انه علم على نبوة ودلالة على رسالة بأن يقال له ان هذه آية لنبية وانما ظهرت عليه وادعاهها معجزة له وبرهاناً على صدقه .

فإن قيل فإن من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه فكذلك البليغ ، وان علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره .

قيل : هو مع مستقر العادة . وان عجز عن قول الشعر وعلم انه مفحّم فانه يعلم ان الناس لا يتمكنون من وجود الشعراء فيهم . ومنى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره لانه كما لانه ^(١) يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء ، اذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز او يعلم قدرة أحد من البلقاء عليه ، فاذا لم يكن لذلك مثل في العادة - وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب ووجد القرآن مبايناً لها - علم خروجه عن العادة وجرى مجرى ما يعلم ان ^(٢) اخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لا يجوز من نفسه وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره الا على وجه نقض العادة ، بل يرى وقوعه موقع المعجزة . وهذا وان كان ينافي فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه ، وهو انه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه ، فكونه ناقضاً للعادة من غير تأمل

(١) كما بالنسخين ، والا توهم ان تكون « ولانه »

(٢) اطل السواب ما يعلم من أن

شديداً ولا نظير بعيداً . فإن النظر في معرفة اعجاز القرآن يحتاج الى تأمل ويفتقر الى مراعاة منقذات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع . فكل واحد منها يؤول الى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدسناه . وما بين [ذلك] ما قلناه من ان البليغ المتأهلي في وجوه القضاة يعرف اعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه اذا اتهم في اليه وعجز عن مثله وان لم ينتظر وفوق التحدثي في غيره . وأما الذي يصنع ذلك الغير وهو ما روي في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي ﷺ في معنى (١) حليف له أراد أن يفاديه «دخل والنبي ﷺ يقرأ سورة (٥٢ : ١ - ٢) والطور وكتاب مسطور» في صلاة الفجر قال فلما انتهى الى قوله (٥٢ : ٥٢) «ان عذاب ربك لواقع» قال من دافعه «قال خشيت أن يدركني العذاب» فأسلم (٢) وفي حديث آخر أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة طه فأسلم . وقد روي أن قوله عز وجل في أول حم السجدة الى قوله (٤١ : ٤) «فأعرض» أكثرهم فهم لا يستمعون» نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة وأبي سفيان بن حرب وأبي جهل . وذكر أنهم استنواهم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة الى النبي ﷺ ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بلغ الكلام وأرادوا أن يأثمهم بما عنده فقرأ النبي ﷺ سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى الى قوله (٤١ : ١٣) «فإن أعرضوا قتل أنذرناكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فوثب مخافة العذاب ، فاستحكه ما سمع فقد ذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج وانذر .

(١) المعنى : الأسير

(٢) في البخاري في آخر باب قصة غزوة بدر عن محمد بن جبير عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المنزلة بالطور وذلك أول ما وفر الإيمان في قلبي . وذكر غيره في كتاب التفسير سورة الطور

فقال له عتيان بن مقلون : لتعلموا أنه من عند الله ، اذ لم يهتد بجوابه
وأبين من ذلك قول الله عز وجل (٩ : ٦) « وإن أخذ من المشركين
استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فجعل سماعه حجة
عليه بنفسه فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه

فإن قيل : لو كان على ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا
في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في اسلامهم عند سماعه

قيل : لا يجب ذلك ، لأن صوارفهم كانت كثيرة ، منها أنهم كانوا
يشكون : منهم من يشك في اثبات الصانع ، وفيهم من يشك في التوحيد ،
وفيهم من يشك في النبوة . ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء الى رسول
الله ﷺ ليسلم عام الفتح قل له النبي عليه السلام : أما آن لك أن تشهد أن
لا إله إلا الله ؟ قل : بلى . فشهد . قل : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ قل
أما هذه في النفس منها شيء . فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق تسببهم
متباينة : فمنهم من قلت شبهه وتأمل الحجة حق تأملها ولم يستكبر فأسلم ، ومنهم
من كثرت شبهه وأعرض عن تأمل الحجة حق تأملها أو لم يكن في البلاغة على
حدود النهاية فتطاول عليه الزمان الى أن نظر واستبصر وراعى واعتبر ،
واحتاج الى أن يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله فذلك وقف أمره . ولو
كانوا في النصيحة على مربة واحدة وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة لتوافوا
الى القبول جملة واحدة

فإن قيل : فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه اعجاز القرآن ؟ وما الوجه

الذي يتطرق به اليه والمنهاج الذي يسلكه حتى يقف به على جلية الأمر فيه ؟

قيل : هذا سبيله أن يفرد له فصل

فإن قيل : فلم زعمتم أن البليغ عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على

صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وانما بصرفه الله عنه ضرباً من الصرف أو بعبارة من الاثنيان بمثل ضرباً من المنع أو تقصير دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتمكّل ما أراد الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة ، لان من قدر على نظم كلتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتمكّل قدر الآية والسورة

فالجواب أنه لو صح ذلك صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصرع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار ، وصح لكل فاحق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ، ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن ، على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه المستحسن لكان مهبطاً من رتبة البلاغة فيه ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه أبلغ في الاعجوبة اذا صرفوا عن الاثنيان بمثلهم ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغنى عن انزاله على النظم البديع وإخراجه في المعرض النصيب العجيب . على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن ممن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعمل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا اليه ولم تلزمهم حجته ، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرقة ظاهر البطلان

وفيه معنى آخر : وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن اذا سمعوا كلاماً مطعماً لم يخف عليهم ولم يشبهه لديهم ، ومن كان متناهماً في فصاحته لم يجوز أن يطعم في مثل هذا القرآن بحال . فان قل صاحب السؤال انه قد يطعم في ذلك ، قيل له أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد

عليه في الفصاحة ولا يتحاشاه ، وبحسب أن ما أتفه في الجزء والطفرة ^(١) فهو أبداع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنى ، ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه وبحسبه ظان من أمره ، والمرجوع في هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد . ونحن تبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ وتميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بين الغلط ، وإن هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله في محكم كتابه (٧٤ : ١٨ - ٢٥) إنه فكر وقدر ، ففعل كيف قدر ، ثم قيل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، فهم يعبرون عن دعواهم - أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله - بأن ذلك من قول البشر ، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه النفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته

وإذا بطل ما ذكره من القول بالصرفه أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها الصرفه - لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه . وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم أن السكل قدرون على الاتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به . ولا بأعجب من قول فريق منهم : أنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وأنه يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد

فإن قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالنوراة والإنجيل والصحف ؟ قيل : ليس شيء من ذلك معجز في النظم والتأليف ، وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الاخبار بالغيوب . وإنما لم

(١) في النسخين « والطفرة » بالهجة

يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأننا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن . ولعلني آخر ، وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز ، ولكنه يتقارب . وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب . ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة لشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة [العربية] ، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية ، وكذلك التصرف في الاستعارات والاشارات . ووجوه الاستعارات البديعة التي يجي تفصيلها بعد هذا

ويشهد لذلك من القرآن أن الله تعالى وصفه بأنه : بلسان عربي مبين . وكرر ذلك في مواضع كثيرة ، ويترتب أنه رفعه عن أن يجعله أعجباً ، فلو كان يمكن في لسان المعجم إيراد مثل فصاحته ، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة . وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله أنه عربي مبين أنه مما يفهمونه ولا يقترون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم ، ولا يحتاجون في تفسيره إلى من سواهم ، فلا يمنع أن يفيد ما قلنا أيضاً كما أفاد بظاهره ما قدمناه . ويبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية ، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية . ومعنى آخر ، وهو أننا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم ، ولا ادعى لهم المسلمون ، فلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن . ويبين هذا أن الشر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية . وإن كان قد يتفق منها حذاف أو أصناف ضيقة ، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية .

و كذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية . فإن قيل : فإن المجوس يزعمون أن كتاب زرادشت و كتاب ماني معجزان . قيل : الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق الفيرنجيات و ضروب من الشعوذة ليس يقع فيها اعجاز . و يزعمون أن في الكتاب الحكيم ، وهي حكم متقولة متداولة على الألسن لا تختص بها أمة دون أمة ، وإن كان بعضهم أكثر اعتناء بها و تحصيلها و جمعاً لأبوابها . وقد ادعى قوم أن ابن المنفع عارض القرآن ، و إنما فزعوا إلى الدرّة البتية . و هما كتابان أحدهما يتضمن حكماً متقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شيء يدع من لفظ ولا معنى ، و الآخر في شيء من الديانات ، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل . و كتابه الذي يبناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجهر في الحكمة فأي صنم له في ذلك ، و أي فضيلة حازها فيما جاء به ؟ و بعد فليس يوجد له كتاب يدعي مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشغل بذلك مدة ثم رزق ما جدم ، و انسحباً لنفسه من اظهاره . فإن كان كذلك فقد أصاب و أبصر القصد ، ولا يمنع أن يشبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده و يتبين له أمره و ينكشف له عجزه . و لو كان بقي على اشتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته و لم يشبهه لدينا وجه شبهته ، و متى أمكن أن تدعى الغرس في شيء من كتبهم أنه معجز في حسن تأليفه و عجيب نظمه ؟



فصل

﴿ في جملة وجوه اعجاز القرآن ﴾

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الاعجاز :
 أحدها يتضمن الاخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا مبدل
 لهم اليه . فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على
 الأديان بقوله عز وجل (٢٣ : ٤) « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
 ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » فعل ذلك . وكان أبو بكر
 الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من اظهار دينه
 ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل
 كذلك في أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه ، فكان سعد بن أبي وقاص
 رحمه الله وغيره من امراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه ويخبرهم
 به ويوتق لهم ، وكانوا يلقون الظفر في رؤسهم ، حتى فتح الى آخر أيام عمر
 رضي الله عنه الى بلخ وبلاد الهند ، وفتح في أيامه مرو والشاهجان ومرو والزود
 ومنعهم من العبور بجهنم ، وكذلك فتح في أيامه فارس الى اصطخر وكرمان
 ومكران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان بمملكة
 ملوك الفرس بين البحرين من الفرات الى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس
 فلم يعد الى اليوم ولن يعود أبداً ان شاء الله تعالى ^(١) ثم الى حدود ارمينية والى
 باب الابواب . وفتح أيضاً ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر وأزال
 ملك فيصر عنها وذلك من الفرات الى بحر مصر وهو ملك فيصر . وغزت
 النخيل في أيامه الى عمورية ، فأخذ الضواحي كلها ولم يبق دونها الا ما حجز

(١) أي ان يهود من سلطان الاسلام الى سلطان المجرية

دونه بحر أو حلال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة . وقال الله عز وجل (١٢ : ٣) « قل للذين كفروا سفلون » ونحشرون الى جهنم وبئس المهاد . فصدق فيه : « وقال في أهل بدر (٨ : ٧) » « وإذ يهدى الله إحدى الطائفتين أنها لكم » ووفى لهم بما وعد . وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جداً وانما أردنا أن ننبه بالبعض على السك

والوجه الثاني أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ (١) ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنسابهم وسيرهم ، ثم أتى بحمل ما وقع وحدث من عظيمة الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه ، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتهاء خلقه وما صار اليه امره من الخروج من الجنة ، ثم جدلاً من أمر ولده وأحواله وقوبته ، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى اليه أمره . وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام ، الى ذكر سائر الانبياء المذكورين في القرآن والملك والفراسة الذين كانوا في أيام الانبياء صلوات الله عليهم . ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن تعلم ، واذ كان معروفاً أنه لم يكن مُلابساً لأهل الآثار وحمله الاخبار ولا متردداً الى التعلم منهم ولا كل من يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحي ولذلك قال عز وجل (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه

١ - فهم بمن من لا يحسن الفهم من هذا النوع أنه كان صلى الله عليه وسلم يقرأ غير أنه لا يحسن القراءة . ولهم من قول العاجري في حصة الحديثية عند كتابة الكتاب ج ٢ من ٨٠ « وليس يحسن يكتب » أنه كان يكتب ولكن لا يحسن ، وهذا الفهم خطأ نشأ من عدم فهم أساليب العربية وآداب الكتابة .

بوعينك إذا لا تطلب الميطلون » وقال (١٠٥ : ٦) « وكذلك نُصِرَتْ الآيات
 وليقولوا ذَرَسَتْ » وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشغل بملابسة
 أهل صنعة لم يخف على الناس أمره ولم يختلف عندهم مذهبه ، وقد كان يعرف
 فيهم من يحسن هذا العلم وإن كان نادراً ، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه
 للتعليم ، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومنعلها ، فلو كانت منهم لم
 يخف أمره .

والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناول في البلاغة إلى الحد
 الذي يُعَلِّمُ عجز الخلق عنه ؛ والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن
 نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها
 فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للاعجاز وجوه :

منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه
 واختلاف مذاهبه خارج عن المألوف من نظم جميع كلامهم ومباين لما ألوف من
 ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام
 المعتاد ، وذلك أن الطرق التي يتبعها هذا الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى
 أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المثقفي
 ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم
 إلى ما يرسل أرسالا فتطلب فيه الإصابة والأفادة وإقحام المعاني المعترضة على وجه
 بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معنولاً في وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام
 الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه
 ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب المسجع
 ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه
 كلام مسجع ، ومنهم من يدعي أن فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم إنه كـ

بعد هذا الموضع . فهذا اذا تأمله المتأمل تبين سبجو وجه عن أصناف كلامهم
وأصاليب خطابهم - أنه خارج عن العادة وأنه معجز ، وهذه خصوصية ^(١)
نرجع الى جملة القرآن وتبين حاصل في جميعه ^(٢)

ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والفرابة والتصرف
البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة
والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القصر . وإنما تنسب الى حكمهم
كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما يبينه بعد
هذا من الاختلال ، ويمترضها ما تكشفه من الاختلاف ، ويقع فيها ما يبيده
من التمثل والتكلف والتجوز والتعسف . وقد حصل القرآن على كثرته
وحاوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل (٣٩ : ٢٣)
« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون
ربهم ثم تليق جلودهم وقبورهم الى ذكر الله » (٤ : ٨٢) « ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . فأخبر أن كلام الآدمي ان لمند وقم
فيه التفاوت وبأن عليه الاختلال ، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي
بدأنا بذكره ، فتأمله تعرف الفضل

وفي ذلك معنى ثالث ^(٣) ، وهو أن عجب نطقه وبديع تأليفه لا يتفاوت
ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص
ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعتذار وانذار ووعد ووعد ونذار
وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة ، وغير ذلك

(١) يفتح الحاء وضبطها قالوا والفتح أفصح كقولهم لمن بين امرئ صفة يفتح اللام

(٢) أي من وجوه الاعجاز

(٣) هذا هو الوجه الثالث من وجوه الاعجاز

من الوجوه التي يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المقلد والخطيب
المستمع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور

فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون
المدح ، ومنهم من يسبق في التقرىظ دون التأنيب ، ومنهم من يجود في التأنيب
دون التقرىظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف
الحرب أو وصف الروض أو وصف الحار أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه
الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بليري القيس إذا ركب ، والتأنيبة
إذا رهب ، ويزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر
أجناس الكلام . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على
حسب الاحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فإذا جاء
الى غيره قصر عنه ووقف دونه ، وإن الاختلاف على شعره ، ولذلك ضرب
المثل بالذين سميتهم لانه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ، ولا شك في
تبريزهم في مذهب النظم . فاذا كان الاختلاف بينا في شعرهم لا اختلاف ما يتصرفون
فيه استغنيانا^(١) عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا
في الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد في الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه
نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه عما تكلفه أو
محله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قصر وانقص
نقصانا عجيبا ، ومنهم من يوجد بضد ذلك

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قد منها
ذكرها على حد واحد ، في حسن النظم وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت
فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد

(١) كان في الاصل « واستغنيانا »

وأما ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا
 الاعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف . وكذلك قد متفاوت كلام الناس
 بعد عادة ذكر القصة الواحدة . فرأينا غير مختلف ولا متفاوت بل هو على
 نهاية البلاغة ونهاية البراعة ، فعلما بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي
 يدرون عليه قد يتما فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تبين الوجوه
 . اختلاف الاسباب التي يتضمن

ومعنى رابع وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً ينفذ في الفصل والوصل
 والعمل والتزول والتقريب والتباعد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند
 نظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، ألا ترى أن كثيرا من الشعراء
 قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه ،
 حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحري مع جودة نظمه وحسن
 وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح ، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي
 فيه بشيء وإنما اتفق له - في موضع معدودة - خروج برضى وتقل يستحسن .
 وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء والتحول من باب
 إلى باب . ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن - على
 اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه السكتيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف
 كماؤلف والمتباين كالمتناسب والمتمايز في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا
 أمر عجيب ثمين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد
 العادة ويتجاوز العرف

ومعنى خامس وهو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة
 كلام الانس والجن ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ويقصرون عنه
 فنصورنا ، وقد قال الله عز وجل ١٧ : ٨٨ قل لن اجتمع الانس والجن

على أن يأتوا بمثله هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ،
 فإن قيل : هذه دعوى منكم وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن
 مثله ، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الاتيان بمثله وإن كنا عاجزين ، كما
 أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة وأسباب غامضة دقيقة لا تقدر نحن عليها ،
 ولا سبيل لنا للطفها اليها ، وإذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعيتهم سبيل
 قيل : قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل ، وقد يمكن أن يقال إن هذا
 الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن وما يروون لهم من
 الشعر ويحسون عنهم من الكلام ، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول
 عنهم ، والقدر الذي نقلوه قد تأملناه فهو في القصاحة لا يتجاوز حد فصاحة
 الانس ولعله يقصر عنها ، ولا يمنع أن يسمع الناس كلامهم ويقع بينهم وبينهم
 محاورات في عهد الانبياء صلوات الله عليهم ، وذلك الزمان مما لا يمنع فيه
 وجود ما ينقض العادات . على أن النجوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلا
 ولهم أشعار محفوظة مروية في دواوينهم . قل تأبط شرا (١) :

وأدهم قد جئت جليها كما اجتابت الكاعب انطباعا (٢)

(١) أنشد ابن بري البيت الاول لحاجز المروى النص غير أن المحفوظ أنها تأبط شرا
 تأبت بن جلد من بني نهم وهو جاهلي :

أرى تأبتا قد غدا مرعلا	تقول سليمي الجوانما
أب البعير ولا زملا	لها الول ما وجبت تأبتا
إذا يادر الحولة انطباعا	ولا رعت الساق عند الجرا
ويكسو جوانبها النسل	يفوت الجياد بقرية

(٢) وأدهم بربط الجبل . نص اصحاب كتب اللغة على معنى اجتابت القيس لبسه ودخله
 ولم يذكروا لفظ جبت القيس أو العلام أي لبسته ودخلت فيه وهو هنا بهذا المعنى . والجميل
 قيس لا كني له

الى أن حذا الصبح أنشأه ومزق جلبابه الأثيلا (١)
على شميم نار تنورثها فبت لها مديرا مقبلا (٢)
فأصبحت والغول في جارة فياجارتا أنت ما أهولا
وطالبتها بضمتها ، قالتوت بوجه تهول واستغولا (٣)
فن سأل أين توت جارفي فإن لها بالوي منزلا
وكننت إذا ما هممت اعتزم ت وأحز إذا قلت أن أفلا
وقل آخر:

عشوا ناري قلت منون أنت فقالوا الجن قلت عمو ظلاما
فتمت الى الطعام فقال منهم زعيم بحسد الانس الطعاما
ويذكرون لامريء القيس قصيدة مع عمرو الجني وأشعارا لها كرها
ذكرها الخولها . وقال حميد بن أيوب (٤) :
هـ در الغول أي رفيقة لصاحب فخر خائف يتقفر (٥)

(١) حذا : ساق . وأنشأ : جمع ثي على وزن حل من فوكة بمعنى ثي من الليل أي ساعد
ورفت . وليل أيل شديد الظلمة
(٢) الشيم للنظر الى النار وتنورت النار من يمد قيصرتها
(٣) البضع جمع بضعة كقشر ونمرة وهي القطعة من اللحم . وتهول صار حولة من الهول
يفزع منه . وتقولت النول واستغولت تلوت ونجوت . ويروي عجز هذا البيت « فكان من
الرأي أن تنلا » ويروي منه :

عظاية أرض لها حنا ن من ورق الطلع لم تنزلا
فن كان يسأل من جارني ... الخ

(٤) حميد بن أيوب من شرار وكنته أبو المطراد أحد بني المنذر بن عمرو بن تميم . وكان
لما فاتسكا بفتح الطريق هو والاحير السعدي سعد بن زيد مناة بن تميم ما بين البصرة
والحجاز وكثيرا ما يذكر الغول في شعره انظر الجيوان المعاصج ٥ من ٤٢ وج ٦ من
٤٨ و ٥٠ و ٥١ . وفي من ٧٣ منه ثلاثة أبيات على السنين لم ينسبها وهي له
(٥) كانت في الاصل « متقفر » على الاقوال . والرواية في الخامسة البصرية وفي الجيوان
الجامع « يتقفر » والنصيدة كلها مرفوعة الزوي

أرئت بلحن بعدلحن وأوقدت حوالي نيرانا نبوخ وتزهو
وقل ذو الرمة بعد قوله :

فقد أعشى النازح المجهول مشغفه في ظل أخضر يدعوهامة اليوم^(١)
للحن بالليل في حافاتها زجل كما تناوح يوم الريح عيشوم^(٢)
دوية ودحى ليل ككأنهم ما بم نراطن في حافاته الروم^(٣)
وقل أيضاً :

وكم عرست بعد الدرى من معرس به من كلام الجن أصوات سامر^(٤)
وقل :

ورمل عريف الجن في تحباته هزير كتضرب المغنين بالليل^(٥)
وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ويحكون عنهم ، وذلك
القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب ، صبح ما وصف عندهم من عجزهم
عنه كعجز الأنس . وبين ذلك من القرآن أن الله تعالى حكى عن الجن
ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال (٤٦ : ٢٩) « وأذ صرفنا إليك نفراً من الجن »

(١) السيف ركوبك الأمر بلا تدبير ولا روية . والنازح المجهول يريد غلاة . في ظل
أخضر : يريد الليل . وأخضر أسود . ويروي في ظل أخضر وليل أفضف أبس غلامه .
والهام أنى اليوم واليوم خاص بالذكور على الألف ودهاء اليوم عالمه معروف في شعر العرب ،
فإن ذلك قول يزيد بن مفرغ الحميري

وشربت برداً ليقي من به برد كنت هامة
هامة تدعو صدى بين الشقر والجامة

واستشهد صاحب القيان بهذا البيت في ترجمة (خضر) على قولهم أنا منه في أمر أخضر
أي جديد منى . وإن ما شرحنا به البيت أنه لا يصح هذا الاستشهاد

(٢) زجل جلبة . تناوح تضطرب وتمتر . واليشوم نصب دقائق طوال فلاجل تشخذ منه
الحصر المعينة الزينة

(٣) الدوية المفاولة . والدحى جد . دحية على وزن جمة وعلى اللقطة

(٤) كانت في الأصل « بعد النوى » من معرس لها « وصحبتاه من نسخة الديوان
المخطوطة بدار الكتب المصرية . والسامر النوم يسرون

(٥) عريف الجن صوتها . والمغنة جبل صلب يترنس الطريق فيأخذ به . وهزير يدوي دوي

يسمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين
الى آخر ما حكى عنهم فيها يتلوه . فإذا ثبت أنه وصف كلامهم ، ووافق ما يعتقدونه
من نقل خطابهم ، صح أن يوصف الشيء المؤلف بأنه ينحط عن دوحة القرآن
في الفصاحة

وهذان الجوابان أسدّ عهدي من جواب بعض المشككين عنه بأن عجز
الانس عن القرآن يثبت له حكم الاعجاز فلا يعتبر غيره . ألا ترى أنه لو
عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه فقال لنا قائل قد آوا على أن الملائكة
تعجز عن الاتيان بمثله لم يكن لنا في الجواب غير هذه الطريقة التي قد بيناها .
وأما ضعفنا هذا الجواب لأن الذي لم يكن وذكر عجز الجن والانس عن الاتيان
مثله ، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه كما علمنا عجز الانس عنه ، ولو كان وصف
عجز الملائكة عنه لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقة

فان قيل : أقسم قد اتهمتم الى ذكر الاعجاز في التفاصيل وهذا الفصل إنما
يدل على الاعجاز في الجملة . قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة فإنه يدل على
التفصيل أيضاً ، فصح أن يلحق هذا القبيل كما كان يصح أن يلحق بباب الجمل
ومعنى سادس وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب ، من البسط والاقتصار ،
والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والنحو والنحيق ، ونحو ذلك
من الوجود التي توجد في كلامهم ، موجود في القرآن . وكل ذلك مما يتجاوز
حدود كلامهم المعتاد يشهد في الفصاحة والابداع والبلاغة . وقد ضعفنا بيان
ذلك بعد لأن الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل

ومعنى سابع وهو أن المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة والاحكام
والاحتياجات في أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الالفاظ البديعة
وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، وينم ذلك

أنه قد علم أن تغيير الالفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والاسباب الدائرة بين الناس ، أهمل وأغرب من تغيير الالفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارح كان اللفظ وأعجب من أن يوجد اللفظ البارح في المعنى المتداول المتكرر ، والامر المنتظر المنصور ، ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع في الوجود التي تتضمن تأييد ما ابتدأ تأميسه ، وبراد تحقيقه ، بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعنى المعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم

ومعنى ثامن وهو أن الكلام يبين فضله ور جدها فصاحته ، بأن تذكر منه السكامة في تضاعيف كلام ، أو تقلد ما بين شعر ، فتأخذ الاسماع وتشوف اليه النفوس ، ويرى وجه روثه باديا غامرا سائر ما يقرب به ، كاللذة التي ترى في سلك من خرز ، وكالباقوة في واسطة العقد . وأنت ترى السكامة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جبهة ، وواسطة عقد ، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصه بروثه وجماله ، واعتراضه في جنسه ومائه ، وهذا الفصل أيضا مما يحتاج فيه الى تفصيل وشرح ونص لينحتمق ما ادعيته منه ، ولولا هذه الوجوه التي بناها لم يتجبر فيه أهل الفصاحة ، ولكانوا يفرعون الى العمل المقابلة ، والتصنع للمعارضة ، وكانوا ينظرون في أمرهم ، ويراجعون أنفسهم ، أو كان يراجع بعضهم بعضا في معارضته وينوون لها . فلما لم زهم اشتغلوا بذلك ، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة انما عدلوا عن هذه الامور عليهم بمجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه . ولا يتنع ان يلنيس - على من لم يكن بارعا فيهم ولا متقدما في الفصاحة منهم - هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى يعرف حال عجز غيره . الا

أما رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلبوا ولم يشغلوا بذلك ، تحققتا يظهر
 المعجز وعجيباته . وأما قوله تعالى حكاية عنهم (٨ : ٣١) لو نشاء لقلنا
 مثل هذا ، فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم ، و -
 يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم . ولذلك
 أمره الله مورد نفيهم ، لأنه لو كانوا على ما ادّعى به أنفسهم لكانوا
 يملكون الوعد إلى الانجاز ، والضمان إلى الوفاء ، فلما لم يستعملوا ذلك - مع
 استمرار النحدي وتطول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه -
 مع عجزهم ، اذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط ، ومعلوم
 من علمهم وحديثهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والموام والحيات وفي
 سبب الأزيمة والأنساع والامور التي لا يؤيده لها ولا يحتاج إليها ، ويتنافسون
 في ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح ، فكيف يجوز أن تمكنهم
 - ارضته في هذه المعاني الفسيحة ، والعبارة الفصيحة ، مع تضمن المعارضة
 كذبيته ، والذب عن أدبيته القديمة ، وإخراجهم أنفسهم من نسفيه رأيهم ،
 وإسلبه إياهم ، والنخلص من منازعته ، ثم من محاربته ومقارعته ، ثم لا يفعلون
 شيئا من ذلك ، وإنما يُجيبون أنفسهم على التعايل ، ويعلمونها بالباطيل
 ومعنى تاسع وهو أن الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون
 حرة ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ،
 وحلة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف
 الحلة وهو أربعة عشر حرفا ، يدل بالمذكور على غيره ، وليرفوا أن هذا
 الكلام منظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم ، والذي تنقسم إليه
 هذه الحروف على ما قدمه أهل العربية وبنوا عليها وجوها أقسام
 من ذاكرها

فمن ذلك أنهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهزة . فالمهموسة
سبعة عشر . وهي : (الحاء) و (الخاء) و (الحاء) و (الخاء) و (الكاف) و (الشين) و (السين)
و (الناء) و (الفاء) و (التاء) و (الصاد) و (السين) ، وما سوى ذلك من
الحروف فهي مجهزة . وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في
جملة الحروف المذكورة في أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهزة
على السواء لا زيادة ولا نقصان . و (المجهور) معناه أنه حرف أشيع الاعتماد
في موضعه ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، و (المهموس)
كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس . وذلك مما يحتاج الى
معرفة لتبني عليه أصول العربية

وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون انها على ضربين : أحدها
حروف الخلق وهي ستة أحرف (العين) و (الحاء) و (الهمة) و (الهاء)
و (الخاء) و (الفين) والصف من هذه الحروف المذكور في جملة الحروف التي
تشمّل عليها الحروف المبينة في أوائل السور ، وكذلك النصف من الحروف
التي ليست بحروف الخلق

وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين : أحدهما حروف غير
شديدة ، والى الحروف الشديدة وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه ، وهي
(الهمة) و (القاف) و (الكاف) و (الجيم) و (الظاء) و (الدال)
و (الباء) و (الباء) . وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هي المذكورة
في جملة تلك الحروف التي يبنى عليها تلك السور

من ذلك الحروف المنطقية ، وهي أربعة أحرف وما سواها منقطة .
والمنطقية (الفاء) و (الخاء) و (الصاد) و (الضاد) وقد علمنا أن نصف هذه
في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور

واذا كان القوم - الذين قسموا في الحروف هذه الالف - لم لا غراض اهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ - رأوا^(١) مبادئ اللسان على هذه الجهة ، وقد فيه عاذ كر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التنصيف الذي وصفنا ، دل على أن وقوعه الموضع الذي يقع التواضع عليه - بعد العهد الطويل - لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل ، لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب ، وإن كان إنما نبهوا^(٢) على ما بين عليه اللسان في أصله ولم يكن اهم في التقسيم تنبي ، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان ، فذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي بقصر عنها اللسان ، فإن كان أصل الامة توقيفاً فالامر في ذلك أبين ، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً ، لأنه لا يصح ان يجتمع همهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى . وكل ذلك يوجب اثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الاعجاز من وجه ، وقد يمكن ان تعاد فائدة كل سورة لفائدة تخصها في النظم اذا كانت حروفاً كتحو (آم) ، لأن الالف المبدوء بها هي أقصاها مطعماً ، واللام منوسطة ، والميم منطرفة لأنها تأخذ في الشفة ، فيه يدكرها على غيرها من الحروف ، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم بما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين ، ويشبه ان يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الالف لأن الالف قد تلتقي وقد تقع الهمزة وهي موقعا واحداً

ومعنى تاشراً وهو أنه سهل سبيله فهو خارج عن الوجوه المستكره ، والغريب المستكره ، وعن الصنعة المستكره ، وجعله قريباً الى الافهام ياتر معناه لفظه الى (١) في الاصل (ورأوا) غير ان سياق الكلام يقتضي حذف الواو فيكون « واذا قد لقوم رأوا مبادئ اللسان على هذه الجهة ... دل ذلك على أن »
(٢) في المخطوطة « شهبوا »

القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس . وهو مع ذلك ممنوع المطلب
عسير المتناول ، غير مطمع مع قرينه في نفسه ولا موعم مع دنوه في موقعه أن يقدر
عليه أو يظفر به . فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبذل
والقول المسفوف ، فليس يصح أن نفع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمتع
أو يوضع فيه الاعجاز . ولكن لو وضع في وحشي مسكرة ، أو غمر بوجوه
الصنعة وأطبق أبواب النصف والشكك ، لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر
وعيب ويقرع . ولكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله وجمله في
ذلك مناسبا متائلا ، وبين مع ذلك اعجازهم فيه . وقد علمت أن كلام فصحاءهم
وشعر بلغاتهم لا يبتك من تصرف في غريب مستكر ، أو وحشي مسكرة ،
ومعان مستعبدة . ثم عدوهم الى كلام مبذل وضع لا يوجد دونه في الرتبة ، ثم
نحوهم الى كلام معتدل بين الامرين متصرف بين المنزلين . فن شاء أن
يتحقق هذا نظر في قصيدة امريء القيس .

• فهايك من ذكرى حبيب ومزمل •

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف اليه هذه القصيدة
ونظائر ماومزاتها من البلاغة ، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها على وجه
يؤخذ باليد ، ويتناول من كتب ، وينصو في النفس كتصور الاشكال ، ليبين
ما احدثناه من الفصاحة العجيبة للقرآن

واعلم ان من قل من أصحابنا ان الاحكام معللة بلل موافقة مقتضى العقل ،
جعل هذا وجها من وجوه الاعجاز ، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنحو ما
يملكون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها ، دأبهم في كثير من تلك المثل طرق
قرينة ووجود مستحسن . وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ،
والسكن الأصل الذي يبنون عليه ، عندنا غير مستقيم . وفي ذلك كلام يأتي في

كتابنا في الاصول

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من الداني الزيادة والافراد ، فانا جمعنا بين أمور وذكرنا المزية المتعلقة بها وكل واحد من تلك الأمور مما قد يمكن اعتماده في اظهار الاعجاز فيه

فان قيل : فهل نزعون أنه معجز لانه حكاية للكلام القديم سبحانه ، أو لانه عبارة عنه ، أو لانه قديم في نفسه ؟ قيل : استأقول بأن المعروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على القاسد ، ولا نقول أيضاً أن وجه الاعجاز في نظم القرآن انه حكاية عن الكلام القديم ، لانه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات في النظم والتأليف ، وقد بينا أن اعجازها في غير ذلك ، وكذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردة ، وقد ثبت خلاف ذلك



فصل

﴿ في شرح ما بينا من وجوه اعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذي بدأنا به ذكره ^(١) من الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله ، فهو كقوله تعالى (٤٨ : ١٦) ﴿ قُلِ لِلْمُخَلَّقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّ عَوْنٍ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ مُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ فأغزاهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما الى قتال العرب والفرس : الروم ، وكقوله (٣٠ : ١ - ٤) ﴿ أَلَمْ غَلِبْتِ الرُّومَ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَدْرِ غَلَبِهِمْ سَيَذَلِّبُونَ فِي بَعْضِ سِنِينَ ﴾ وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك وحقق الله وعده ، وكقوله في قصة أهل بدر (٥٤ : ٤٥) ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلَّتْ الدَّارُ ﴾ وكقوله (٤٨ : ٢٧) ﴿ أَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُفَا بِالْحَقِّ لِنُدْخِلَنَّهُ الْمَدِينَةَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُخَلَّفِينَ فِيكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ وكقوله (٨ : ٧) ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ في قصة أهل بدر ، وكقوله (٢٤ : ٥٥) ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَدْرِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك . وقال في قصة المخلفين عنه في غزواته (٩ : ٨٣) ﴿ إِنْ تَخَرَّجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلِنْ قَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ حتى ذلك كله وصدق ولم يخرج من المخلفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد . وكقوله (٩ : ٣٣) ﴿ لَيُظَاهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وكقوله (٣ : ٦٠) ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ فلمنعوا من المساهلة ولم

أخبروا بها اضطربت عليهم الأودية نارا على ما ذكر في الخبر . وكقوله
(٢ : ٩٤ - ٩٥) « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من
دون الناس فموتوا الموت إن كنتم صادقين . وإن يمتنوه أبدا بما قدمت
أيديهم » ولو تمتنوه لوقع بهم . فهذا وما أشبهه فصل

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه ^(١) من الخبره عن فصوص الاوائل وسير
المتقدمين ، فمن العجيب المستع على من لم يفهم على الاخبار ولم يشغل بدرس
الآثار . وقد حكى في القرآن تلك الامور حكايه من شهدها وحضرها ، ولذلك
قال الله تعالى (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه
بعينك اذ الارتاب المبطلون » وقال (٢٨ : ٤٤) « وما كنت بجانب الغربي
اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين » وقال (٢٨ : ٤٦) « وما
كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنتذر فوما ما أنتم من
تدبر من قبلك » فبين وجه دلالة من الخبره بهذه الامور الغائبة السالفة
وقال (١١ : ٤٩) « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها
أنت ولا قومك من قبل هذا » الآية

فأما الكلام في الوجه الثالث وهو الذي بيناه ^(٢) من الاعجاز الواقع في
النظم والتأليف والوصف ، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوه منها : انا قلنا انه
نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ، ومباين لاساليب خطابهم .
ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا
السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى ، لان قوما من كفار قريش ادعوا انه
شعر ، ومن الملحمة من يزعم أن فيه شعرا ، ومن أهل اللغة من يقول انه كلام
سجع الا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ، ومنهم من يدعي انه
كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفون به من الخطاب

فصل

﴿ في نفي الشعر من القرآن ﴾

قد علمنا أن الله تعالى نفي الشعر من القرآن ومن النبي ﷺ فقال
 (٣٦ : ٦٩) « وما علمناه الشعر وما ينبغي له أن هو إلا ذكر وقرآن مبين »
 وقال في ذم الشعراء (٢٢٤ : ٢٢٥) « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم
 في كل وادٍ يهيمون » إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات فقال (٦٩ : ٤١)
 « وما هو بقول شاعر » وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار من قومه
 أنه شاعر ، وإن هذا شعر ، لا بد من أن يكون محولا على أنهم نسبوه في
 القرآن إلى أن الذي أنام به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعراب
 المحصورة المألوفة ، أو يكون محولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمهم
 وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق
 لهم في المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة ،
 أو يكون محولا على أنه أطلق عن بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر ،
 وهذا أبعد الاحتمالات فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا ،
 وذلك أن الشاعر يعطى لما لا يظن له غيره ، وإذا قدر على صنعة الشعر كان
 على مادونه - في رأيهم وعندهم - أقدر ، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب . قال
 زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعرا كثيراً فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت
 تام أو أبيات تامة ومنه ما يزعمون أنه مصراع كقول القائل :
 قد قلت لما حللوا سلاحي (هيات هيات لما توعدهون) (٢٣ : ٣٦)
 وما يزعمون أنه بيت قوله (٣٤ : ١٣) « وجفان كالجواب وقصور

راسيات « قالوا هو من الرمل من البحر الذي قيل فيه :
 ساكن الریح تطو ف المزن منهل الغزالى (١)
 وكقوله (٣٥ : ١٨) « من ترى فأنما يترى لنفسه » كقول الشاعر من
 بحر الخفيف :

كل يوم بشمس غداً مثل أمس
 وكقوله عز وجل (٦٥ : ٢-٣) « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه
 من حيث لا يحتسب » قالوا هو من المتقارب. وكقوله (٧٩ : ١٤) « ودانية
 عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلًا » ويشعرون حركة الميم فيزعمون أنه من
 الرجز. وذكر عن أبي نواس أنه ضمن ذلك شعراً وهو قوله :

وفنية في مجلس وجوههم ربحاتهم قد عدوا التثقيلا
 دانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلًا
 وقوله عز وجل (٩ : ١٤) « ويخزهم ويضربهم كما يريدون ويكشف صدور قورم
 مؤمنين » زعموا أنه من الوافر كقول الشاعر (٢) :

لنا غنم نسوقها رغزاراً كأن قرون جانتها عصي (٣)
 وكقوله عز وجل (١٠٧ : ١-٢) « أرايت الذي يكذب بالدين فذلك
 الذي يدع اليتيم » ضمنه أبو نواس في شعره ففصل وقال « فذلك الذي »
 وشعره :

وقرا معلنا ليصدح ناري والهو يصدح الغواد السقيا

- (١) يصف سحابة الخوف : غامور ، تطر حن الصباح . والنزالى : جمع عزلاء وهو
 مصب الماء من الزاوية والغربة في أسفلها
 (٢) امرؤ القيس الكندي
 (٣) غزار : غزيرة الباشا . وجة الابل مسانها جمع طيل مثل عبي وصبية . ورواية صدر
 البيت المشهورة « ألا إن لم تكن ابن فزى »

أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدعُ اليها
وهذا من الخفيف كتول الشاعر :

وفؤادي كعبد يسلمى بهوى لم يحل ولم يتغير
وكا ضمنه في شعره من قوله (٤٣ : ١٣) :

سبحان (من) سخر هذا لنا (حقاً) وما كنا له مُقرّين

مزاد فيه حتى انتظم له الشعر وكما يقولونه في قوله عز وجل (١٠٠ : ١-٢)
« العاديات ضبّحاً قلوريات قدحا » ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله (٥١ :
٣-٤) « والذاريات ذروا فالخاملات وقرا فالطاريات بشراً » وهو عندهم
شعر من بحر البسيط

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعواها من وجود : أولها ، ان الفصحاء
مهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعراً ولم يروه خارجاً عن
أصاليب كلامهم لبادروا الى معارضته ، لأن الشعر مسخر لهم سهل عليهم لهم
فيه ما قد علمت من التصرف المجيب والاعتدال اللطيف ، فلما لم ترحم اشتغلوا
بذلك ولا عوتوا عليه علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة
والمرمّدون في هذا الشأن (١) ، وان استدرك من يجي . الآن على فصحاء
فريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغاتهم وخطبتهم ، وزعمه انه قد
حضر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه ونفى عليهم مع شدة حاجتهم
الى الطعن في القرآن والغرض منه والتوصل الى تكذيبه بكل ماقدروا عليه ،
ان (٢) يجوز أن يخفى على أولئك وان يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل
حقيق . اذا كان كذلك علم أن الذي أحاب به العلماء عن هذا السؤال شديد (٣)

(١) أرمه الرجل جهده وانتظر

(٢) في الاصل (فان) وبها لا يسلم للمنى ولا الكلام ، وانهم غير « وان استدرك »

(٣) « شديد في الاصل »

وهو انهم قالوا : ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا ، وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام . وقالوا أيضا : ان ما كان على وزن بيتين الا انه يختلف ووجهها وقافيتها فليس شعر . ثم منهم من قال : ان الرجز ليس بشعر أصلا لاسيما اذا كان مشطرا أو منهوكا ، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الاجزاء . وعلى هذا يسقط السؤال . ثم يقولون : ان الشعر انما يطلق مني قصد القاصد اليه على الطريق الذي ينمى وبذلك ، ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان ونصرفه وما يتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر ، لانه لو صح ان يسمى شاعرا لكل من اعرض في كلامه الفاظ تتوزن بوزن الشعر ، أو تنظم انتظام بعض الأعارض ، كان الناس كلهم شعراء . لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض في جملة كلام كثير بقوله ما قد يتوزن بوزن الشعر وينظم انتظامه . ألا ترى ان العامي قد يقول لصاحبه « أغلق الباب واتلني بالطعام » ويقول الرجل لأصحابه « اكرموا من لقبتم من تميم » ومعنى تنبغ الانسان هذا عرف انه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه . وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد ليس بعدة أهل الصناعة سرقة اذ لم تعلم فيه حقيقة الاختصاص ، كقول امرئ القيس :

وفوقها صحبي علي مطيهم يقولون لانهك أسى ونجدي
وكقول طرفة :

وفوقها صحبي علي مطيهم يقولون لانهك أسى ونجدي

ومثل هذا كثير . فاذا صح مثل ذلك في بعض البيت ولم يمنع التوارد فيه فكذلك لا يمنع وقوعه في الكلام المنتور اتفاقا غير مقصود اليه ، فاذا انفق لم يكن ذلك شعرا ، وكذلك يمنع التوارد على بيتين وكذلك يمنع في الكلام

المنثور وقوع البيتين ونحوهما . ثبت بهذا ان ما وقع هذا الموضع لم يعد شعراً
 وإنما بعد شعراً ما اذا قصده صاحبه ثأني له ولم يمتنع عليه ، فاذا كان هو مع
 قصده لا يثأني له وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه
 شعر ولا ان صاحبه شاعر ، ولا يصح ان يقال ان هذا يوجب ان مثل هذا لو
 اتفق من شاعر فيجب ان يكون شعراً ، لانه لو قصده السكك يثأني منه . وإنما
 لم يصح ذلك لان ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعراً من أحد وما كان
 شعراً من أحد من الناس كان شعراً من كل أحد . ألا ترى أن السوقي قد يقول
 « اسقني الماء يا غلام سريعاً » وقد يتفق ذلك من الساهي ومن لا يقصد النظم .
 فأما الشعر اذا بلغ الحد الذي يثأني فلا يصح ان يقع الا من قاصد اليه . وإنما
 الرجز فانه يعرض في كلام العوام كثيراً فاذا كان بيتاً واحداً فليس ذلك بشعر ،
 وقد قيل : ان أقل ما يكون منه شعراً أربعة أبيات بعد أن تتفق فوائدها ولم يتفق
 ذلك في القرآن بحال ، فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجري مجراه في قلة
 الكلمات فليس بشعر وما اتفق في ذلك من القرآن يختلف الروي ، ويقولون :
 انه متى اختلف الروي خرج من ان يكون شعراً . وهذه الطرق التي سلكوها
 في الجواب معتدة أو أكثرها ، ولو كان ذلك شعراً لكائنات النفوس تنشوف
 الى معارضته لان طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهل
 يتقاربون فيه أو يضربون فيه بسهم

فان قيل : في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل
 هو مزاج متساوي الضروب ، وذلك آخر أقسام كلام العرب . قيل : من
 سبيل الموزون من الكلام ان تساوى أجزاءه في الطول والقصر والسواكن
 والحركات ، فان خرج عن ذلك لم يكن موزوناً كقوله :
 رب أع كئت به مقتبطاً أشد كفى بعراً صحت

نمسا مني بالود ولا أحسبه يزهد في ذي أمل
نمسا مني بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبدا فغاب فيه أملي

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القليل بل هذا قليل غير مدح ولا مقصود من جملة الفصيح، وربما كان عندهم مستفكرا بل أكثره على ذلك. وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولا وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التفتية، ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا وتتم فائدته بالخروج منه، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه

فصل

﴿ في نفي السجع من القرآن ﴾

ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه. وذهب كثير من مخالفيهم إلى اثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجانس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالنجناس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة. وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هرون عليهما السلام ولما كان السجع قيل في موضع هرون وموسى ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهرون. قالوا وهذا يفارق أمر الشعر لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي يسمى شعراً وذلك القدر

ما يتفق وجوده من المنفتح كما يتفق وجوده من الشاعر . وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير لا يصح أن يتفق كله غير مقصود اليه ، ويبتون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع ، قال أهل اللغة : هو موالاته الكلام على وزن واحد .
قل ابن دريد ، سجت الحماة معناها رددت صوتها . وأنشد :

طربت فأبكيتك الحام السواجم تميل بها ضحواً غصون نوائم^(١)

(النوائم ، الموائل : من قولهم جامع فأمع أي متمايل ضعفا) ، وهذا الذي

يرحمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب

كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك اعجاز . ولو جاز أن يقال : هو

سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز . وكيف والسجع مما كان يألفه

السكان من العرب وفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن

الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر . وقد روي أن النبي ﷺ قال

لأدين جازء وكلمه في شأن الجنين : كيف تدري من لا شرب ولا أكل^(٢) ، ولا

صاح فاستهل ، أليس دمه قد بطل ؟ فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ وفي

بعضها : أسجاعة كسجع السكان ؟ ؟ فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في

دلائله . والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال

السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه

دون بعض لأن السجع من الكلام يقع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ،

وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه

تأبعا للمعنى ، وفصل بين أن ينظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى

(١) سحراً : ضحى . ونوائم : جم نائم ، قال ابن دريد : ناع ينعج وينوع : قابل .
وروي : غصون نوائم .

(٢) كانت في الأصل : من لا أكل ولا شرب .

المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى
 بالسجع كانت أداة السجع كإفادة غيره ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع
 كان مستجلبا لتجديد الكلام دون تصحيح المعنى . فإن قيل : فقد يتفق في
 القرآن ما يكون من القليلين جميعا فيجب أن نسموا أحدهما سجعاً . قيل :
 الكلام في تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا وإلا كنا نأتي على فصل فصل
 من أوّل القرآن الى آخره وبين في الموضع الذي يدعون الاستغناء عن السجع
 من الفوائد ما لا يحصى ، ولكنا خارج عن غرض كتابنا ، وهذا القدر يحقق
 الفرق بين الموضعين . ثم إن سلم علم مسأله موضعاً أو مواضع معدودة ، وزعم أن
 وفروع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب الى الفواصل لتحسين الكلام بها ،
 وهي الطريقة التي يدين القرآن بها سائر الكلام ، وزعم أن الوجه في ذلك
 أنه من باب الفواصل ، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود اليه ، وأن ذلك إذا
 اغترض في الخطاب لم يعد سجعاً على ما قد بينا من القليل من الشعر كإبيت
 الواحد وانصراف البيت من الرجز ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال أنه شعر ،
 لأنه لا يقع مقصوداً اليه وإنما يقع مفعولاً في الخطاب ، وكذلك حال السجع
 الذي يزعمونه ويقدرونه . ويقال لهم : لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه
 سجعاً لكان مدحوماً مردولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت
 طرفه ، كان قبيحاً من الكلام ، والسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ،
 متى انحلت به المنكح أوقع الخلل في كلامه ونسب الى الخروج عن الفصاحة ،
 كأن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً ،
 وربما أخرجه عن كونه شعراً . وقد علمنا أن بعض ما يدعونونه سجعاً متقارب
 الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وترد
 الفاصلة على ذلك الوزن الأوّل بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير
 مرضي ولا محمود

فان قيل : متى خرج السجع المتبدل الى نحو ما ذكرتموه خرج من أن يكون سجعاً ، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه كله سجعاً ، بل يأتي به طوراً ثم يعدل عنه الى غيره ، ثم قد يرجع اليه

قيل : متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفاً للآخر كان تخطيطاً وخطباً ، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خطباً ، وعلم ان فصاحة القرآن غير مذمومة في الاصل فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب . ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه ، وكانت الطباع تدعو الى المعارضة ، لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم ، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا محير منها ؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع وليس بسجع عندهم ، وذلك نحو قول البحتري :

تَشَكَّى الْوَجْى ، وَالْأَيْلُ مَاتِيسُ الْمَسْجَا غَرِيبَةً الْاَنْسَابِ مَرَّتْ تَقْبَعُهَا (١)

وقوله (البحتري) :

قَرِيبَ الْمَدَى ، حَتَّى يَكُونَ إِلَى الذِّدَى ، عَدُوَّ الْبَنَى ، حَتَّى يَكُونَ مَعَالَى (٢)

ورأيت بعضهم يرتكب هذا فيزعم أنه سجع مدخل ، ونظيره من القرآن

(١) من قصيدته له مدح النوكل ويذكر صاحب قلب وهي من غير قصائده . وهذا البيت في نافته . الوجى من قومه وجبت النافه وجى وجمت في حقها . والایل الغريبة مقبولة الى القوم . وهو فعل له كان النعمان بن القنبر . المرت الارض لا كلاماً بها وان مطرت . والنفيع البئر الكثيرة الماء ، أو هو من المياه الباردة المذوب

(٢) من قصيدته في مدح محمد بن عمرو بن علي بن سبه . وهي جلية . المدى النافه . وقوله قريب المدى أي قريب النافه والانهاء فيها يسوءك كالنصب حتى يصير الى المدى فهناك سبب لا غاية لجرده . وهو عدو قل بناء لا يكون بناء معالي ، وكان من حق الاطراب على البحتري أن يقول « حتى يكون معالياً » والله أراد « حتى يكون بناء معال » فأجراه والبناء بكسر الهمزة أو ضمها وسكون التثنية هو ما بنيت ، وهو البني بالكسر أو اللضم أيضاً مقصوراً

قوله تعالى (١٦ : ٢٧) « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ » وقوله (١٧ : ١٦) « أَمَرْنَا مُنْقَرِفِينَ فَفَسَقُوا فِيهَا » وقوله (٩ : ٢٤) « أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » وقوله (٣ : ٤٨ ، ٤٩) « وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » ورسولا إلى بني اسرائيل « وقوله (١٩ : ٤) « إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » ولو كان ذلك عذرا سجعاً لم يتعجبوا فيه ذلك التعجب حتى ساء بعضهم سحراً ، وتعرفوا فيما كانوا يسعون به وبصرفونه اليه وينوهمونه فيه ، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه ، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم . والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل ، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مبادئة ذلك وجوء السجع

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن « أُنْبِتَكَ مَثْبِتًا طَابَتْ أَرْوَمَتُهُ ، وَعَزَّتْ جُرْنُومُهُ ، وَثَبَتَ أَصْلُهُ وَنَسَقَ فَرْعُهُ ، وَثَبَتَ زَرْعُهُ فِي أَكْرَمِ مَرْتَبَتَيْنِ ، وَأَطَابَتْ مَقْدُونُهُ » وما يجري هذا المجرى من الكلام

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفة للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم ، ولا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من تردد الحامدة صوتها على نسق واحد وروي غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لا يُدْنَى على الاشتقاق وحده ؛ ولو بُنِيَ عليه السكبان الشعر سجعاً ، لأن رويته يتفق ولا يختلف . وتتردد القوافي على طريقة واحدة . وأما الأمور التي يستريح اليها السكلام فأنها تختلف : فربما كان ذلك يسمى ^(١) قافية وذلك انما يكون في الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان [يسمى ^(٢)] مقاطع السجع وربما

(١) في النسخة المخطوطة : مسي (٢) الزيادة في لطبوعة وثبت في المخطوطة

سمى ذلك فواصل . وفواصل القرآن - مما هو مختص بها .. لاشركة بينه وبين
سائر الكلام فيها ولا تناسب

وأما ما ذكره من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع
وتأخيره عنه في موضع لسكن السجيم ولتساوى مقاطع الكلام ، فليس بصحيح ،
لان الفائدة عندنا غير ما ذكره . وهي ان اعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظ
مختلفة تؤدي معنى واحدا ، من الامر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين
فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ،
وقبها بذلك على عجزهم عن الاتيان به مبتدأ به ومكررا . ولو كان فيهم
تسكين من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بالفاظ طم تؤدي تلك
المعاني ونحوها ، وجعلوها بازاء ما جاء به ، ونوصلوا بذلك الى تكذيبه والى
مساوئه فيما جاء به . كيف وقد قال لهم (٥٢ : ٣٤) « فليأتوا بحديث مثله
ان كانوا صادقين » فعلى هذا يكون المقصد - بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها -
اظهار الاعجاز على الطريقتين جميعاً دون التسجيع الذي توهموه

فان قال قائل : القرآن مختلط من أوزان كلام العرب فيه من جنس خطيبهم ،
ورسائلهم ، وسجعهم ، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى ، واسكنه أبدع
فيه ضرباً من الابداع ابراعته وفصاحته

قيل : قد علمنا ان كلامهم ينقسم الى نظم ، ونثر ، وكلام مقفى غير
موزون ، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع ، ونظم مقفى موزون له
روي . ومن هذه الاقسام ما هو سجيبة الغلب من الناس . فتناولوا
أقرب ، وسلوكه لا يعمد . ومنه ما هو أصعب تناولاً كالوزون عند بعضهم أو
الشعر عند الآخرين . وكل هذه الوجوه لا يخرج عن أن يقع لهم بأحد
أمرين : إما يتعمل ونكاف ، وتعلم وتصنع ، أو باتفاق من الطبع وتنفيد من

النفس على اللسان للحاجة اليه . ولو كان ذلك مما يجوز اتقائه من الطوائع ، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ويتعرض على أنفسهم وتجيئ به خواطرهم ، ولا ينصرف عنه السكك^(١) مع شدة الدواعي اليه . ولو كان طريقة التعلم تصنعوه وتعلموه ، فالمؤلة لهم فسيحة والأمد واسع وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم ؟ فقد قيل : أنه اتفق في الأصل غير مقصود اليه على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه تألفه الاسماع وتنبهت النفوس ، تذبذبه من بعد وتعلموه . وحكى لي بعضهم عن أبي عمر^(٢) غلام ثعلب عن ثعلب أن العرب أتت أولادها قول الشعر يوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن

فعلانيك من ذكرى حبيب وموئل

ويسمون ذلك الوضع (الفتير^(٣)) واشتقاقه من المترو وهو الجذوب أو القطع يقال مترو السبل بمعنى فطمت أو جذبت ، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله . وأما ما وقع السبق اليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أو لا وقد يحتمل - على قول من قال بأن اللغة اصطلاح - أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم . وقد يمكن أن يقال مثله على النذهب الآخر ، وأنهم وقفوا على ما ينصرف اليه القول من وجوه التماصيح ، أو توافقهواهم بينهم على

(١) كانت بالاصاب « عند السكك »

(٢) كانت بالاصاب « أبي عمرو » بالواو وصوابه أبو عمرو الزاهد (بحذف الواو) محمد ابن عبد الواحد غلام ثعلب القري النقة الحافظ له كتب

(٣) لم أذكر بعد على هذه الفصة عن أبي عمرو الزاهد ولا من غيره ولست أعرف هذه الكلمة (فتير) وليست مبنية في كتب اللغة لا بهذا اللفظ ولا بغيره . وقوله ان اشتقاقها من لفر يدل على أنها على وزن (فليل) بمعنى مفعول أي غنور أي نظام

ذلك ، ويمكن أن يقال ان التواضع وقع على أصل الباب وكذلك التوقيف ، ولم
يقع على فنون تصرف الخطاب ، وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من
النظم ما أجرى ، وقطنوا لحسنه فتبعوه من بعد وبنوا عليه وطلبوه ورثوا فيه
الحسن التي يقع الاضطراب بوزنها ، ونهش النفوس اليها ، ويجمع ^(١) دواعيهم
وخواطهم على استحسان وجوه من ترتيبها ، واختيار طرق من ترتيبها ،
وعرفهم بحسن الكلام ، ودلهم على كل طريقة عجيبة ، ثم أعلمهم عجزهم عن
الانبات بالقرآن ، والقدر الذي ينتهي اليه قدرهم ، هو ما لم يخرج عن لغتهم ،
ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم ، ووجدوا ان هذا انما نعذر
عليهم مع التحدي والتفريع الشديد والحاجة الملحة اليه مع علمهم بطريق وضع
النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه ، دل ^(٢) على انه اخص به ليكون دلالة على
النبوة ومعجزة على الرسالة ، ولولا ذلك لكان القوم اذا اعتدوا في الابتداء
الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على برائته وحسن انتظامه ،
فقالوا يقدروا بعد التنبيه على وجهه والتحدي اليه أولى ان يبادروا اليه
لو كان لهم اليه سبيل . فلو كان الأمر على ما ذكره السائل لوجب أن لا يتعبروا
في أمرهم ، ولا تدخل عليهم شبهة فيها ناههم ، ولكانوا يسرعون الى الجواب
ويبادرون الى المعارضة ، ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد الى الأمور
البعيدة عن الوهم ، والأسباب التي لا يحتاج اليها ، فيكثر فيها من شعر ورجز ،
ونجد من يعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الأبل وتناجها وكثير
من أمرها لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا . ثم كانوا يتفاخرون بالأسان

(١) يريد جمع الله تعالى

(٢) هذا كلام مضطرب وفي الخطوط أكثر اضطراباً لأن أول الجملة هناك « بل قد
عرض في كلامهم ووجد » بالبناء فمجهول « وأن هذا .. » فهذا كما ترى لا يؤدي معنى
وأحسب الصواب « ولما وجدوا ان هذا انما تقدر ... دل على ... »

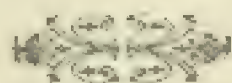
والذلاقة والفصاحة والدرابة ويتنافرون فيه ، ونجري بينهم فيه الأنساب
المقولة في الآثار على ما لا يخفى على أهل . فاستدلنا بشحيرهم في أمر القرآن على
خروجه عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعاً يخرق العادات ، وهذه
سبيل المعجزات

فيما نرى أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظم
التي تقع في الاسجاع ، لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها في باب السجع . وقد
يضاهون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريفه
كلمتين وبعضها ثلث ، ولا يرون في ذلك فصاحة بل يرونه عجزاً . فلو
رأوا ان ما نلى عليهم من القرآن سجعاً لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ،
فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن ونجاري حده في البراعة والحسن . ولا معنى
لقول من قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه ، لان ما تخلل بين
الامرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قد روه من السجع ، لانه لو كان من
باب السجع اسكن أرفع نهاياته وأبعد غاياته

ولا بد لمن جاوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب^(١)

(١) الذي ذهب اليه النظم هو ما سلكه ابن الخطيب القزلي في كتابه « الاختصار » والرد
على ابن الراوندي المحدث « من ٢٧ قال (أي ابن الراوندي) « وكان يزعم (أي ابراهيم
النظام) ان نظم القرآن وعقيقته ليسا بحجة التي صلى الله عليه وسلم وان الخلق يقدرون
على مثله (ثم قال) هذا مع قول الله عز وجل « قل ان اجتمعت الانس والجن على
اعل - فذلك الله الخبر - ان القرآن حجة على من صلى الله عليه وسلم على نبوته عند ابراهيم من
غير وجه فأحدها ما فيه من الاخبار بالنبوة (وذكر آيات مضت في كتابنا هذا) انجاز
القرآن ») الى أن قال : ومن الخبر بما في نفوس قوم وما سبقولونه وهذا وما أشبهه
في القرآن كثير . فالقرآن عند ابراهيم حجة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه
الوجوه وما أشبهها وأياها صلى الله تعالى بقوله « قل ان اجتمعت الانس والجن على الآية .
انه باختصار أي أن القرآن معجز بهام وحده

إليه النظام^(١)، وعبد بن سلمان^(٢)، وهشام القوطي^(٣) ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه اعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صُرفوا عنه ضرباً من الصرف. ويتضمن كلامه تسليم الخط في طريقة النظم، وأنه متظم من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم ولا يخرج عنها، ويستعين بديم نظمه وعجيب تأليفه الذي وقع التحدي إليه. وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع إليه وقد علموا عاداتهم في خطبهم وكلامهم أنهم كانوا لا يلزمون أبداً طريقة السجع والوزن، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمي الكلامين



(١) النظام هو أبو اسحاق إبراهيم بن سيار ذكره الذهبي فيمن مات بين سنة ٢٢١ إلى سنة ٢٣١ هـ. من تليفات الانتصار من ١٨٢

(٢) ذكر صاحب الانتصار من ٩٠ ٩١ هـ، وعبد بن سلمان وترجم له ابن المرقفي هذا الاسم وقال كان من أصحاب هشام القوطي عاش هذا الرجل في القرن الثالث من تليفات الانتصار من ٢٠٣

(٣) بلاصل الخطوط (الفرط) والخبوع (الفرط) والصواب ما أتيته، والقوطي بضم الدال فتخرج الحوا نسبة إلى القوط وهي نوع من الثياب واحدة فوط (السماني). وهو هشام بن عمرو الشيباني ذكره ابن المرقفي وأما مات في الربيع الأول من القرن الثالث له تليفات الانتصار من ١٩٢ - ١٩٣ وذكر هشام هذا ابن حزم في كلامه في المال والنحل ج ١ من ١٩٦ ٢٠٢

فصل

﴿ في ذكر البدیع من الکلام ﴾

ان سأل سائل فقال : هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما ينضمه من البدیع ؟

قيل : ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البدیع ألفاظا نحن نذكرها ، ثم بين ما سألوا عنه ليكون الکلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصور . ذكروا ان من البدیع في القرآن قوله عز ذكره (١٧ : ٢٤) « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقوله (٤٣ : ٤) « وإني في أم الكتاب لذينا لهي تحكيم » وقوله (١٩ : ٤) « ولشغل الرأس شيئا » وقوله (٣٦ : ٣٧) « وآية لهم الذل نسلمه منه النهار فإذا هم مظلمون » وقوله (٢٢ : ٥٥) « أو يا أيها عذاب يوم عقيم » وقوله (٢٤ : ٣٥) « نور على نور » وقد يكون البدیع من الكلمات الجامعة للحكمة كقوله (٢ : ١٧٩) « والسكم في القصاص حياة » وفي الألفاظ التفصيحة كقوله (١٢ : ٨٠) « فلما استأنسوا منه خلصوا نجيا » وفي الألفاظ الالهية كقوله (٢٧ : ٩٩) « وله كل شيء » وقوله (١٦ : ٥٣) « وما يكمن من من نعمة من الله » وقوله (٤٠ : ١٦) « لمن المالك اليوم لله الواحد القهار » ويذكرون من البدیع من قول النبي ﷺ « خير الناس رجل تمسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع حيلة طار إليها »^(١) وقوله « ربنا نقبض أوتينا وغسل حوتني »^(٢) وقوله « غلب عليكم ذاك الأثم قبلكم المسد

(١) الهبة : صوت الصارخ الفزع

(٢) الحوبة : الخطيئة والذنب

والبغضاء وهي الحاقلة حالقة الدُّين لاحاقلة الشَّعر « وكفوله « الناسُ كابل مائة لا نجدُ فيها راحلةً » وكفوله « وهلْ يكبُّ الناسُ على مناخرهم في نار جهنم إلاَّ حصادُ السَّيِّئِينَ ^(١) » وكفوله « انَّ مما يُنذِرُ الرِّيمَ ما يَفْتَسُ حَبَطًا أوْ يُلْمَ ^(٢) »

وكقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه ^(٣) وقوله لحالد بن الوليد « احْرِصْ على الموتِ توهبُ لك الحياة » وقوله « فرُّ من الشَّرِّفِ يتبعك الشَّرِّفُ »

وكقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في كتابه الى ابن عباس وهو عاملة على البصرة « ارْغَبْ رَاغِبِهِمْ واحلِّ عقدة الخوفِ عنهم » وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ « انما قال ذلك والذين في قلِّ فأما وقد اتسع نطاقُ الاسلام فكل امرئ » وما اختار « وسأل علي رضي الله عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم فقال « لاردشير فضيلة السَّبقِ غير

(١) قال ابن الاثير بعد ذكر الحديث « أي ما يقتطعون من الكلام الذي لا خير فيه واحدها حصيد فتشبهها بما يحصد من الزرع وتشبهها السان وما يقتطعه من القول بحمد المنجى الذي يحصد به »

(٢) قال الازهرى وابن الاثير ان هذا الخبر لا يكاد يهجم اذا قرئ أو يقرأ ابتداء هنا . روى البخاري في صحيحه (المطبوعة اليونانية ج ٤ ص ٩٦) عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان اكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض . قيل وما بركات الارض ؟ قال زهرة الدنيا . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالسر ؟ فحدث النبي صلى الله عليه وسلم حتى قلنا انه ينزل عليه . ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد لقد حدثناه حين طلم ذلك . قال : لا يأتي الخير الا بالخير ان هذا المال خضرة حلوة وان كل ما أثبت الرِّيم ما يقتل حيلة أو يلم الآفة الخضرة آكلت حتى اذا امتعت خضرنا ما استقبلت الشمس فابتزت وتلطت وبألت ثم حادت فأكلت . وال هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فتم للموتة هو ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع . انه من كتاب الرقائق من البخاري

(٣) انظر بعد « خطبة أبي بكر ومعه الى عمر رضي الله عنه »

ان أحمد بن عمرو شروان قال « فأي أخلاقه كان أغلب عليه ؟ » قال « الحسب والأمانة » فقال علي رضي الله عنه « هما توأمان يفتيحهما دلو الهمة » وقال « قيمة كل امرئ ما يحسن » وقال « العلم قفل ومفتاحه المسئلة »

وكتب خالد بن الوليد إلى مرزبة فارس « أما بعد فالحمد لله الذي فضّل خدمته وفرّق كلمته » والخدمة الخلقة المستديرة ولذلك قيل للخلائع خدام وقال الحجاج « دأوني على رجل سمين الأمانة »

ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسبي^(١) على الخوارج أرادوه على الكلام فقال « لاخير في الرأي القطير^(٢) » وقال « دعوا الرأي يُقرب^(٣) »

وقال اعرابي في شكر نعمة « ذلك عنوان نعمة الله عز وجل » ووصف اعرابي قوماً فقال « إذا اصطفوا سقرت بينهم السهام وإذا تصافحوا بالسيوف قعد الحام^(٤) » وسئل اعرابي عن رجل فقال « صغرت عيائب الوذ بيني وبينه بعد امتلائها واكفهرت وجوه كانت بمائها^(٥) » وقال آخر « من ركب

(١) من بني راسب بن مالك له ادراك وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص زمن عمر وكان مع علي في حروبه حتى وقع التحكيم وأنكرته الخوارج وأمروا عليهم عبد الله بن وهب وكان عيباً في العبادة حتى نسب لكثرة عبادته وسجوده « ذا التفات » وقتل يوم النهروان . اهـ باختصار عن الاصابة

(٢) القطير ما أشجل عن ادراكه ونضجه

(٣) ينب يفتح الباء المشددة لا الضم وللق دعوا الرأي يكثر يوماً أو يومين حتى ينضج
(٤) سقرت السهام صارت كالسفراف وهي الرسل بين القوم الصلح أو غيره ، أي انهم حين يردون الحرب نسفروهم السهام . وحين يرى الموت سبواهم يقعد ليصتريح ، فسبواهم موت آخر

(٥) صغرت : خلت . والعياب جمع عيبة وهي ما تجمل فيه الثياب ، يريد بالعياب الصدور . واكفهر وجهه اقتبس وفتح حتى ما يرى به أثر بصر أو فرح ، وأراد بقوله « بمائها » أي ماء البشر

ظَهَرَ الْبَاطِلُ نَزَلَ دَارَ النَّدَامَةِ « وَقَبْلَ رُؤْيَا : كَيْفَ خَلَقْتَ مَا وَرَاءَكَ ؟ فَقَالَ
« التُّرَابُ بَابِيسَ ، وَالْمَالُ عَابِسٌ »^(١)

وَمِنَ الْبَدِيعِ فِي الشَّعْرِ طَرَفٌ كَثِيرَةٌ قَدْ تَقَالَتْ مِنْهَا بَحَلَةٌ لَتَسْتَلِ بِهَا عَلَى
مَا بَعْدَهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمَنْعَرٍ قَيْدُ الْأَوَايِدِ هَبْكَلِي^(٢)

فَوَلَهُ « قَيْدُ الْأَوَايِدِ » هُنْدَمٌ مِنَ الْبَدِيعِ وَمِنَ الْاسْتِعَارَةِ وَبُرُونُهُ مِنَ الْإِلْفَافِ
الشَّرِيفَةِ ، وَغَنَى بِذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أُرْسِلَ هَذَا الْفَرَسُ عَلَى الصَّبَدِ صَارَ قَيْدًا لَهَا ،
وَكَانَتْ بِحَلَّةٍ لَمْفِيكٍ مِنْ جِهَةِ مَرَعَةٍ إِحْضَارِهِ . وَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ وَاتَّبَعَهُ الشُّعْرَاءُ
فَقِيلَ : « قَيْدُ التَّوَاظُرِ » وَ « قَيْدُ الْإِلْفَافِ » وَ « قَيْدُ الْكَلَامِ » وَ « قَيْدُ الْخَدِيثِ »
وَ « قَيْدُ الرِّهَانِ » وَقَالَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَحْفَرٍ :

بِمَقَاصِرِ هَنْدٍ جَهَنَّمِ شَدَّ قَيْدُ الْأَوَايِدِ وَالرِّهَانِ جَوَادُ^(٣)
وَقَالَ أَبُو نَمَامٍ :

لَهَا مَنَظَرُ قَيْدِ الْأَوَايِدِ لَمْ يَزَلْ بَرُوحٌ وَبَعْدُ فِي خَدَّائِهِ الْخَبُّ
وَقَالَ آخَرُ :

الْخَلَاظُ قَيْدُ حَيَوْنِ الْوُزْيِ فَلَيْسَ طَرَفٌ يَنْدَمُهُ
وَقَالَ آخَرُ :

قَيْدُ الْحُسْنِ عَلَيْهِ الْخَدَّاءُ

(١) بَحَلَةُ الْأَوَّلَى تُرَادُ بِهَا الْقَطْعَةُ ، وَأُرَادَ بِالْقَدِيمَةِ قَدَّ الْمَالِ وَانَّهُ لَا يَبْقَى مِمَّا عَدَّسَ
الْوَجْهَ فَطَلَبَهُ

(٢) وَكُنَاتُهَا أَوَّكَارُهَا . مَنْعَرٌ قَصِيرُ الشَّعْرِ وَذَلِكَ فِيهِ حَقٌّ ، قَيْدُ الْأَوَايِدِ بِقَيْدِ الْأَوَايِدِ
وَهِيَ آخِرُ الْوَحْشَةِ وَالْوَحْشُ بِإِهْلَاقِهِ إِذَا عَلَى مَرَعَتِهَا . الْهَبْكَلُ الْمَغْطِيمُ الْخَلْقُ

(٣) فِي الْأَصْلِ الْفَعْلُوعُ وَالطَّبُوعُ « عَقْرٌ » هَبْرٌ « بَلَاءٌ » هَبْرٌ فِي كِلَاهُمَا وَهُوَ غَطٌّ .
أُرْسِ مَالِي طَوِيلَ الْقَوَاسِمِ مَتَغِيرَ الْبَطْنِ . مَتَغِيرٌ مَتَغِيرٌ أَوَّلُهُ وَتَمِيهِهُ أَوْ كَسْرُهُ شَدِيدٌ تَقَامُ الْخَفَافُ
مَرِيحٌ الْوَتِيَّةُ مَعَهُ فَجَرِي قَيْسٌ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَلَا رَحَاةٌ . قَالَ أَبُو هَبْرَةَ جَهَنَّمُ شَدَّ
مَرِيحُ الْمَدُونِ

وذكر الأصمعي وأبو عبيدة وحماد وقيهم أبو عمرو أنه ^(١) أحسن في هذه اللفظة وأنه أثبت فيها فلم يُلحق ، وذكره في باب الاستعارة البليغة ، ومنها بعض أهل الصنعة باسم آخر ، وجعلوها من باب الازداف ، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف . قالوا ومثله قوله ^(٢) :

نورم الضحى لم تلتطّق عن تفضّل

وانما أراد ترفّعها بقوله « نورم الضحى » ومن هذا الباب قول الشاعر :

بعيدة تموى القرط إما التوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وانما أراد أن يصف طول جدها ، فأتى يردفه . ومن ذلك قول

أمرئ القيس :

وليل كعوج البحر أرغى سدوله

وذلك من الاستعارة الملية . ويجعلون من هذا القبيل ما قدّمنا ذكره من

القرآن (١٩ : ٤) « واشتمل الرأس شيبا » (١٧ : ٢٤) « وانخفض لها

جناح الذل من الرحمة » ، وما يعدونه من البدع الشبيهة الحسن كقول

أمرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خيائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يشق ^(٣)

وقوله :

كأن قلوب الطير رطباً وباباً لدى ونكرها العناب والخشف البالى

واستبدعوا تشبيهه شيتين بشيتين على حسن تقسيم ويجمعون أن أحسن

ما وجد في هذا للمحدثين قول بشار :

(١) يريد امرأة القيس

(٢) هو امرئ القيس أيضاً

(٣) الجزع الخرز الباني وهو الذي في ريان وسواد

كان مُشارُ النِّقَمِ فوق رؤوسنا وأسبافنا ليلَ نَهْأوى كواكبهُ
وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم في التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من
تشبيه احدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل . وكذلك عدوا
من البديع قول امرئ القيس في أذني الفرس
وسامعتان يُعرف البتقُ فيها كسامعتي مذعورة وسط رزب
وانبمه طرفة فقال فيه :

وسامعتان يُعرف البتقُ فيها كسامعتي شاعر بحومل مُقرَد
ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس :

وعينان كاللواتين وتحتير الى سندر مثل الصميصع المنصب (١)
وقال طرفة في وصف عيني نافته :

وعينان كاللواتين استككتنا بكم فني حجابي صخرة قلت مؤرد (٢)
ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس :

له أبطالا ظنوا وساقا نعاما وارخاء مسرحن اقريب تنقل
وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء آخرى فيها (٣)

ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى (٥٥ : ٢٤) « وله الجوار
المُنشآت في البحر كالأعلام » وقوله تعالى (٣٧ : ٤٩) « كأنهم يفيض
مكونون » وموضع ذكرهما بعد هذا

ومن البديع في الاستمارة قول امرئ القيس :

وليل ككوج البحر أرخى سدوله على بأنواع المموء ليتلى
فقلت له لما تطل بصلبه وأردف أعجازا ونام بكلكل

(١) المأوية المراء . ويريد بالسند الخ

(٢) أدرك الخدأ والمحتاج منبت شعر الخليل والفند وفي العين وأمله نقرة في الليل تملك النار

(٣) هي تشبيه كسجدهم الذي أدركه الى عباتهما ، وساقه يساقى النعام ، وعدوه يسوق القتب ،
وانه يرفع يديه بها وينزلها بها ، يفعل ولد الثعلب ، يريد انه مريح الخيل صليب القوائم

وهذه كتابها استعارات أتى بها في ذكر طول الليل . ومن ذلك قول النابغة :
وسدر أراح الليل عازب همة تضاعف فيه الحزن من كل جانب
فاستعاره من اراحة الراعي ابله الى مواضعها التي نأوي اليها بالليل . وأخذ
منه ابن الدمينه فقال :

أفغني نهاري بالحديث واللمنى ويجمعني والهم والليل جامع^(١)
ومن ذلك قول زهير :

صحا القلب عن ليلي وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله
ومن ذلك قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ اليها بعد ما نام أهلها سَمَوْتُ حجاب الماء حالاً على حال
وأخذه أبو تمام فقال :

سَمَوْتُ حجاب الماء جاشت غواربه

والغا أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه . ومن ذلك قول :

كأنى وأصحابي على قرن أغفرا

بريد أنهم غير مطمئنين

ومن ذلك ما كتبت الى الحسن بن عبد الله بن سعيد قال : أخبرني أبي قال
أخبرنا عسل بن ذكوان ، أخبرنا أبو عثمان المازني قال : سمعت الأصمعي
يقول : أجمع أصحابنا أنه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة :
فإنك كالليل الذي هو مذكركي وإن نلت أن أكنتمأي عنك وأسم
قال الحسن بن عبد الله : وأخبرنا محمد بن يحيى ، أخبرنا عون بن محمد
السكندي ، أخبرنا قتيب بن معمر قال : سمعت الأصمعي يقول : سمعت

(١) كذا في الأصلين ولقي برونه فقال لي اناله :

أفغني ناري بالحديث واللمنى ويجمعني بالليل والهم جامع

من فريدة القيس بن ذريح ، وقيل :

نهاري نهالتي من أقدارها لي الليل هزني اليك المظالم

أبا عمرو يقول : كان زهير يمدح السوقي ، ولو ضرب على أسفل قدميه مرثناً
ذَقْلٌ (١) على أن يقول كقول النابغة :

فأنك كالليل الذي هو مُدْرِكٌ وإن خلت أن المتأني عنك واسع
لما قل ، يريد أن سلطانة كالليل يصل إلى كل مكان . وأتبعه الفرزدق فقال :
ولو حملتني الريح ثم طابتني لسكرتُ كشيءٍ أدر كُنتي مفادرةً
فلم يأت بالمعنى ، لا اللفظ على ما سبق إليه النابغة ثم أخذه الأخطل فقال :

وإن أمير المؤمنين وفعله أسكالدهر لا عار بما فعل الدهر
وقد روي نحو هذا عن النبي ﷺ : نصرت بالرعب وجل رزقي تحت ظل
رحمي وليدخل هذا الدين على ما دخل عليه الليل ، وأخذه علي بن جبلة (٢) فقال :
وما لأمريء حاولته عنك مهرباً ولو كان في جوف السماء المطالع
على عارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع
ومثله قول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر ميثوثاً حباله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكتُ عيان الريح أصرفه في كل ناحية ما فذك الطلب
فأخذه البحتري فقال :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم عن خوف بأسك مهرب
ومن بدع الاستعارة قول زهير :

فلما ورجن الماء زُرْقاً جهامه وضمن عصي الخاضر المتخيم
وقول الأعشى :

(١) هنا بالأصل الخطي زيادة كلمة [من] هكذا بلا أصابع ولعلها منقبة والصني : الصباح ، أي
يسمع لهذا الضرب صوت الصباح .

(٢) بالأصل ياتس يسمع لكامة واحدة ، وقد اكملناه من مصادر التفسير . ورواه المعتمد :

وما لأمريء حاولته عنك مهرباً ولو رفقت في السماء المطالع
وبعد البيت الثاني كرواية المؤلف ثم قل : « وأكثر الأدباء يرجعونه على بيت النابغة » .

وان عتق العیس سوف یزودکم ثناء علی أعجازهن معلق
ومنه أخذ فصیب فقال :
فما جوا فأنشوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أنت عالمك الحقائق
ومن ذلك قول ثابط شرا :

فخالط سهل الأرض لم یکدح الصفا به كدحة الموت خزبان ينظر
ومن الاستمارة في القرآن كثير كقوله (٤٣ : ٤٤) « وانه لذكر لك
واقولمک » يريد ما يكون الذکر عنه شرفا . وقوله (١ : ١٣٨) : « صبغة الله
ومن أحسن من الله صبغة » قبل دين الله أراد وقوله (١ : ١٦) : « اشتروا
الضلالة بالهدى » فارجعت تجردهم »

ومن البدیع عندم الغلو^(١) : كقول الغزيرين نولب
أبني الخواث والأيام من نر اسفاد سيف قديم أثره بأدي
تظل تحفر عنه ان ضربت به بعد الفواعين والقيدين والهادي^(٢)
و كقول النابغة :

تقد السوقي المضاعف نسجه وبوقدن بالصفا نر الخياص
و كقول عنزة :
فازود من وقع القنا بلبانه وشكا الى مبرة وتحمحم
و كقول أبي تمام :

فم يعلم الركن من قد جاء بانحه لحرق يلثم منه موطن القدم
و كقول البحتري :

(١) الغلو . أصل بلوغ وصف في الشدة أو الضعف جدا يستحيل أن يحدثه العقل أو يدركه له
العرف . ولا يقل منه عند الأديب . ألا ما افرد به نثر . يقرب من الشدة أو الضعف حسن تعبيل أو ما
خرج مخرج الغلاة . وتفصيل هذا التبيان في مضافها من كتب اللامعة
(٢) الهداية في غير هذا الخطاب :

أبني الخواث والأيام من نر اسفاد سيف قديم أثره بأدي
تظل تحفر عنه الأرض مندحدا بعد الفواعين والقيدين والهادي

ولو ان مشتاقا فكاف فوق ما في وسعه ، لمشي اليك المنبر
ومن هذا الجنس في القرآن (٥٠ : ٣٠) : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت
ونقول هل من مزيد » وقوله (١٢ : ٢٥) : « اذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها
تغيظا وزفيرا » وقوله (١ : ٦٧) : « تكاد تميز من الغيظ »

ومما يمدونه من البديع الماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك أن يقصد
الإشارة الى معنى فيضم ألفاظا يدل عليها وذلك المعنى باللفاظ مثال للمعنى الذي
قصد الإشارة اليه ^(١) نظيره من المنثور أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن
محمد يتلصقا عن يمينه فكذب اليه « أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى
فاعتد على أيتهما شئت » وكذبحوا ما كتب به الحجاج الى المهلب « فان أنت
فعلت ذاك والا أشرعت اليك الرمح » فأجابه المهلب « فان أشرع الأمير
الرمح قلبت اليه ظهر الحن » وكقول زهير :

ومن بعض أطراف الزجاج فانه يطيع العوالي وكبت كل خدم
وكقول امرئ القيس :

وما ذرقت حينك الا لنضربن بهميك في أعشار قلب مقتل
وكقول عمر بن معدى كرب :

فلو أن قومي أطلقتنى وما هم نطقن ، ولكن الرماح أجرت
وكقول النائل :

بنى عمنا لا تفرزوا الشمر بعدما دفنتم بصحراء القعير القوافيا
وكقول الآخر :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أم عشر أيم أطلقوا عن لساليا

(١) كذلك فسرها أبو حلال السكري وهو غير المتفق الذي لم يطلع عليه المتأخرون حيث فسروها
بان تبال القاطع الكلام أو بعضا في الوزن دون النقية . وكقول امرئ القيس :
كأن الدمام وسوب الغمام وريح الخراسان ونشر الظفر
وكقول ابن جندب :

على قرب عدلى وقد الحق دعوام اجفاني وبران انساني

ومن هذا الباب في القرآن كقوله (١ : ١٧٥) : « فما أصبرهم على النار »
وكقوله (٤ : ٧٤) : « وثيابك فطهر » قال الاصمعي : أراد البدن قال : وتقول
للعرب « فدي لك ثوبي » يريد نفسه « وأنشد :

ألا أبلغ أبا - فص رسولاً - فدي لك من أخى ثقة أراوى
ويرون من البديع أيضاً ما يسمونه المطابقة ، وأكثرم على أن معناها أن
يذكر الشيء ضدّه كالليل والنهار ، والسواد والبياض ، واليه ذهب الخليل بن
أحمد والاصمعي ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز ذكر ابن المعتز من نظائره من
المنثور ما قاله بعضهم : « أتيناك لك بشا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق
الضمان » ونظيره من القرآن (١ : ١٧٩) : « ولكم في القصص حياة » وقوله
(١٩ : ٣٥) : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » وقوله (٢٢ :
٦١) : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » ^(١) ومثله كثير جداً ، وكقول
النبي ﷺ للانصار « انكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » وقال
آخرون : بل المطابقة أن يشترك متبنيان بلفظة واحدة ، واليه ذهب قدامة بن
جعفر الكاتب ، فمن ذلك قول الافوه الاودي :

وأقطع الموجل مستاناً بهوجل مستانس عتريس
عنى بالموجل الاول الارض وبالثاني الناقة . ومثله قول زياد الاعجمي :
وَنُفِثْتُمْ يَسْتَنْظَرُونَ بِكَاهِلٍ وَلَهُمْ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسَنَامٌ
ومثله قول أبي دؤاد :

عبدت لها منزلاً دائراً وآلاً على الماء يحملن آلاً
فالآل الاول أعمدة الخيام تنصب على البئر لاسقي ، والاك الثاني السراب ؛
وليس عندنا قول من قال : المطابقة إنما تكون باجتماع الشيء وضده بشيء ،
ومن المعنى الاول قول الشاعر :

(١) دي (١٣ : ٣٥) و (٦ : ١٢) : (٢٩ : ٣١)

أهين هم نفسي لا كرمها بهم وإن تُكرم النفس التي لأتوبها
ومثله قول امرئ القيس :

وتردى على صم صلاب ملاطس شديداً عقد لِيَنَاتِ رِمَاقِ
وكقول النابغة :

ولا يحسبون الخير لآثر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
وكقول زهير وقد جمع فيه طباقين :

بعزيمة مأمور مطيع وأمر مطاع : فلا يُبقي لحزمهم مثل
وكقول الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانيبه نهار
ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير :

وباسط خير فيكم يمينه وقاض شر عنكم بشمالها
وكقول رجل من بلعمير :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحسانا
وروى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه مثل بقول القائل :
فلا الجود يُفنى المال والجِدُّ مَقْبِل ولا البخل يُبقي المال والجِدُّ مَدِير
وكقول الآخر :

فمرى كاعلاقي وتلك سحبي وظللة ليلى مثل ضوء نهارها
وكقول قيس بن الخطيم :

إذا أنت لم تنفع فضرر فأما برحى الهوى كما يضر وينفعها
وكقول السموأل :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار إلا كثرين ذليل
فهذا باب يرويه من البديع

وباب آخر وهو التجنيس ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين : فمثله
 ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف جروفاً وإليه ذهب خليل ، ومنهم
 من زعم أن التجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق ، كقوله عز وجل
 (٤٢ : ٣٠) « فأقم وجهك للدين القيم » وكقوله (٤٤ : ٢٧) « وأسأت مع
 سليمان » وكقوله (٨٤ : ١٢) « بأسفا على يوسف » وكقوله (٨٢ : ٦) :
 « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن » وكقوله (٢٦ : ٦)
 « وهم يهتفون عنه ويتأولون عنه » وكقول النبي ﷺ « أسلم سالماً الله وغفار
 غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله » وكقوله « الظلم ظلمات يوم القيامة »
 وقوله « لا يكون ذو الوجهين وجيهاً عند الله » وكتب بعض الكتاب « العذر
 مع التندر واجب فأريك فيه » وقال معاوية لابن عباس : ما لكم يا بني هاتم
 تصابون في أيسارك ؟ فقال : كاتصابون في بصائرهم . وقال عمر بن الخطاب رضي
 الله عنه « هاجروا ولا تهجروا » ومن ذلك قول قيس بن عاصم :

ونحن حقرنا الخوفزان بطاعة كسته نجيعاً من دم الجوف أشكلاً

وقال آخر : أمل عابها باليلي الملوان

وقال لآخر :

وذا كبر أن قل الجار حالفكم وأن أنفسكم لا تعرف إلا أنفا

وكتب إلى بعض مشايخنا قال : أنشدنا الاخفش عن المبرد عن الثوري :

وقالوا حمامات فحجم أقاؤهما وظلح فزيرت والطي طلوح

عقاب بأعقاب من النأي بعدما جرت نية تنسى المحب طروح

وقال صحابي هدهد فوق بانه هدى وبيان بالنجاح بلوح

وقالوا دم دامت مواليق هدهد ودائم لنا حسن الصفاء صريح

وقال آخر :

أقبلن من مصر يبارين البرى

وقال القحطامي :

ولما ردها في الشول شالت بذيل يكون لها إلفاعا
وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك^(١) ، كقول البحتري
هل لما فت من تلاف تلاف أم لشاك من الصباية شاف^(٢)
وقول ابن مقبل :

يمشين تميل الذمامات جوانبه ينهال حيناً وينهال الثرى حيناً
وقال زهير :

هم يضر بون حبيك البيض اذ لحقوا لا يشكون اذا ما استلحموا وحوا
ومن ذلك قول أبي تمام :

بمدون من أبد عواص عواصم فصول بأسياف فواض قواضب
وأبو نواس يقصد في مصرنا على مقدمات شمره هذا الباب كقوله :
ألا دارها بالما حق تلبيها فلن تكرم الصبياء حتى نهيهما
وكذلك قوله :

ديار نوار ما ديار نوار كسوك شجوا من منه عوار
وكقول ابن المعتز :

سأنتى على عهد المطيرة والقصير وأدعوا لها بالسأ كنين وبالقطر
وكقوله :

هي الدار لا أنها منهم فقر وأني بها ناور واتهم صئر
وكقوله :

اللاماني حديث يفر ويسوم الدهر من قد يامر

(١) يريد ما يقارب ان يكون حرف مكان حرف لا سيما من الاء

(٢) محل الاستشهاد في بيت البحتري الشعر الثاني ، فلما الأول فباعل في معنى التجنيس الأول

وكقول المتنبي :

وقد أراني الشاب الروح في بدني وقد أراني المشيب الروح في بدلي
وقد قيل إن من هذا القبيل قوله عز وجل (٢١ : ٣٧) « خلق الإنسان من عجل ساركم آياتي فلا تستعجلون » وقوله (٣٩ : ١٤ - ١٥) « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه »
ويعدون من البديع المقابلة وهي أن يوفق بين معان ونظائرهما والمضاد بضده وذلك مثل قول النابغة الجعدي :

فني نمت فيه مايسر صديقه علي إن فيه مايسوء الأعديا
وقال تأبط شرا :

أهز به في ندوة الحى عطفه كاهز عطفي بالهجان الاوارك
وكقول الآخر :

وإذا حديث ساءني لم أكتئب وإذا حديث سراني لم أصرر
وكقول الآخر :

وذى اخوة قطعت أقران بينهم كما تركوني واحدا لا أخاليا
ونظيره من القرآن (١٩ : ٥٣ - ٥٤) . « ثم إذا مسكم الضر فإليه
نجأون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرمي بكم يثركون »
ويعدون من البديع الموازنة ^(١) وذلك كقول بهصم : اصبر على حر اللقا
ومضض النزال وشدة المصارع ^(٢) وكقول امرئ القيس :

سالم الشظاء ببل الشوى شنيع فسا

(١) الموازنة : تساوى الناسخين في الوزن دون النظم . نحو : (د فاروق مصفوف . و ز راني مشوكة)

وكقول امرئ القيس :

إذا جسد . وقد فراد . وساد جاد . وعاد فاضل

وهي تشبه بزيادة التي سلب ذكرها . والعرق بينهما دقيق

(٢) في النسخة الخطية « المصارع »

ونظيره من القرآن (٨٥ : ١ - ٣) « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعد وشاهد ومشهود »

ويعنون من البدیع المساواة وهي أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه وذلك بعدة من البلاغة وذلك كقول زهير :
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خلها تخفى على الناس تعلم
وكقول جرير :

فلو شاء قومي كان حلبي فيهم وكان على جبال أعدائهم جهلي^(١)
وكقول الآخر :

إذا أنت لم تقصر عن الجبل والظنا أصبت حلبي أو أصابك جاهل
وكقول الهذلي :

فلا تخر عن من سمة أنت سرها وأول راض سيرة من يسيرها
وكقول الآخر :

فإن هم طأوعوك فطأوعهم وإن عاصوك فاعصى من عصاك
ونظير ذلك في القرآن كثير

ومما يعدونه من البدیع الإشارة وهو اشتغال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة . وقال بعضهم في وصف البلاغة لحة دالة^(٢) . ومن ذلك قول طرفة :
فظل لنا يوم لذيذ بنعمة قتل في مقيل نحسنة متغيب
وكقول زيد الخيل :

فخيلة من يخيب على نقي وبهلة بن أعصر والزباب

ونظيره من القرآن (١٣ : ٣١) « ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به المونی » ومواضع كثيرة

ويعنون من البدیع المبالغة والفلو^(٣) والمبالغة ثأ كيد معاني القول وذلك

(١) في النسخة الخطية . وكان على أعداء جهلم جهلي ، ولعله سبو من السبخ

(٢) سب ان رشيق لحلف الآخر

(٣) قد تقدم ذكر الفلو . وشرحت معناه عند

كقول الشاعر :

ونكرم جارنا ما كان فينا وثقبة السكامة حيث مالا
ومن ذلك قول الآخر :

وهم تركوك أسلج من حباري رأيت صقراً وأشركاً من نعام
فأوله رأيت صقراً مبالغة . ومن الغلو قول أبي نواس :
توهمتها في كأسها فكأنما توهمت شيئاً ليس يدركه العقل
فأبرقي التشكيك فيها إلى مدى بحمد به إلا ومن قبله قبل
وقول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولكم أو مجدهم قمدا
وكقول النابغة :

بلغنا السماء مجدها وسناؤنا وأنا أترجو فوق ذلك مظهرا
وكقول الخنساء :

وما بلغت كف امرئ متناول بها المجد إلا حينما نلت أطول
وما بلغ المهدون في القول مدونة وإن أطلبوا إلا الذي فيك أفضل
وقول الآخر :

له هم لا تنتهي لكبارها وحمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البرأ ندى من البحر
ويرون من البديع الأيغال^(١) في الشعر خاصة فلا يطلب مثله في القرآن
إلا في القواصل كقول امرئ القيس :

كان عيون الوحش حول خيائها وأرحلنا الجرع الذي لم يثقب
وقد أوغل بالفافية في الوصف وأكده التشبيه لها والمنع قد يستقل دونها

(١) الأيغال : أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى شعر يزيد
بوضوحه وشرحه وتوكيدها وسنا

ومن البديع عندهم التوشيح وهو أن يشيد أول البيت بقائمه وأول الكلام بآخره كقول البحتري :

فليس الذي حلقه بحلل وليس الذي حرمة بحرام
ومثله في القرآن (٥ : ٢٩) « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه »

ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول الله عز وجل (١٧ : ٢١)
« انظر كيف فضأنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »
وكقوله (٢٠ : ٩١) : « لا تنفروا على الله كذبا فيسحقكم بهذاب وقد خاب من افتري » . ومن هذا الباب قول القائل :

وان لم يكن إلا تعال ساعة قليلا فاني نافع لي قليلا
وكقول جرير :

سقى الرمل جون مستهل غمام وما ذاك إلا حب من حل بالرمل
وكقول الآخر :

يود الفتى طول السلامة والفتى فكيف يرى طول السلامة يفعل
وكقول أبي صخر الهذلي :

عجبت لسمي الدهر يفتي وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وكقول الآخر :

أصدة بأيدي العيس عن قصد أرضها وقايي إليها بالمودة قاصد
وكقول عمر بن مرسى كرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ومن البديع محبة التقسيم^(١) ومن ذلك قول نصيب :

(١) التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسما مستوية تحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها جيس من اجناده . فمن ذلك قول الله تعالى (هو الذي يرزق البرق خوفا وطمعا) وهذا أحسن تقسيم لأن البرق عند رزقة البرق بين خائف وطماع

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما يدري
وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا . وكقول الآخر :
فكأنما فيه نهار ساطع وكأنه ايل عليها مظلم
وقول المتنم السكندري :

وان ياكلوا لحمي وفرت لحومهم^(١) وان يهدوا عبيدي بنيت لهم سجدا
وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هودوا غيبي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بفحص تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم مسعدا
وكقول صروة بن حزام :

من لو أراه غائبا لغدت ومن لو رأني غائبا لغداني
ونحوه قول الله عز وجل (١ : ٢٥٧) « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات »

ونحوه صحة التفسير ، كقول النافل :

ولي فرس بالحلم بالحلم ملجم ولي فرس لا جهل بالجهل مسرج
ومن البديع التكيل والتنميم^(٢) كقول نافع بن خليفه :
رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع
وانما تم جودة المعنى بقوله ويعطوه وذلك كقول الله عز وجل (٣١ : ٣٤)
« ان الله عنده علم الساعة » الى آخر الآية . ثم قل : « ان الله عليم خبير »
ومن البديع الترميم^(٣) وذلك من ألوان منها قول امرئ القيس :

(١) الرواية : قل انك اكلوا غي وفرت لحومهم

(٢) هو ان توفى الشيء مثله من الجودة وتعالى عليه من الصفة . ثم لا تدار معنى يكون فيه
تأمله الا توجد او افعل يكون فيه توكيده الا تذكره

(٣) الترميم : ان يكون حشو البيت مسجونا ، وهو انواع وحروب

محش محش مقبل مدير معا كتييس فلباه الحلب في العدوان (١)
ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس

بمنية لمتها السكر ما ينفضي مني لما الشكر
و كقوله وقد ذكرناه قبل هذا :

ديار نوار ما ديار نوار كدورك شجوا من منه صوار
ومن ذلك الفرصيع مع التجهيس كقول ابن المعتز :

ألم تخرج على أربع الخيل وأطلال آتار محول

ونظيره من القرآن كقوله : (٧ : ٢٠٩ - ٢٠٢) « ان الذين اتقوا اذا

مسهوم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في النفي

ثم لا يفصرون » وقوله (٦٨ : ٢ - ٣) : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان

لك لأجرآ غير ممنون » و كقوله (١٠٠ : ٧ - ٨) « وانه على ذلك شهيد وانه

الحب انظر لشهيد » و كقوله (٥٢ : ١ - ٢) : « والطور . وكتاب مسطور »

وقوله (٧٩ : ٣ - ٤) : « والساحات سبيحا . فالساحات سبيحا » وقد أولع

الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف

الكلام ومنهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومي :

أبدانهم وما لبد ن من الحور معاً حورير

أردانهم وما مسد ن من العبير معاً عبير

و كقوله :

فراهب أن لا يربب أماته ولاغب أن لا يريث فواجه

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى المضارعة وذلك كقول الخليل :

حامي الخفية محمود الخليفة هو ندي الطريقة نفع وضرار

(١) هذه رواية البيت في أصول الكتاب « وفي شعر امرئ القيس ذكر غير الخ . والحلب : بقعة
تأكلها الوحش تضرر عليها بنونها وقال القتيبي هو نبت تنالها القليل يخرج منه ما يشبه اللبن لا قطع وإنما
سمي الحلب لانه . والعدوان : المشرع

جواب فاصية جزاز ناصية عقاد ألوية الخيل جرار
ومن البديع باب التكافؤ ، وذلك قريب من المطابقة ، كقول المنصور :
« لا تخرجوا من عز الطاعة الى ذل المعصية » وقول عمر بن قمر : « انا لم نجد لك
اذا عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك » ومنه قول بشار :
اذا أبقتك حروب العدا فنبه لها ثمراً ثم م
ومن البديع باب التعطف ، كقول امرئ القيس :
عود على عود على عود خلق

وقد تقدم مثله

ومن البديع السلب والایجاب ، كقول القائل :
ونكر ان شئت على الناس قولهم ولا يذكرون القول حين نقول
ومن البديع السكناية والتعريض ، كقول القائل :
وأحر كالدجاج أما مماؤه قريباً وأما أرضه فمحول
ومن هذا الباب لمن القول

ومن ذلك العكس والتبديل ، كقول الحسن : « ان من خوفك اتأمن
خير ممن أمنتك لتخاف » وكقوله : « اللهم أغنني بالتمتع اليك ولا تقفرتني
بالاستغناء عنك » وكقوله : « يد دنياك بأخوتك تربحها جميعاً ، ولا تبع
أخوتك بدنياك فتعسرهما جميعاً » وكقول القائل :

واذا قدر زان حسن وجوه كان للذر حسن وجهك زينا
وقد يدخل في هذا الباب قوله تعالى (٢٢ : ٦١) : « يولج الليل في
النهار ويولج النهار في الليل » . ومن البديع الانتفات ، فمن ذلك ما كتب الى
الحسن بن عبد الله العسكري ، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي ، حدثني يحيى
ابن علي المنجم عن أبيه عن اسحاق بن ابراهيم قال : قال لي الأصمعي : أتعرف
الانتفات جريز ؟ قلت : لا ، فما هي ؟ قل :

أنتهي إذ قد عذا سليمان بفرع بشامة أضحى البشام
ومثل ذلك جرير :

مق كان الخيام يذني طلوح سفيتر الغيث أيها الخيام
ومعنى الالتفات أنه اعترض في الكلام قوله « سفيتر الغيث » ولو لم
يعترض لم يكن ذلك اتفاقاً وكان الكلام منتظماً وكان يقول « مق كان الخيام
يذني طلوح أيها الخيام » مق خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه
يلطف كان ذلك اتفاقاً . ومثله قول النابغة الجعدي :

ألا زعمت بنو سعد بآني - ألا كذبوا - كبير السن فاني
ومثله قول كثير :

لو أن الباذلين ، وأنت منهم ، رأوك تعلموا منك المطالا
ومثله قول أبي تمام :

وأنجدم من بعد اتهام داركم فيادمع أنجدي على ما كفى نجده
وكقول جرير :

طرب الحمام يذني الأراك فشاقي لا زلت في شلل وأهلك ضمر
التفت إلى الحمام فدعا لها ، ومثله قول حسان :

إن التي قاتلني فرددتها قنلت قنلت فهايتها لم تقتل
ومثله قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

وأنجل إذا ما كنت لا بد ما لما وقد أتبع الشيء الفتي وهو مجمل
وكقول ابن ميادة :

فلا صرمة يبدو وفي اليأس راحة ولا رصلة يصفو لنا ففكارمه

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن إبراهيم الخليل من قوله

(٢٩ : ١٦ - ٢٤) : « اعبدوا الله وانقوه ذلکم خبر لکم ان کنتم تعلمون .

انما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون أوثکا - الى قوله - فما كان جواب فرمه »

وقوله عز وجل (١٤ : ٢٠ - ٢١) : « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » وبرزوا لله جميعا « ومثله قوله (١٠ : ٢٢) : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم ريح طيبة » الى آخر الآية . ومثله قوله (٧ : ١٧٥ - ١٧٦) : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - الى قوله - فأنه كمثل السكب ان تعمل عليه يلهث أو تقركه يلهث » ومثله قوله (٥ : ٣٨ - ٣٩) : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديها جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه »

ومنهم من لا يبعد الاعتراض والرجوع من هذا الباب ، ومنهم من يفرد عنه كقول زهير :

قفت بالديار التي لم يبعثها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم^(١)
وكقول الأعرابي :

أبس قليلا نظرة ان نظارتها اليك ، وكلا ليس منك قليل
وكقول ابن هريرة :

أيت حفظ كحفظ العين منها وكثير منها القليل الموحدا
ومن الرجوع قول الفائق :

بكل تداوينا فلم يشأ ما بنا على ان قرب الدار خير من البعد^(٢)
وقال الأعشى :

صرمت ولم أصرمكم وكهارم أخ قد طوى كشعا وآب ليدهبا
وكقول بشار .

لى حيلة فيمن يئم^٣ وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو^٤ ل خيلتي فيه قليله

(١) كذا في النسخة : نعم ، وغيرها الخ ، وهو أجود وعليه يتم الاستشهاد وتكون

(٢) في المخطئة : « لم تدب » بالوزن الموحدة ، والذي في ديوان ابن السكيت مطابق ، والله باليد

التي والعلل من المجهول

وقال آخر :

وما بني انتصار ان غدا الدهر ظالمي عليّ بلى ان كان من عندك النصر
وباب آخر من البديع يسمى التذييل ، وهو ضرب من التأكد وهو ضد
ما قدمنا ذكره من الاشارة ، كقول أبي دواد :

اذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب
وأخذنا الخطيئة فقال :

فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه اذا لم أنزل
وكقول جرير :

لقد كنت فيها يا فرزدق نائماً وريش الذئابي تابع للفؤاد
ومثله قوله عز وجل (٢٨ : ٤ - ٨) : « ان فرعون علا في الأرض وجعل
أهلها شيعة » . الى قوله : « انه كان من المقسدين وزيد أن عن علي الذين
استضعفوا في الأرض ونجملهم اثمة ونجملهم الوارثين - الى قوله - كانوا خاطئين »
وباب من البديع يسمى الاستطراد فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد
الله قال أشدني أبو بكر بن حريز قال أشدنا أبو حاتم عن أبي صبيدة الحسن بن
ثابت رضي الله تعالى عنه :

ان كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الاحبة لم يقاتل دونهم ورمى برأس طيرة وطام (١)
وكقول السموأل :
وانا لقوم لا يرى القتل سهلاً اذا ما رأته عامر وسلول
وكقول الآخر :

خليلي من كتب أعيننا أخاك على دهره ان الكريم ممين
ولا تبخلوا بخل ابن قوعة إثم حفاة أن يرضى زراً حريز

هذا تعريف
فأما « كنت طيرة »
أبو حاتم

(١) قالوا بالاحدين ، ولم يقاتل ، الخ . والله في ديوان الحسن : ترك الاحبة أن يقاتل حريز .

و أقول الآخر :

فاذکر قرن الشمس حتى كأننا من العی نحكي أحمد بن هشام
و أقول زهير :

ان البخیل ملوم حيث كان وأ' کن الجواد علی علاته هرم
وفها كتب الی الحسن بن عبد الله قال : أخبرني محمد بن يحيى ، حدثني
محمد بن علي الأثيري ، قال : سمعت البحري يقول : أنشدني أبو تمام نفسه :
وساح هطل التعداد هتان على الجراء أمين غير خوان
أظمى الفصوص ولم تظاً قوائمه فجل عينك في ديان ظمان
ولو نراه مشبحا والخصي فلق بين السبابك من مشي ووحدان
أبقت - ان لم تنبت - أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عمان
وقال لي : ما هذا من الشعر ؟ قلت : لا أدري . قال : هذا المستطرد ، أو
قال : الاستطراد ، قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يرى أنه يصف الفرس ويريد
هجاء عمان ، فقال : وقال البحري :

ما ان يعاف قذى ولو أوردته يوما خلأني حمدويه الاحول
قال : فقيل لبحري : انك أخذت هذا من أبي تمام ، فقال ما يعاب علي
ان أخذ منه وأتبعه فما يقول . ومن هذا الباب قول أبي تمام :
صب الفراق علينا صب من كثيا عليه اسحق يوم الروح منتفما
ومنه قول السري الرفاء :

ززع الوشاة لنا بهم قطيعة يرى بهم الخين من يرى به
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد الله أو بحراه
و نظيره من القرآن (١٦ : ٤٨ - ٤٩) : « أولم يردوا الى ما خلق الله من
شيء ينفيو خلاله عن اليدين والشمال سجدا لله وهم داخرون لله يسجد ما في
السموات وما في الارض من ذابة والملائكة وهم لا يستكبرون » كأنه كان

المراد أن يجري بالقول الأول إلى الاخبار عن أن كل شيء يسجد لله عز وجل
وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص

ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر:

هلا سألت جوع كذا مدة يوم ولما أين أين
وكقول الآخر:

وكانت قزارة نحلى بنا فأرلى قزارة أولى لها

ونظيره من القرآن (٩٤ : ٥ - ٦) «فَنَ مَعَ الْعَسْرِ بِسْرَا إِنْ مَعَ الْعَسْرِ
بِصْرَا» والتكرار في قوله (١٠٩ : ١) «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» وهذا فيه
معنى زائد على التكرار لأنه يفيد الاخبار عن الغيب. ومن البديع عندهم ضرب
من الاستثناء (١) كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
وكقول النابغة الجعدي:

ففي كلت أخلاق غير أنه
ففي تم فيه ما يسر صديقه
وكقول الآخر:

حليم إذا ما الحلم زين أهله
وكقول أبي تمام:

ننصل ربها من غير جرم اليك سوى النصيحة والوداد

ووجه البديع كثيرة جدا فقتصرنا على ذكر بعضها ونهت عن ذلك على
ما لم نذكر كراهة التعليل، فليس للغرض ذكر جميع أبواب البديع
وقد قدر مقدرون أنه يمكن الاستفادة اعجاز القرآن من هذه الأبواب التي
قلناها وإن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن

(١) يسوءه تأكيد المدح بما يشبه المديح

هذه الوجوه اذا وقع التقبیه عليها أمكن التوصل اليها بالتدرب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه العمل له وإن مكنه نظمه ، والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال ، ويبين ما قلنا ان كثيرا من المخترعين قد تصنع لآبواب الصنعة حتى حشى جميع شمره منها واجتهد ان لا يفوته بيت الا وهو علوه من الصنعة ، كما صنع أنونام في لامبته :

من أنت عن ذهلية الخي ذاهل	ومدرك منها مدة الدهر آهل
نطل طائر الدمع في كل موقف	ونشل بالصبر الديار المرائل
دوارس لم يحف الربيع ونوعها	ولامر في اغفاها وهو غافل
قد سميت فيها السحاب ذيوها	وقد أخلت بالورد تلك الخائل
نعيق من زاد الغداة اذا انتحي	على الخي صرف الازمة المتاحل
لم سلف سمر العوالي وسامر	وفيهم جمال لا يفيض وجمال
ابالي أضللت العزاء وخذلت	بعنلك آرام الغدور العفائل
من الحيف لو أن الخلا خيل صيرت	لها وشحا حالت عليه الخلاخل
ممن الوحش الا ان هاتا أو انس	فما الخط الا ان تلك ذبايل
هو كان خلعا ان من أطيب الهوى ^(١)	هو حلت في أقبائه وهو خامل

ومن الادبا من عاب عليه هذه الابيات ونحوها على ما قد تكلف فيها من البدیع ، ونعمل من الصنعة ، فقال قد أذهب ماء هذا الشعر وورقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه ، وقد تعصب عليه أحمد بن عبيد الله ابن عمار وأمرف حتى تجاوز الى الغرض من محاسنه ، ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع في القبيح وهو يريد أن يبدع في الحسن كقوله في قصيدة أولها :

صرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
فقال فيها:

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد
وكفوله

لو لم تدارك مسن الحمد منذ زمن بالجود والياس كان الحمد قد خرقا
فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع القويث كفوله:
تسعون ألفا كآساد الشرى فضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب
وكفوله:

لو لم يمت بين أطراف الرماح إذا مات ، إذا لم يمت ، من شدة الحزن
وكفوله:

خشت عليه أخت بني خشين

وكفوله:

ألا لا يمت الدهر كفاً بسى الى مجتدى نصر فتقطع من الزند
وقال في وصف المطايا:

لو كان كلنهم عبيد حاجة يوماً لئننى شديفاً وجديلاً
وكفوله:

فصربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادونه عوداً ركوباً
فهذا وما أشبه، إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه
الصواب ، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستمارة
وغيرها حتى استقل نظمه واستوخم دصمه ، كان التكليف بارداً والتصرف
جامداً ، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح ، كما يتمق البارد القبيح
فأما البحرى فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ويقول للتصنع له
فاذا وقع في كلامه كان في الاكثر حسناً وشيئاً وظهر يفاً جميلاً وأصنعه للمطابق
كثير حسن وتمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلامة

فذلك يخرج سليماً من العيب في الاكثر وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى
وقعود العبارات عن النفاية القصوى فتشبه لا بد منه وأمر لا يحصى عنه كيف
وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدراً في هذه الصنعة وأكبر في الطبقة
كأريه القيس وزهير والنابغة وإلى يومه ونحن ندين بجزء كلامهم^(١) والمحافظة درجة
فولم يزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن في باب مفرد بتصوره به ذو الصنعة
ما يجب تصوره ويتحقق وجه الإعجاز فيه بمشينة الله وعمونه

ثم رجع الكلام بشأ إلى ما قدمناه من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز
القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك ان هذا الفن ليس
فيه ما يخرج القادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به
والنصنع له ، كقول الشعر ، ووصف الخطيب ، وصناعة الرسالة ، والخلق في
في البلاغة . وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسلم يرتقى فيه إليه ، ومثال قد
يقم طالبه عليه . فرب انسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً ، أو ينمود أن
يكون جميع خطابه سجعاً أو صنعة متصلة ، لا يسقط من كلامه حرف ، وقد
يبادء به ما قد تعود ، وأنت ترى أديبا زماننا يضيفون الخواص في جزء . وكذلك
يؤلفون أنواع البارع ثم ينظرون فيه اذا أرادوا انشاء قصيدة أو رسالة أو خطابة
فيحشرون به كلامهم ، ومن كان قد تسرب وتقدم في حفظ ذلك اشتغل عن
هذا التصنيف ولم ينجح إلى تكاف هذا التأليف ، وكان ما أشرف عليه من
هذا الشأن بأسطاً من باع كلامه وبوشحا أنواع البديع ما يحاوله من قوله . وهذا
طريق لا يتعدى وجاب لا يمتنع وكل يأخذ فيه مأخذاً ويقف فيه موقفاً على قدر
ما منه من المعرفة وبحسب ما يمد من الطبع

فأما شأو نظم القرآن فليس به مثال يحتذى إليه ، ولا امام يقتدى به ، ولا
يصح وقوع مثله اتفاقاً ، كما يتفق للشاعر البيت السادر ، والكلمة الشاردة ،

(١) كذا في المصحح الخليلي ، وفي المخطوطة : كلامهم . ومعنى هذا

واللهي الغد الغريب ، والشيء القليل المعجيب ، وكما يلاحظ بكلامه بالوحيات^(١) ويضاف من قوله الى الأبد ، لان ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموضع فانما يتفق للشاعر في اعم من شعره ، والمكاتب في قليل من رسائله ، والمخطيب في سحر من خطبه ، ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلاً سائراً ، ومعنى بديعاً ، ولغزاً رشيقاً وكل كلامه مملوئاً من روعة ومائة ، ومملأ^(٢) بهجته وحسن روايته ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلايين ، والمتردد بين الطرفين ، ولا البارد المستقل ، والغث المستنكر : لم يبين الاعجاز في الكلام ، ولم يبين التفاوت المعجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج الى تفصيل ، ومبهم قد يحتاج في بعضه الى تفسير ، وسند كذا ذلك بشيئة الله وعونه . ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه اليهم ، ان ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة وانه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحتهم ، واذا أورد هذا المورد ، وضع هذا الموضع كان جديراً . وانما لم نطلق القول اطلاقاً لانه لا يحمل الاعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة ورقياً عليها ومضافة اليها ، وان صح ان تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستقيم والتأمل المستقيم

﴿ فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ﴾

قد بينا انه لا يشبه لمن كان لسانه غير العربية من المعجم والترك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز القرآن الا أن يعلموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تمجدوا على أن يأتوا بمثله وقرعوا على ترك الاتيان بمثله ولم يأتوا به تبيينوا أنهم عاجزون عنه ، واذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز .

(١) الشعر في هذه الآية في وانظر

(٢) في الجملة ولا يضم اليه الاول وتبع الثانية

وكذلك نقول : ان من كان من أهل اللسان العربي الا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي ينداهي الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحاً بل يفتأ من غيره فهو كالأعمى في أنه لا يمكنه أن يعرف اعجاز القرآن إلا بمثل ما يتنا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا ذكره وهو من ليس من أهل اللسان سواء

فأما من كان قد تاهى في معرفة اللسان العربي ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي اليه ومع انتكامل من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسم ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين حسن الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الحميد والذمى والفصيح والبهيم والبادر والبارع والغريب ، وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصبر في من التقى ما يخفى على غيره ، ويعرف البراز من قيمة الثوب وجودته ودرجته ما يخفى على غيره ، وان كان بقي مع معرفة هذا الشأن أمر آخر وربما اختلفوا فيه ، لان من أهل الصناعة من يختار الكلام المثين والقول الرصين ، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق مآؤه وتروع بهجته ورواقه ويسلس مأخذه ، ويسلم وجهه وشفقته ويكون قريب المناول غير عويص اللفظ ولا غليظ المعنى ، كما يختار قوم ما يغرض معناه ويقرب لفظه ويختار ما سهل على اللسان وسق الى البيان ، وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيراً فقال كان لا يمدح الرجل الا بما فيه ، وقال لعبد بنى المسحاح حين أنشده :

كفى الشيب والأسلاء للمرء تاهياً :

أما انه لو قلت مثل هذا لاجزئت عاينه ، وروى ان جريراً سئل عن أحسن الشعر فقال : قوله :

ان أشنئ الذي في النار منزله والفوز فوز الذي ينحو من النار
كانه فضله لصدق معناه . ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والافراط فيه

حتى ربما قالوا : أحسن الشعر أ كذبه ، كقول النابغة :
 بقدر السلوق لمضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الجياح
 وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذمومين في المعنى والاقتصاد وفي المثانة
 والسلامة ، ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة وألطف تعميلا
 وإن ينحيز الالفاظ الرشيفة للعاني البديهة والقوافي الوافية كذهب البحري
 وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب :

في نظام من البلاغة ما شئت أمروا أنه نظام فريد
 وبديع كأنه الزهر الضاحك في رواق الربيع الجديد
 حزن مستعمل الكلام اختيارا ونجدين خلفه التعبد
 وركبين اللفظ الغريب قادرا من به غاية المراد البعيد
 ويرون أن من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا ولم يروه شاعرا ولا
 مصيبا ، وفيما كتب الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري قال : أخبرني محمد
 ابن يحيى ، قال : أخبرني عبد الله بن الحسن قال : قال لي البحري : دعاني إلى
 ابن الجهم فضيت إليه فافضنا في اشعار المحدثين إلى أن ذكرنا شعر أشجع فقال
 لي : إنه بخلي ، وأعادها مرات ، ولم أفهمها ، وانفت أن أسأله عن معناها . فلما
 انصرفت أفكرت في الكلمة ونظرت في شعره فإذا هو رباعية مرت له الايات
 مفسولة ليس فيها بيت رائم وإذا هو يريد هذا يعنيه أن يعمل الايات فلا يصيب
 فيها بيت قادر ، كما أن الرامي إذا رمى برشقة فلم يصيب بشيء قيل : قد أخطى .
 قال : وكان علي بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر

وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام الذي يجمع الغريب
 والعامي مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والاصمعي ، ومنهم من يختار
 الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات ، وقيل أنه اختار
 ذلك ليلة إلى ذلك الفن ، وذكر الحسن بن عبد الله أنه أخبره بعض الكتاب

عن علي بن النعمان قال : حضرت مع البحري مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : وقد سأل البحري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ، فقال البحري : أبو نواس أشعر ، فقال عبيد الله : إن أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما ، فقال البحري : ليس هذا من عمل ثعلب وذو به من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله إنما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر إلى مضايقه واشتهى إلى ضروراته ، فقال له عبيد الله : ورئت بك زنادي يأبى عبادة وقد وافق حكمتك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والغزدق أيهما أشعر فقال : جرير أشعرهما ، فقبل له بماذا : فقال لأن جريرا يشهد إذا شاء وليس كذلك الغزدق لأنه يشهد أبدا ، فقبل له : فإن نواس وأبى عبيدة يفضلان للغزدق على جرير ، فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله ، وفي الشعر ضرور لم يحسنها الغزدق ولقد دانت الدوار امرأته فذاح عليها بقول جرير :

لولا الحياء لمأذني استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزور

وروي عن أبي عبيدة أنه قال للغزدق : مالك لا تنسب كما ينسب جرير ؟ فغاب حولا ثم جاء فأشبه :

يا أخت ناجية بن سامة انني أخشى عليك بني أن طلبوا دمي^(١)

والإعديل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحاسة ، وما اختاره من الوحشيات ، وذلك أنه تذكر المستنكر الوحشي والمبتذل الدمى ، وأتى بالواسطة . وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ، ولا يعدل به فرض يخص . لأن الذين اختاروا الغريب قائما اختاروه لفرض لم في تفسير ما يشبه على غيرهم ، وأظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار شيء يرجع إليها في أنفسها . ويبين هذا أن الكلام

(١) كذا النسخة الخطية . و يا أخت ناجية . بالياء اللينة من تحت . وفي الطبعة : ناجية . بالموحدة

موضوع للإشارة عن الاغراض التي في النفس ، وإذا كان كذلك وجب ان يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى دلالة على المراد ، وأوضح في الإشارة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستلزماً المصطلح على الأذن ، ومستفاداً من اللفظ على النفس ، حتى يتأني بقرينة في اللفظ عن الاهتمام ، أو يقتضي تنويع معناه عن الإشارة ، ويجب أن يتكبد ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة ، رقيق المعنى ، صغاف في الوضع ، محتجب التأسيس على غير أصل محدد ، ولا طريق موطد ، وإنما فصلت العربية على غيرها لاعتمادها في الوضع ، لذلك وضع أصاها على [أن (١)] أكثرها بالحروف المتصلة ، فقد أهملوا الالفاظ المستخرجة في نظامها ، وأسقطوها من كلامهم ، فجري اسانهم على الأعدل ، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي لانهم بدءوا بحرف وسكنوا على آخر وجعلوا حرفاً وصلته بين الحرفين ليتم الابتداء والانهاء على ذلك ، والثاني قل وكمالت الروابي والخامس أقل ، ولو كان كاه ثانياً لتكررت الحروف ، ولو كان كاه رابعياً أو خامساً لتكررت السكلمات ، وكذلك بنى أمر الحروف التي انتهى بها السور على هذا ، فأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف ، وما هو أربعة أحرف سورتان ، وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان ، فلما ما بدى بحرف واحد فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من لم يجعل ذلك حرفاً وإنما جعله قبلاً واسماً لشيء خاص ، ومن جعل ذلك حرفاً قل أراد أن يعقب الحروف مفرداً ومنظوماً ، ولضيق ما سوى كلام العرب أو لظروجه عن الاعتماد بتكرار في بعض الالسنه الحرف الواحد في الكلمة الواحدة ، والكلمات المختلفة كثيراً ، كمنحو تكرار الطاء والسين في لسان يونان ، وكنحو الحروف السكتيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك ، ولذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر في تلك الالسنه على الاعراض التي تعكز في اللغة العربية ، والعربية أشدها نمكنا وأشرفها قصرها وأعدلها ، ولذلك جعلت حالية لنظم القرآن ، وعلق بها الاعجاز ، وصارت دلالة

في النبوة ، وإذا كان الكلام إنما يفيد الالباق عن الاغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن للتوصل اليها بانفسها وهي محتاجة الى ما يعبر عنها فما كان أقرب في تصويرها وأظهر في كشفها ففهم الغائب عنها - وكان مع ذلك أحكم في الالباق عن المراد وأشد تحفيظا في الايصاح عن الطلب وأعمق في وضعه وأشق في تصرفه وأبرع في نظمه - كان أولى وأحق بأن يكون شريفاً وقد شبهوا التعلق بالخط والخط يحتاج من يدايه الى رشاقة وصحة ^(١) ولطف حتى يجوز الفضيلة ويجمع السكل ، وتسموا الخط والخطن بالتصوير ، وقد أجمعوا أن من أحقق المصورين من صور ذلك اليها كي المتصاحك والباكي الحزين والمتصاحك المتبكي والمتصاحك المستبشر وكما أنه يحتاج الى لطف به في تصوير هذه الامثلة فذلك يحتاج الى لطف في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس الغير ، وفي جملة الكلام الى ^(٢) ما تقصر عبارته وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منها وفقاً للآخر ، ثم ينقسم ما يقع وفقاً الى ^(٣) أنه قد يفيدها على تفصيل ، وكل واحد منها قد ينقسم الى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منها بديعاً شريفاً وغريباً لطيفاً ، وقد يكون كل واحد منها مستجلباً متكلفاً ومصنوعاً متعسفاً ، وقد يكون واحد منها حسناً رشيقاً وبهيجاً نصيراً ، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نصارة في واحد منها ، إنما يميز من يميز ويعرف من يعرف ، والحكم في ذلك صعب شديد والفضل فيه شأوبعيد ، وقد قل من يميز أصناف الكلام ، فقد حكى عن طبقة أبي عبيدة وخلف الآخر وغيرهم في زمانهم أنهم قالوا ذهب من يعرف قد الشعر ، وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار ، وما يجب أن يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه ،

(١) في الحقيقة ياض بأصح الكلمة واحدة

(٢) كما في التفسيرين والمثل كلمة (أ) زيادة هنا بقضية المراد من العبارة

(٣) في هذه العبارة تصحفت من أهم المراد بعيداً

وكلام المقترن بلفظ وكلام المتوسع باب ، وكلام المطبوع له طريق ، وكلام
المتكلف له منهاج ، والكلام المصنوع المطبوع له باب ، ومنى تقدم الانسان
في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ولم تشبهه عنده هذه الطرق ، فهو
يعبر قدر كل متكلم بكلامه ، وقدر كل كلام في نفسه ، ويحده محله ويمتد فيه
ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم ، وان كان المتكلم بوجود في شيء
دون شيء عرف ذلك منه ، وان كان يعلم احسانه عرف . ألا نرى ان منهم
من يوجد في المدح دون المجو ، ومنهم من يوجد في المجو وحده ، ومنهم من يوجد
في المدح والسخر ، ومنهم من يوجد في الاوصاف ، والعالم لا يشذ عنه مراتب
هؤلاء . ولا يذهب عليه اقدارهم ، حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد
معدودة فالتفت غيرها من شعره لم يشك ان ذلك من نسجه ولم يرأب في أنه
من نظمه ، كما أنه اذا عرف خط رجل لم يشبهه عليه خطه حيث رآه من بين
الخطوط المختلفة ، وحتى يعبر بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره ، وكذلك
أمر الخطيب ، فان اشابه عليه البعض فهو لاشباه الطريقين ، وتعالى الصورتين
كما قد يشبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه
النصنع ، ويقصد فيه التسهيل ، ويسلك الطريقة السكتانية ، ويتوجه في تقريب
الالفاظ وترك تعريض المعاني ، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري والفاظه ،
ولا يخفى على أحد بجز هذه الصنعة سبك أبي نواس ، ولا نسج ابن الرومي
من نسج البحتري ، ويهيم ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبتدع وروقه
وبهجة كلامه ، لا فبا يسترسل فيه فيشبه شعر ابن الرومي ، وبحركة ما شعر
أبي نواس من الخلاوة والرفة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم
وكذلك يعبر بين شعر الاعشى في المنصرف ، وبين شعر امرئ القيس ،
وبين شعر النابغة وزهير ، وبين شعر جرير والاعطل والبعيث والفرزدق ، وكل
له منهج معروف ، وطريق مأخوذ ، ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل

عبد الحميد وطبقته ، وبين طبقة من بعده ، حتى أنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره . ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل ، وتقدم في شأوها ، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلس لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجاً ، فلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجعم وتارة طريقة الأصل ، وبرع في ذلك باقتداره ، وتقدم ، بحذقه ، واسكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقة من طريق غيره ، وإن كان قد يشبه البعض ، ويدق القليل ، وتغضض الأطراف ، وتشد التواحي وقد يتقارب صبك نفر من شعراء عصره ، وتقداني رسائل كتاب دهره ، حتى تشبه استقبالها شديداً ، وتماثل غاملاً قريباً ، فيغضض الفصل . وقد ينشأ كل الفرع والأصل ، وذلك فيما لا يتعدى ادراك أمدته ، ولا يتصعب غلاب شأوه ، ولا يتعمق بلوغ غايته والوصول إلى نهايته ، لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان إذا تفاضلوا ^(١) وتفاوتوا في مضمار فصل قريب . وأمر يسير ، وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق اللفاظ وسارق المعاني ، ولا من يخترعها ولا من يلم بها ، ولا من يجاهر بالاخذ من يكتم به ، ولا من يخترع الكلام اختراعاً ويتدعه ابتداءً ممن يروّي فيه ويحيل الفكر في تنقيحه ويصبر عليه حتى ينخلص له ما يريد وحتى يتكرر نظره فيه .

قل أبو عبيدة : سمعت أبا عمرو يقول : زهير والخطيب وأشباههما عبيد الشعر لأنهم تفحروا ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، كان زهير يسمى كبر شعره (الحواشي المنقحة) وقال عدي بن الرقاع :

وفصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المتن في كعوب قناته حتى يقهر نقاسه مُنَادها
وكقول سويد بن كراع :

(١) في الخطبة ياء بفتح ثالثة واء

أثبت بأبواب القوافي كأنها أصادي بها سرّاً من الوحش نزعا
ومهم من يُعرف بالبدية وحدة الفاخر ونفاذ الطبع وسرعة النظم ، يرتجل
القول ارتجالاً ويطبعه عفواً صفواً فلا يقعد به عن قوم قد تبعوا وكذبوا أنفسهم
وجاءوا خواطرهم ، وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوي واللفظ الملوكي ، كما
لا يخفى عليهم الكلام العامي واللفظ السوقي ، ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلاً ،
ويعطونه كيف تصرف حقوقه ، ويمرّون مراده ، فلا يخفى عليهم ما يختص به
كل فضل تقدم في وجه من وجوه النظم من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره
ولا يساويه سواء ، إلا تراهم وصفوا زهيراً بأنه أمدحهم وأشدهم أثر شعره أبو
عبيدة ، وروى أنب الفرزدق أنشعل بيتاً من شعر جرير وقال : هذا يشبه
شعري فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبتاه إليهم من المعرفة بهذا الشأن
وهذا كما يعلم البزازون وهذا الديباج عمل ينسج وهذا لم يعمل بتسعة وإن هذا
من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان ، حتى لا يخفى عليه وإن
كان قد يخفى على غيره

ثم أنهم يعلمون أيضاً من نه سمت نفسه ودرقت برأسه ، ومن يقندي في
الانقضاء في المعاني أو فيها غيره ، ويجعل سواء قدوة له ، ومن يلم في الأحوال
بمذهب غيره ويأبى في الاحيان بمعتزعه ^(١) وهذه أمور مبهمة عند العلماء
وأسياب معروفة عند الأدباء ، كما يقولون إن البحتري يغير على أبي تمام اغارة
ويأخذ منه سرّاً وإشارة ، ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ
من غيره ، ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواء ، كما كان أبو تمام يلم بأبي
نواس ومسلم ، كما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ويؤلف
ما يقوله من فرق شتى ، وما الذي يقع المثني بحجوده الأخذ وانكاره معرفة

(١) لفظ (بمعتزعه) ساقط من المخطوطة ، وفي مكانه ينسج له . وفيها دل على أن (بمعتزعه)

الطائفتين وأهل الصنعة يدلون على كل حرف أخذ منهما جهازا أو ألم بهما فيه سرارا ، وأما ما لم يأخذ عن الغير واسكن تلك الخط وراعى التهج بهم يعرفونه ويقولون هذا أشبه به من الثمرة بالثمرة وأقرب اليه من الماء الى الماء وليس بينهما الا كما بين الليلة واللييلة ، فاذا نبأنا وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه وسلك في غير جانب قيل بينهما ما بين السماء والأرض وما بين النجم والنون وما بين المشرق والمغرب

وانما أظنت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله ، وغائبه وجايه ، وقريبه وبعيد ، ومعهجه ومستقيمة . فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متداول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ، يعرفون مواقع قدرهم ، واذا اشته ذلك فاعلموا يشبه على ناقص في الصنعة أو قصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويدبرونه بولهم ولا يتجاوزونه ، فلكلامهم سبل مضبوطة وطرق معرفة محصورة ، وهذا كما يشبه على من يدعي الشعر من أهل زماننا والعلم بهذا الشأن ، فيدعي أنه أشعر من البحري ، ويشوم أنه أدق مسلكا من أبي نواس ، وأحسن طريقا من مسلم ، وأنت تعلم أنها متباعدة أن وتحقق أنها لا يجتمعان ، وأهل أحدهما إنما يلحظ عبارة صاحبه ، ويظالم ضياء نجمه ، ويراعي حقوق جناحه ، وهو راكد في موضعه ، ولا يضر البحري فله ، ولا يلحقه بشاؤ ، وهمه

فإن اشته على متادب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله وانما قدما ما قد مناه في هذا الفصل لتعرف أن ما ادعينا من معرفة البلوغ بملو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمر لا يجوز غيره ولا يحتمل

سواء ولا يشبه على ذي بصيرة ولا بخيل عند أخفى معرفة ، كما يعرف الفصل
بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المحضرين وبين المحدثين ، ويميز
بين من يجري على شاكلة طبعه وغريزة نفسه وبين من يشتغل بالكشف
والصنع ، وبين من يصير التكلف له كالطبع وبين من كان مطبوعه كالعمل
المصنوع ، عيها هيهات هذا امر - وإن دق - فله قوم يقتلونه علماً ، وأهل
يحيطون به فيها ، ويعرفونه اليك أن شئت ، ويصورونه لديك إن أردت
ويجولونه على خواطرك إن أحببت ، ويعرضونه لفتنتك إن حاولت ، وقد قال
القائل :

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا والدواوين كتاب وحساب
لكل عمل رجال ولكل صنعة ناس ، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ،
ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة ، وذهب من يحصل في هذا الشأن
القليلاً ، فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات
والتحقق بمجاري البلاغات ، قائماً بكتيك التأمل ويسيئ التصور ، وإن كنت في
الصنعة مرمداً وفي المعرفة بها متوسطاً ، فلا بد لك من التقليد ولا غنى لك عن
التسليم أن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها والشاذي فيها كالبائن منها
فإن أراد أن يقرب عليه أمراً وينسخ له طريقاً ويفتح له باباً ليعرف به اعجاز
القرآن فإنا نضع بين يديه الأمثلة ونعرض عليه الأساليب ونصور له صورة كل
قبيل من النظم والنثر ونحضر له من كل فن من القول شيئاً يتأمله حتى تأمله
ويراعيه حتى مراعاته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد ويعلم
له الفرق بين الكلام الصادر عن الرواية الطام من الإلهية الجامع بين الحكم
والحكم والاختبار من الغيوب والغائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب
لجلية اليقين والمعاني المنعرجة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها باللفاظ الشريفة

على تفننها وتصرفها . ونعمد الى شيء من الشعر الجمع عليه فبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب بواعث انكشاف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح وليمعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة

وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن الفارسي سئل فقيل له : ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل . وسئل اليوناني عنها فقال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وسئل الرومي عنها فقال : حسن الاقتضاب عند البداية والفرازة يوم الاطالة ، وسئل الهندي عنها فقال : وضوح الدلالة وتوافهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وقال مرة : التمس حسن الموقع والمعرفة بإساحات القول وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غرض وشرود من اللفظ وتغذر ، وزيلته ان تكون الشائيل موزونة والالفاظ ممدلة والهجعة نقيه وأن لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل للتدقيق ولا ينقح الالفاظ كل للتنقيح ويصفى كل النصفية ويهذبها بفاية التهذيب ، وأما البراعة ففيا يذكر أهل اللغة الخلق بطريقة الكلام ونحوه ، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة . وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى ، وقد قيل : معناها الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جليلة ومعان نقيه بهية ، والذي يصور عندك ما ضمنا تصويره وبحصل عندك معرفته اذا كنت في صنعة الادب متوسطا وفي علم العربية متبيناً ان ننظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فنعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فان تبين لك الفصل ووقعت على جليلة الامر وحقيقة الفرق فقد

أدركت الغرض وصادفت المقصد ان لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد وعلت انك من جملة العامة وان سيظل سبيل من هو خارج عن أهل القسان

﴿ خطبة لنبى ﷺ ﴾

روى طلحة بن عبيد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول : ه ألا أيها الناس ، توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ، وبادروا الاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي ينشكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتوحدوا وتنصروا ، واعلموا ان الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا في عمى هذا في شهرى هذا الى يوم القيامة حباتى ومن بعد موتى . فمن تركها وله امام فلا جرم الله له شمله . ولا بارك له في أمره ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا بر له ألا ولا يوم اعزاني مهاجرا ، ألا ولا يوم قاجر مؤمناً إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه .

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

أيها الناس ، ان لكم معالم فانتموها الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتموها الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه . فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستغيب ، ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار .

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

ان الحمد لله أحمد وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،

من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له - وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زين الله في قلبه ، وأدخله في الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، أنه أصدق الحديث وأبلغه . أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسوا عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، اتقوا الله حق تقاته وصدقوا صالغ ما تعدون بأفواهكم ، ونجاىوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

﴿ خطبة له ﷺ في أيام الفطر بق ﴾

قال بعد حمد الله : أيها الناس ، هل تعلمون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم ؟ في أي بلد أنتم ؟ قلوا : في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام . قل ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه . ثم قال : اصموا متى تمشوا ، ألا لا تظالموا (ثلاثاً) . ألا أنه لا يحل حال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه . ألا أن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه . ألا وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل) . ألا وإن كل ربا كان في الجاهلية موضع ، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا على العباس ، نسكم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظالمون . ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا وإن الشيطان قد يشن أن يعبد المصلون والسكن في التحريش بينكم ، اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأفسهن شيئاً ، وإن لمن عليكم حقاً ولسكن عليهن حق ، ألا يوطنن فرشكم أحداً غيركم ، فإن خفتن نشوزهن فعظوهن

واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، فانما اخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ثم سطر يده فقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أبلغ من سامع

﴿ خطبته ﷺ يوم فتح مكة ﴾

وقف على باب السكبية ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدهى فهو تحت قدمي هاتين الامة (١) البيت وسفاية الحاج . ألا وقتل الخطأ العمدة بالسوط والعصا فيه الدية منفلطة منها أربعون خلفة في بطونهم أولادها . يا معشر قریش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من نواب ، ثم تلا هذه الآية (٤٩ : ١٣) : يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، الآية . يا معشر قریش - أو يا أهل مكة - ما ترون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ ، قال : فاذهبوا فانتم الطالقاء .

﴿ خطبته ﷺ بالخياف ﴾

[روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخياف من منى فقال] (٢) : نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أدأها الى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : اخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم الجماعة ان دعوتهم تكون من ورائه ، ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي رغمة ، ومن كان همه الدنيا ففرق الله أمره وجعل فقره بين

(١) في الخطبة ياءن يسم الكلمة في مكان (سداة)

(٢) هذه العبارة كلها ليست بالخطبة

عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

رواها أبو سعيد الخدري رضى الله عنه

خطب بعد العصر فقال : ألا ان الدنيا خضرة حلوة ، ألا وان الله مستخلفكم فيها فاعلموا كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمتنع رجلا مخافة الناس أن يقول الحق اذا علمه . قال : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حرة على أطراف السعف ، فقال : انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى .

﴿ كتاب النبي ﷺ الى ملك فارس ﴾

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنتم من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم

﴿ كتاب له ﷺ الى النجاشي ﴾

من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة : سلم أنت فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملته ميسر فحملته من روحه ونفخة ، كما خلق آدم [من طين] ^(١) بيده ونفخة . واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني واني أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي . والسلام على من اتبع الهدى

(١) هذه الكلمة ليست بالانسخة الخطية

﴿ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية ﴾

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ﷺ سهيل بن عمرو : اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشرين سنة يأمن فيه الناس ، ويكف فيه بعضهم عن بعض ، على أنه من أنى رسول الله ﷺ بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشاً من مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيمة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا اغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، وأنت ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فإذا كان عاماً قابلاً خرجنا منك فدخلناها بأصحابك فأقت بها ثلاثاً ، وإن ملكك سلاح الراكب والسيوف في التركيب فلا تدخلها بغير هذا

ولا أحول عليك وأقتصر على ما ألقته إليك فإن كان لك في السبعة حفظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الأدب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وإن قل ذلك السهم أو قص ذلك التصويب ، فما أحبب أنه يشبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله ، وما عليك تسمعه من كلامه ويتناقله إليك من ألفاظه ، وأقصر إليك ترى بين الكلامين يوماً بعيداً ، وأمداً بعيداً ، وميداناً واسعاً ، ومكاناً شاسعاً

فلن قلت الله أن يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبئه ، فتثبت في نفسك وأرجع إلى عقلك واجمع لبك ، وتيقن أن الخطيب يحشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ، ولا يتجاوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكتاب جواميزه ، ويشر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقعها الاخلال ؟ وكيف يتعرض

للتعريض ؟ فستعلم لاحالة أن نظم القرآن من الامر الإلهي ، وإن كلام النبي ﷺ من الامر النبوي

فإذا أردت زيادة في التبيين ، وتقدماً في التعرف ، وإشراقاً على الجلية ، وفوراً بحكم القضية ، فتأمل - هناك الله - ما نسخك لك من خطاب الصحابة والبلغاء ، لتعلم أن نسجها ونسج ما قلنا من خطاب النبي ﷺ واحد ، وسبكها سبك غير مختلف ، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشعراء ، وذلك أمر له مقدار معروف ، وحد - ينتهي إليه - مضبوط ، فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج ، ولجلكه طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت : - نظرت الى نظم القرآن نظرة أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، فتراعى بُعد موقعه ، وعالي محله وموضعه ، وحكمت بواجب من اليقين ، وتلج الصدر بأصل الدين

﴿ خطبة لابي بكر الصديق رضي الله عنه ﴾

قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فإني وليت أمركم ، ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن ومن النبي ﷺ وعدنا فعلنا . واعطوا إن أكيس الكيس التقى ، وإن أحق الحق الفجور ، وإن أقوام عندي الضعيف حق أخذاه بحقه ، وإن أضعفكم عندي الأقوي حق أخذته الحق . أما الناس ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوموني

﴿ عهد لأبي بكر الصديق الى عمر رضي الله عنهما ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر ، أني استغفرت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن برأ وعدك فذاك ظني به

ورأي فيه ، وإن جازو بدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت لكم ، ولكل
 أمري ما اكتسب من الاثم ، وسيعلم الذين ظفوا أي منقلب ينقلبون
 وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال : دخلت على أبي
 بكر الصديق رضي الله عنه في علة التي مات فيها فقلت : أراك بارئاً يا خليفة
 رسول الله . قال : أما أبي علي ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر
 المهاجرين أشد علي من وجعي . أتى وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم
 ورم أفقه أن يكون له الأمر من دونه ، والله استعذذ نضائد الديار ومستور الحرير
 ولألمن النوم على الصوف الأذري كما يألم أحدكم النوم على حاك السعدان .
 والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب رقبتك في غير حد خير له من أن
 يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جزت^(١) ، أما هو - والله - الفجر أو
 البحر . قال : فقلت خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ فإن هذا يبيضك
 إلى ما بك ، فوافقه ما زلت صالحاً مصلحاً لأناسي على شيء . فقلت من أمر الدنيا ،
 ولقد تخلّيت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيراً

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلناه منها قصة السقيفة

﴿ نسخة كتاب ﴾

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب رضي
 الله عنهم :

سلام عليك فإنا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإفادناك
 وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحرها وأسودها ،
 يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع والكل حصته من العدل
 فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، فإنا نحمدك يوماً نعتو فيه الوجوه ، ونحبب فيه

(١) في النسختين جزت المأوى وفي غير هذا الكتاب جزت بالراء المهملة وهذه الصواب كما جاء في رواية
 للبيهقي (٥٥/١) بشره المصنف ، وناسخه أحمد بن حنبل (٥٠/١) وهو العقد الغريب ، وهو نسخة ربه (٤٦٧/١) . وكتب
 على نسخة في ١٨/١ من مخطوطات مكتبة

القلوب ، وانا كنا نتحدث ان هذه الامة ترجع ^(١) في آخر زمانها أن يكون
اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله أن نزل كتابنا سوى المنزل
الذي نزل من قلوبنا ، فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك ، والسلام
فكتب اليها :

من عمر بن الخطاب ، الى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل :
سلام عليك ، فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو . أما بعد فقد جاني
كتابكما تزعمان أنه باقكما ابي وليت أمر هذه الامة أحمرها واسودها يحاس بين
يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبنا ان انظر كيف انت يا عمر عند
ذلك ، وانه لا حول ولا قوة الا بالله . وكتبنا نخبراني ما حدثت
به الامة قبلنا ، وقد بدأ كان اختلاف القبل ، والتمار بأجال الناس يقربان كل
بعيد ، ويبليان كل جديد ، وبأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس الى منازلهم
من الجنة او النار ، ثم توفي كل نفس بما كتبت ان الله سريع الحساب . وكتبنا
تزعمان ان امر هذه الامة يرجع ^(٢) في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية
اعداء السريرة ، واسم بذلك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين
تظهر الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ، ورهبة
بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبنا نعوذ ان نزل كتابكما من غير
المنزل الذي نزل من قلوبكما وانما كتبنا نصيحة لي ، وقد صدقتكما فتمهداني
مشكما بكتاب ولا غنى لي عنكما

✽ عهد من عهود عمر رضي الله عنه ✽

بسم الله الرحمن الرحيم • من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى
عبد الله بن قيس : سلام عليك . أما بعد ، فان لاقضاء فرضة محكمة ، وسنة

(١) في الخلية يرجع

(٢) في الخلية يرجع

متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لا ينفع : كلام بحق لا نفاذ له . آمن بين
الناس في وجهك وعدلك ومجملتك حتى لا يطعم شريف في حيفك ولا يئأس
ضعيف ^(١) من عدلك . الدينية على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصالح
جائز بين المسلمين الا صاحبا أهل حراما أو حرم حلالا . ولا يملك قضاء
قضيته بالامس فراجعت فيه عتلك وهديت لرشدك ، ان ترجع الى الحق فان الحق
قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم بما تلذذ في صدرك مما
ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشياء والامثال وقس الامور عند ذلك
وأحمد الى أشبهها بالحق ، و اجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ^(٢) ينتهي
اليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه ، والا استحللت عليه القضية فانه أنفي
لثبلك وأجل للمنى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا يحدوا في حد أو
يجز به عليه شهادة زور أو ظنيئا في دلا . أو نسب فان الله تولى منكم السرائر
ودرا بالايمان والبيئات ، واياك والقلوب والضمير والتأذي بالخصوم والتشكر عند
الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر ،
فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلف
فالناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك ثواب الله عز وجل
في عاجل رزقه وخزائنه رحمته ، والسلام

ولعمري رضي الله عنه خطيب مشهورة مد كورة في الخارج لم نقلها اختصارا

﴿ ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه ﴾

خطبة له ^(٣) رضي الله عنه

قل : ان لكل شيء آفة ، وان لكل نعمة عاهة ، في هذا الدين عيايون
ظنانون ، يظهرون لكم ما يحبون ، ويسرون ما تكرهون ، يقولون لكم

(١) في الخطبة (شريف) وهو غير مائل كتب الادب

(٢) في السخيرة (امرا) وفي غير هذا الكتاب (أمدا)

(٣) في الخطبة الثاني

وتقولون ، طعام مثل النعام ، يتبعون أول فاعق أحب مواردهم اليهم للنازح ،
لقد أقررتم لاین الخطاب بأكثر مما نعمتم على ، ولكنه وقسمكم وقمعكم وزجركم
وَجَرَّ النِّعَامَ الْخِزْمَةَ . والله اني لأقرب ناصرا ، وأعز نفرا ، وأقن (ان قلت هلم)
أن نجل دعوتي من عمر . هل تفقدون من حقوقكم شيئا فمالى لأفعل في
الخلق ما أشاء ، اذا فلي كنت اماما ؟

﴿ كتابه الى علي حين حصر - رضى الله عنهما ﴾

أما بعد ، فقد بلغ السيل الزوى ، وجاوز الحزام الطيبين ، وطعم في من لا
يسمع عن نفسه . فذا اناك كتابي هذا فاقبل الى علي كسنت أم لي
فان كنت ما كولا فكن خيرا كل والا فأمر كسي ولما أمرق
﴿ ومن كلام علي رضى الله عنه ﴾ قال لما قبض أبو بكر رضى الله عنه
أرجمت المدينة بالمكاه يوم قبض النبي ﷺ وجاء علي با كيا مسترجعا وهو
يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة .

حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال :
رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله ﷺ وأنت وثقته وموضع سره ،
كنت أول القوم اسلاما ، وأخلصهم ايماء ، وأشدتهم بقبلاء ، وأخوفهم لله ،
وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأغنىهم (١) على الاسلام ،
وأمنهم على محابه . أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ،
وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله ﷺ سننا وهديا ورحمة
وفضلا ، وأشرافهم منزلة ، وأكرمهم عليا ، وأوثقهم عنده ، جزاك الله عن

(١) كذا في الخطية (وايهم) وفي المطبوعة (وايهم)

الاسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس فصامك الله في تنزيله صديقا ، فقال : والذي جاء بالصدق وصدق به ، واسيته حين بخلوا وقمت معه عند المكاره حين عنه فعدوا وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه في الهجرة وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالامر حين فشلوا ، ونظمت حين تبعثوا . مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصم بهم منطلقا ، وأطوهم صمنا ، وأبكمهم قولا ، وأكثرهم رأيا ، واشجعهم نصا ، وأعرفهم بالامور ، وأشرفهم عملا . كنت للدين يسويا أولا حين نفر عنه الناس وآخرآ حين اقبلوا ، وكنت للمؤمنين أبأ رحما اذ صاروا عليك عبالا فحملت اقبال ما ضعفوا ، ورعيت ما اهدوا ، وحفظت ما أضاعوا ، فتمرت اذ خضعوا ، وعلوت اذ هملوا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدركت أوفار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ونالوك ما لم يحسبوا ، وكنت كما قال رسول الله ﷺ آمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا في يدك ، فوبا في أمر الله متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله جليلا في أعين الناس ، كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لاحد مطعم ، ولا للخلق عندك هواة ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عنك سواء ، أقرب الناس إليك أطوعهم لله . شأنك الحق والصدق والرفق ، قولك حكم ^(١) ، وأمرك ^(٢) حزم وروايك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ،

(١) في الحقة في المكانين يابس يسمع لكلمة واحدة وفيها وأقبل (حزم) ما يدل على أن الهدف في الموضوعين للكلمة في معنى حكم وعزم

واعتدل بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، واتعبت
من بعدك اثمابا شديدا ، وفزت بالجد فوزا ، مبينا فخللت من البكاء ، وعظمت
رؤيتك في السماء وهدت مصيبتك الالام فاننا لله واننا اليه راجعون ، رضينا عن
الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ
بمثلك أبداً فالخلقك الله بنبيه ، ولا حرمتنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك
وسكت الناس حتى انقضى كلامه . ثم بكوا ، حتى علت أصواتهم

﴿ خطبة أخرى لعلي رضي الله عنه ﴾

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وأدنت يوداع ، وان الآخرة قد اقتبلت
وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وانكم في أيام مهل
ومن ورائه أجل . أخلص في أيام أمه فقد فاز ، ومن قصر في أيام أمه
قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره الله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون
له في الرغبة . ألا واني لم أركلجنة تام طالبيها ، ولا كالشار نام حاربيها . ألا وانه
من لم ينفعه الحق يضره الباطل ومن لم يستقم ^(١) به الهدى يجربه للضلال .
ألا وانكم قد أمرتم بالظن ودقتم على الزاد ، ألا وان أخوف ما أخاف عليكم
الموى وطول الامل

﴿ وخطب ﴾ فقال بعد حمد الله : أيها الناس اتقوا الله فاخلقوا امرؤ عبثا
فيلهو ولا أحمل سدى فيلغو ، مادنياه التي تحسنت اليه بخلف من الآخرة التي
قبحتها سوء النظر اليه ، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى منه
كالآخر الذي ظفر به من الآخرة من مهينه

﴿ وكتب على رضي الله عنه الى عبد الله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة ﴾

أما بعد ، فان المرء يسر يدرك ما لم يكن ليحرمه ، ويسوءه فوت ما لم

(١) في الخطبة ومن لا يستقيم

يكن يدركه ، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطلق ، وليكن أسفك (١)
فيا فرطت فيه من ذلك ، وانظر ما قاتلك من الدنيا فلا تكسر عليه جزءا ،
وما نلت فلا تنعم به فرحا ، وليكن همك لما بعد الموت

﴿ كلام لابن عباس رضي الله عنه ﴾

فل عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان
أبي موسى يوم الحسكين ؟ قال : منعه - والله - من ذلك حاجز القدر ، وقصر
المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعتزضت له في مدارج نفسه
ناقضا لما أكرم ، ومبرما لما نفى ، أسف إذا طار ، وأطير إذا أسف . ولكن
مضى قدر وبقي أسف ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لا مير المؤمنين من الأولى

﴿ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴾

أصدق الحديث كتب الله ، وأوثق (٢) المرأ سكة التقوى . خير الملل مل
أبراهيم ، وأحسن للسنن سنة النبي ﷺ . خير الأمور أوسطها ، وشر الأمور
محدثاتها . ما قل وكفى خير مما كثر وأطى . خير الغني غنى النفس ، وخير ما ألقى
في القاب اليقين . الخمر جماع الائم ، القسام حبالة الشيطان ، الثياب شعبة من
الجنون . حب السكينة مفتاح المعجزة ، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا ،
ولا يذكر الله إلا هجرا . أعظم الخطايا اللسان الكدوب ، سباب المؤمن فسق
وقتاله كفر وأكل لحمه معصية . من يتألم على الله يكذبه ، من يغفر يغفر له ،
مكتوب في ديوان المحسنين من عنا عني عنه ، الشقي من شقي في بطن أمه ،
والسميد من وعظ بغيره ، الأمور بعوائفها ، ملاك العمل خوائمه ، أشرف الموت
الشهادة ، من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره .

(١) في الخطبة ياض يتم لكلمة مكان (أسفك)

(٢) كذا في الخطبة . وفي المطبوعة (واحد)

﴿ خطبة لماوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ﴾

قال الراوي : لما حضرته الوفاة قال لمولى له : من الباب ؟ فقال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ! فقال : وبحك ولم ؟ ثم أذن للناس ، فحمد الله فأوجز ؛ ثم قال : أيها الناس ، الله قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ، بعد فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم فيه عنواً ، لا نفتنكم بما علمنا ، ولا نسأل مما جهلنا ولا نتخوف من قارعة حتى نحل بها ، فالداس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه ، وكلال حده ، ونضيض وفده ، ومنهم المساط (١) سيفه والمجلب برزخه والمعلن (٢) بشره ، قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يقرعه ، وبش المتعبر أن تراها لنفسك غنا ، وما لك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طاس من شخصه ، وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للامانة ، وأخذ سراقته ذريعة الى المعصية ، ومنهم من أقعد عن الملك ضئولة في نفسه ، واقطاع سببه ، فقصرته الحال فتعجل باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهاد ، وأبس من ذلك في مراح ولا مغنى . وبقي رجل اغض أبصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شديد ناد ، وخائف متفجع ، وسأكت مكروم ، وداع مخلص ، وموجم شكلا ، قد أخلتهم التنية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر أجاج ، أفواههم دامية ، وقلوبهم قريجة ، قد وعظوا حتى ملوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى ملوا ، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حمالة القراط وقراضة الجلب ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فرفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

(١) كذا الخطبة وهو أحسن . وفي القليلة (ومنهم من المصالح)

(٢) في الخطبة والمعلق : وما انتاد وفاق نسخة المطبوعة أحسن

﴿ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ﴾

أيها الناس : انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمرى
لئن كنتم صادقين لقد قصرتم والئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . بأيها الناس انه
من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأتيه . فأجملوا في الطلب

﴿ خطبة للحجاج بن يوسف ﴾

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل العراق ، ويا أهل الشقاق والنفاق ،
ومساوى ، الاخلاق ، وبنى الكيكة وعبيد العصا وأولاد الاماء والفقع
بالقرقر ، انى سمعت زكيرا لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان ، وانما مثلى
ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني :

و كنت اذا قوم غزوني غزوتهم فقل أنا في ذا بالهمدان ظالم
منى تجمع القلب الذي وصار ما وانما حيا تجتنبك المظالم
أما والله لا تفرع عصا عصا الا جعلتها (١) كأمس الدابر

﴿ خطبة لقس بن ساعدة الايادي ﴾

أخبرني محمد بن علي الانصاري بن محمد بن عامر ، قال : حدثنا علي بن
ابراهيم ، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمري ، قال : حدثنا
الانصاري علي بن محمد الحنظلي من ولد حنظلة الفسيل ، حدثنا جعفر بن محمد ،
عن محمد بن حسان ، عن محمد بن حجاج القمي ، عن مجاهد ، عن الشعبي ، عن
ابن عباس ، قال : لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ قال : أيكم
يعرف قس بن ساعدة قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، قال : لست أنساه بمكان
اذ وقف على بئر له أحمر فقال : أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا

(١) في الخطبة (سجلها)

صعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات مات . وكل ما هو آت آت . أما بعد ، فإن في السماء نظيراً ، وإن في الأرض لعبيراً . مهاد موضع ، وسف مرفوع ، ونجوم نور ، وبحار لا تقور . أقسم بالله قس قسماً حقاً لا كاذباً فيه ولا آتائين كلن في الأرض رضا ليكون سخط ، إن الله تعالى ديننا هو أحب اليه من دينكم الذي ائتم عليه ، وقد أناكم أوائه ولفنكم مدته . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بلقاهم فأقاموا ، أم تركوا فقاموا . ثم قال رسول الله ﷺ : أيكم يروى شعره ؟ فأنشدوه :

في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسبي الأصغر ولا كبار
لا يرجع الماضي السرى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لاحها لة حيث صار القوم صائر

أخبرني الحسن بن عبد الله بن سعيد ، حدثنا علي بن الحسين بن اسماعيل ، حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا عبد الله بن الفضل ، عن هشام ، عن أبيه أن وفدنا من أباد قدموا على رسول الله ﷺ ، فسألهم عن حل قس بن ساعدة ، فقالوا : قال قس :

بأناعى الموت والاموات في جدث
عابهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم
كأبنته من نوماته الصعق
منهم عرقة ومنهم في ثيابهم
منها الحديد ومنها الاورق انطلق

مطرونيات ، وآباء وامهات ، وذاهب وآت ، وآيات في اثر آيات ، واموات بعد اموات . ضوء وظلام ، وليال وأيام ، وغنى وفقير ، وشقي وسعيد ، وعسن ومسى . أين الارباب الفعلة . ليصلحن كل عامل عمله . كلا بل هو الله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، واليه المآب خدا .

اما بعد يا معشر ابادي ابن نوح وعبادي وابن الآباء والاجداد وابن الحسن الذي لم يشكرني ابن الظالم الذي لم ينقم علي كلاك ورب السكينة ليعودن مابداً ولئن ذهب يوم ليعودن يوم

قال : وهو قيس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن اباد بن نزار ، اول من آمن بالبعث من اهل الجاهلية ، واول من توكأ على عصاه واول من تكلم بأما بعد

﴿ خطبة لابي طالب ﴾

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكماء على الناس . وان محمد بن عبد الله بن أخي لا يوازن به فني من قريش الا رجيع به بركة وفضلاً وعدلاً ومجداً ونبلأ . وان كان في المال مقلان فان المال عارية مسترجعة وظل زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم من الصداق فلي

فندسخت لك بهلا من كلام الصدر الاول ومحاوراتهم وخطبهم ، وأحيلك فيما لم أدرج على التواريخ والسكتب المصنفة في هذا الشأن ، فتأمل ذلك ، وسائر ما هو مسطر من الاخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان والسنن ، والفصاحة والذعان ، والاعاظ المنشورة ، والمحاطبات الدائرة بينهم ، والامثال المنقولة عنهم ، ثم انظر يسكون طائر وخفض جناح وتفرق اب وجمع عقل في ذلك ، فسيقم لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم الحق الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ والمحطوب والمحطوب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة ، فان خيل اليك أو شبه عليك ، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن لان الشعر أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل وأدق مسلكاً من جميع أصناف المحاورات وذلك قالوا له ^{عليه السلام} هو شاعر أو ساحر - وسوّل اليك الشيطان ان الشعر أبلغ وأعجب ،

وارق وابرع ، وأحسن الكلام وأبدع ، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام
بين المحققين

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والمحقق بهذه الصناعة مع تقدمه
في الكلام يقول : أن الكلام المنشور يتأني فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأني
في الشعر ، لأن الشعر يضيق نطاق الكلام ، ويمتنع القول من انتهائه ، وبصده
عن تصرفه على سننه . وحضره من يتقدم في صنعة الكلام فرأى في ذلك ،
وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة ، وأبدع
إذا تضمن أسباب البلاغة . ويشهد عندي للقول الأخير أن معظم براعة كلام
العرب في الشعر ، ولا نجد في منشور قولهم ما نجد في منظومه ، وإن كان قد
أحدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعمد في سالف أيام العرب ، ولم ينقل
من دواوينهم وأخبارهم ، وهو وإن ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه
ونواحيه ، فهو إذا تهذب في باب زوكي له جميع أسبابه ، لم يقاربه من كلام
الآدميين كلام ، ولم يمارسه من خطابه خطاب ، وقد حكى عن المتنبي أنه
كان ينظر في المصحف فدخل إليه بعض أصحابه فأذكر نظمه فيه لما كان رآه عليه
من سوء اعتقاده ، فقال له : هذا ^(١) المكي على فصاحته كان مضحكا . فإن سمعت
هذه الحكاية عنه في الحادثة عرفت بها ^(٢) أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول
الشعر أبلغ وإذا كانت الفصاحة في قول الشعر أو لم تكن وبيننا أن نظم القرآن
يزيد في فصاحته على كل نظم ، ويتقدم في بلاغته على كل قول ، بما يتضح
به الأمر اقضاح الشمس ، وبتبيين به بيان الصبح - وقفت على جليلة هذا الشأن .
فانظر فيما تعرضه عليك ما تعرضه ، وتصور بهمك ما تصوره ، ليقع لك موقع
عظيم شأن القرآن ، وتأمل ما ترتبه ينكشف لك الحق ، إذا أردنا تحقيق
حاضناته لك فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متفق على كبر محلها ، وصحة نظمها

(١) في الخطبة (مو) (٢) في الخطبة (لها)

وجودة بلاغتها ومعانيها ، واجتماعهم على ابداع صاحبها فيها ، مع كونه من
الموصوفين بالتقدم في الصناعة والمعرفين بالحدق في البراعة ، فنقلت^(١) على
مواضع خطها ، وعلى تفاوت نظرها ، وعلى اختلاف قصورها ، وعلى كثرة
فضولها ، وعلى شدة تعسفها ، وبعض تكلفها ، وما تجمع من كلام رفيع يقرن
بفنه وبين كلام وضيع ، وبين لفظ سوق يقرن بلفظ ملوكي ، وغير ذلك من
الوجوه التي يجبي تفصيلها ، وتبين ترتيبها وتزييلها

فأما كلام مسيلة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن تشغل
به وأسف من أن تفكر فيه . وإنما نقلنا منه طرفاً ليشجب القاري ، وليتبرهر
الناظر ، فإنه على سخافته قد أضل ، وعلى دكا كته قد أزل^(٢) ، ومبدأن لجهل
واسع ، ومن نظر فيها قلناه عنه ، وقم موضع جهله ، كان جديراً أن يحمده الله
على ما رزقه من فهم آتاه من علم ، فما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء : « والليل
الاطخم والذئب الادلم ، والجذع الازل ، ما اتهمت أسيد من محرم » وذلك قد
ذكر في خلاف وقع بين قوم أنوه من أصحابه ، وقال أيضاً : « والليل الدامس ،
والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا ياس » وكان يقول : « والشاة
والوانها ، وأعجبها السود والبانها ، والشاة السوداء والابن الابيض ، إنه
لمسجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون » وكان يقول : « ضفدع
يفت ضفدعين ، فني ما تنقبين ، أعلاك في الماء وأسفلك في العطين ، لا الشارب
تغمسين ، ولا الماء تكسرين ، لنا نصف الأرض وتقريش نصفها ، ولكن قریشا
قوم يعتدون » وكان يقول : « والمبديات زراعا ، والحاصدات حصداً ،
والقاريات قديماً ، والطحائن طحناً والخايزات خبزاً ، والشاردات ترداً ،
واللائحات لثماً ، إهالة وممنا ، لقد فضلم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر »

(١) كذا في النسخة وهي النسخ . ول الطبوعة (توقفك)

(٢) الأصل للطبوع لك التال وما أتت به عن النسخة

ريتمكم فامنعوه^(١) والمعتز فأدوه ، والهاضي فثاوتوه ، وقالت سجاح بنت
الحارث بن عقيبان - وكانت تنبأ فاجتمع مسيلة معها - فقالت له : ما أوحى
إليك فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بالهليل » أخرج منها نسمة نسي^(٢) من
بين صفاق وحشا ، وقالت : فما بعد ذلك ؟ قال : أوحى إلى « ان الله خلق
النساء أفواجا ، وجعل الرجال لمن أرواها ، فتولج فيهن قعسا ابلاجا ، ثم يخرجها
إذا شئنا أخراجا ، فينتجن لنا سخا لا تاجا » فقالت : أشهد أنك نبي ، ولم تنقل كل
ما ذكر من سخفه كراهية التنقيب . وروى أنه سأل أبو بكر الصديق رضي الله
عنه أقواما فندوا عليه من نبي حنييفة عن هذه الالفاظ فثاوتوا بعض ما نقلناه ،
فقال أبو بكر سبحان الله ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل : فأين كان
ينذهب بكم ؟ ومعنى قوله « لم يخرج عن آل » أي عن ذرية . ومن كان له
عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام

فترجع الآن إلى ما ضمه من الكلام على الاشعار المنفق على جودتها
وتقدم أصحابها في صناعتهم ، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب ، وتباعد مواقع
البلاغة ، وتستدل على مواضع البراعة ، وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ
القيس ، ولا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع
في طرق الشعر أمورا أتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتصل
بذلك من البديع الذي أبدعه ، والتشبيه الذي أحدثه ، والتأليح الذي يوجد في
شعره^(٣) ، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها
كلامه من^(٤) صناعة وطبع وسلاسة وعلو^(٥) ومناة ورقة وأسباب محمد
وأمود تؤثر ونمدح ، وقد ترى الأدباء أوتلا يوازنون بشعره قلانا وفلانا ،
ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين

(١) من هنا تعرفت القصة الخفية وأنت ترى حاشي السجدة : (هذه الكلمة نقلت من نسخة

(٢) أي في الخطبة (من)

(٣) في المذبذبة (والنسخ) : وفي الخطبة (والتأليح الذي يوجد في شعره)

(٤) أي في الخطبة (ومعنى)

(٥) في الخطبة (و)

[شعره] (١) في أشياء لطيفة وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه ، أو سورا
بينهم وبينه ، أو قرأوا موضع تقدمهم عليه ، و يروونه بين أيديهم . ولما اختاروا
قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون
الاملان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تقشوق إلى معارضة ، وتساويه في
طريقته ، وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة (٢) ، وتقدمت عليه في
أسباب عجيبة ، وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره كان أمراً محصوراً ، وشياً
معروفاً أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره ، وتشاهد مثل
ذلك اليارع في كلام سواه ، وتتنظر إلى المحدثين كيف نوغلوا إلى حيلته
المحاسن ، منهم من (٣) جمع رصانة الكلام إلى صلاسته ، ومثاقته إلى عذوبته
والإصابة في معناه إلى تحسین بهجته ، حتى أن منهم من إن قصر عنه في بعض
تقدم عليه في بعض ، لأن الجانس الذي يرمون إليه ، والغرض الذي يتواردون
عليه ، مما للأدبي فيه بحال وللبشري فيه مثال ، فكل يضرب فيه بسهم ، ويفوز
فيه بقدر ، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً ، وتباين تمايلاً وقد تتقارب تقارباً ،
على حسب مشاركتهم في الصنائع ، ومساهماتهم في الحرف . ونظم القرآن جنس
مميز وأسلوب متفخص وقبيل عن النظم (٤) متخلص فإذا شئت أن تعرف عظم
شأنه فأملى ما نقوله في هذا الفصل لا مري القيس في أجود أشعاره ، وما
نبين لك من حواره على التفصيل وذلك قوله :

فما أدرك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط الأقوى بين الدخول فحومل
فتوضح قالقراق لم يعف رحمتها لما نسجتها من جنوب وشمال
الذين يتعصبون له أو يدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة المطبوعة

(٢) في المطبعة ١ وربما عثرت في وجهه في أشياء كثيرة

(٣) في المطبعة ١ (٤) في المطبعة (الشرح)

وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجم ، كله في بيت ، وبحو ذلك ، وانما بينا هذا السلا يقم لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت . تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله ، أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في مسداده شاعرا ، ولا تقدم به صائغا . وفي لفظة ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب ^(١) و ذكره لا يقتضي بكاء الخلق وانما يصح طلب الاسعاد في مثل هذا ، على أن يبكي لبكائه ، ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فلما ان يبكي على حبيب صديقه ، وعشيق رفيقه ، فأمر بحال ، فان كان المطلوب وقوفه وبكائه أيضا عاشقا صبح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف أن لا يفار على حبيبه ، وأن يدعو غيره الى التفازل عليه ، والتواجد معه فيه . ثم في البيتين مالا يفيد من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الاماكن ، من الدخول وحومل وتوضيح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضريبا من العي ، ثم ان قوله « لم يعرف رسمها » ذكر الاصمعي من محاضنه أنه باق فتحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لانه ان كان صادق الود فلا يزيد عفا الرسوم الا جدّة عهد ، وشدة وجد ، وانما قرع له الاصمعي الى ^(٢) افادته هذه الفائدة خشية أن يصاب عليه ، فيقال : أي فائدة لان يعرفنا انه لم يعرف رسم منازل حبيبه ؟ وأي معنى لهذا الحشو ؟ قد كرر ما يمكن أن يذكر ، ولاكن لم يخلصه بالتصاير له من الخلل . ثم في هذه الكلمة خلل آخر ، لانه عقب البيت بأن قال : « قيل عند رسم دارس من معول » قد كرر أبو عبيدة أنه رجم فأكذب نفسه كما قال زهير :

(١) كذا في النسخة المطبوعة وفي الخطبة (استوقف ثم يبكي لذكر الحبيب) وفي الميزان فيصور

(٢) في الخطبة (١٤)

قف بالديار التي لم ينفها لقدم نعم وغيرها الارواح والديم (١)
 وقال غيره : أراد بالبيت الاول أنه لم ينطمس أثره كله ، وبالتالي انه ذهب
 بعضه ، حتى لا يتناقض الكلامان ، وليس في هذا انتصار لان معنى هنا ودرس
 واحد ، فاذا قل لم يعف رسمها ثم قل قد عفا فهو تناقض لا محالة ، واعتذار أبي
 عبيدة أقرب لو صح ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير
 فهو الى الخلل أقرب ، وقوله « لما نسجتها » كان ينبغي أن يقول لما نسجها
 ولكنه تصف فجعل مافي تأويل التأنيث لانها في معنى الريح ، والاولى التذكير
 دون التأنيث ، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف . وقوله « لم يعف رسمها »
 كان الاولى أن يقول « لم يعف رسمه » لانه ذكر المنزل ، فان كان رد ذلك
 الى هذه البقاع والاماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل ، لانه انما يريد صفة
 المنزل الذي نزله حبيبته معناه ، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره ، وان أراد بالمنزل
 الدار حتى أنت فذلك أيضاً خلل ، ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية
 التطويل لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البينين ، بل يزيد عليها
 ويفضلها ، ثم قال :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لانك أمتي ونحمل (٢)
 وان شغفاني عبدة موراقة فهل عند رسم دارس من معول
 ونبس في البيتين أيضاً معنى يدع ، ولا لفظ حسن كالاولين ، والبيت
 الاول منهما متعلق بقوله : « قفا فبك » فكأنه قال قفا وقوف صحبي بها على
 مطيهم أو لما حال وقوف صحبي وقوله « بها » متأخر في المعنى وان تقدم في اللفظ ،
 ففي ذلك تكلف وخروج من (٣) اعتدال الكلام ، والبيت الثاني غفل من جهة
 أنه قد جعل الهمع في اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك الى طاب حيلة

(١) في ديوان زهير : « في وغيرها الارواح والديم »

(٢) تحمل : يروى بلفظ المودة والديم (٣) في الخفية (عن)

أخرى ، وتحمل ومعول عند الرسوم ؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفي لشدة ما به من الحزن ، ثم يسأل هل قصد الرابع من حيلة أخرى ؟ وقوله :

كذلك من أم الخوثر قبلها وجارتها أم الرباب بأصل
إذا قلنا نضوع المسك منها نسيم الصبا يأتي ^(١) برىا القرنفل

أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان متروك المعنى ، وأما البيت الثاني فوجه التشكك فيه قوله : « إذا قلنا نضوع المسك منها » ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كل حال فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير. ثم فيه خلل آخر ، لأنه بعد أن شبه عرقها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذو ذلك بعد ذكر المسك نقص . وقوله « نسيم الصبا » في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصل به وصل مثله . وقوله :

ففاضت دموع العين منى صباية على النحر حتى بلّ دمي محلي
ألا رب يوم لك منهن صالح ^(٢) ولا صبا يوم بدارة جلجل

قوله : ففاضت دموع العين ، ثم استعانة بقوله منى استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة ، وهو حشو غير ملبح ولا بديع ، وقوله : « على النحر » حشو آخر لأن قوله « بلّ دمي محلي » [ينفي عنه ويدل عليه ، وليس بحشو حسن] ثم قوله « حتى بلّ دمي محلي » ^(٣) [إعادة ذكر الدمع حشو آخر ، وكان يكفي أن يقول حتى بلت محلي فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله ، ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محله أعرب منه وتقصير ، ولو كان

(١) التي في ديوان امرئ القيس (جاز) وكذا هو في الخطبة

(٢) ويروي : « الأرب يوم صالح لك شيئا »

(٣) هذه الزيادة ليست موجودة في الخطبة

أبدع لكان يقول : حتى بل دمي مقاسم وعراصم ، وبشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية ، إذ الدمع يبعد أن يدل المحمل وإنما يقطر من الوائف والنفاء على الأرض أو على الذيل ، وإن به فلفظه وأنه لا يقطر ، وأنت نجد في شعر الخمرزني منه أحسن من هذا البيت وأمن وأعجب منه ، والبيت الثاني خال من المحاسن والبديع ، خلو من المعنى ، وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوقة ، فلا يرعك فهو به باسم موضع غريب ، وقل :

ويوم عقرت العذاري مطيقي فيا عجبا من رحلها المتحمل
فظل العذاري يرتعين لمحبها وشعم كمداب الدمقس المتفل

تقديره إذ ذكر يوم عقرت مطيقي ، أو برده على قوله : « يوم بدارة جلدل » وليس في المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاخته ^(١) قل بعض الأدباء : قوله « يا عجبا » بمعنى من صفوه في شيا به من نحره فأنته لهم ، وإنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعا عن الأول ، وأراد أن يكون الكلام ملائما له ، وهذا الذي ذكره بعيد ، وهو منقطع عن الأول ، وظاهره أنه يشجب من تحمل العذاري رحله ، وليس في هذا تعجب كبير ، ولا في نحر الناقة لمن تعجب ، وإن كان يعني به أنهم حملن رحله وإن بعضهن حملته فغير عن نفسه برحله فهذا قليلا يشبه أن يكون عجبا ، لكن الكلام لا يدل عليه ويتجاف عنه . ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب ، ولا معنى بديع ، أكثر من سفاخته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع وكلام رائع ، وأما البيت الثاني فيعدونه حسنا ويعدون التشبيه مليحا وافعا ، وفيه شيء ، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم ، فلا يعلم أنه وصف شحما ، وذكر تشبيه أحدهما بشي . وانهم ، وعجز عن تشبيه النسمة الأولى فرت مرسله ، وهذا نقص في الصنعة وعجز عن إعطاء

الكلام حقه . وفيه شيء آخر من جهة المعنى ، وهو أنه وصف طعام (الذي أطعم من أضاف) بالخودة وهذا قد جاب ، وقد يقال : إن العرب تفنخر بذلك ولا يروونه عيباً ، وإنما القرمس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً ، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة ويجري على ألسنتهم فليس بشيء . قد سبق إليه ، وإنما زاد « المفضل » للفاكية وهذا مفيد ومع ذلك فاست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعد أن الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً . وفيه شيء آخر ، وهو أن تجميعه بما أطعم للاحياب مضموم وأن سوغ التجميع بما أطعم للأضياف ، إلا أن يورد الكلام مورد الخجون ، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمدامعة وقوله :

ويوم دخلت الخمر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري بالمرأ القيس فانزل

قوله : « دخلت الخمر خدر عنيزة » ذكره تكملاً لآلة الوزن لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحظة له ولا رونق ، وقوله في المصراع الأخير من هذا البيت : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته إلى شعره ، وليس فيه غير هذا ، وتكرره بعد ذلك « تقول وقد مال الغبيط » يعني قتب اليهودج بعد قوله : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن ، والألف كتابه قولها الأول كاف ، وهو في النظم فيصح ، لأنه ذكر مرة « فمات » ومرة « تقول » في معنى واحد وفصل خفيف . وفي مصراع الثاني أيضاً تأنيث من كلامهن ، وذكر أبو عبيدة أنه قال : « عقرت بعيري » ولم يقل ناقتي لأنهم يحملون النساء على ذكر الأبل لأنها أقوى ، وفيه نظر ، لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر والأنثى ، واحتاج إلى ذكر البعير لآلة الوزن ، وقوله :

قللت لما سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جنائك المائل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألميتها عن ذى تمام مفيل (١)
 البيت الأول قريب الفسح ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف ، كأنه من
 عبارات المنحطين في الصنعة ، وقوله « فمثلك حبلى قد طرقت » عابه عليه أهل
 العربية ، ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام قرب مثلك حبلى قد طرقت ، وتقديره
 انه زير اسماء وانه يفسدهن ويلوهم عن حبلهن ورضاعهن ، لان الحبل والمرضة
 أبعد من الغزل وطلب الرجال ، والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار (٢)
 والتهيام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول ، لان تقديره لا تبعديني
 عن نفسك فاني أغلب النساء ، وأخذهن عن رأيهن ، وأفسدن بالتغافل ،
 وكونه مفسدة لمن لا يوجب له وصلن وترك إيمادهن آياه ، بل يوجب هجره
 والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد
 وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره ،
 وكقوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق ونحي شقها لم يحول
 ويوماً على ظهر الكتيب تعذرت على وآت حلقة لم تحلل
 فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف ، وأي فائدة لذكره
 لمشيقته كيف كان يركب هذه القبايح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه
 الموارد ؟ ان هذا يبغضه كل من سمع كلامه ويوجب له المقت ، وهو لو صدق
 لكان قبيحاً فكيف ويجوز أن يكون كاذباً ؟ نعم ليس في البيت لفظ بديع ولا
 معنى حسن ، وهذا البيت متصل بالبيت الذي قبله من ذكر المرضع التي لها ولد
 يحول ، فاما البيت الثاني وهو قوله : « ويوماً » بهمعجب منه وانما تشددت
 وتعمست عليه وحلفت عليه فهو (٣) كلام ردي ، الفسح لا فائدة لذكره لذا أن
 حبيته نعت عليه يوماً بموضع يسميه ويصفه ، وأنت نجد في شعر المحدثين من

(١) بدوي : حول

(٢) في الحظية : والاستهتار

(٣) هذا جواب اما ، وانظر اين تمام قوله : وانما تشددت ، ولعله وانما

هذا الجلس في المنزل ما يذوب معه القلب ويطرب عليه النفس ، وهذا مما تستنكره
النفس ويشتم زمته القلب ، وليس فيه شيء من الاحسان والحسن ، وقوله :
أفأطعم مهلاً بعض هذا القدال وان كنت قد أزمعت صرعى فاجلى
أغررك منى أن حبك قاتلى واليك مها تأمرى القلب يفعل
فالبيت الأول فيه وكاكة جداً ، وتأليث ورفق ولكن فيها تخنيث ، ولعل
قائلاً يقول ان كلام النساء بما يلائهن من الطبع أوقع وأغزل . وليس كذلك ،
لأنك تجد الشعراء في الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم . والمضارع الثانى
منقطع عن الاول لا يلائمه ولا يوافقه ، وهذا يبين لك اذا عرضت (١) معه
البيت الذي تقدمه . وكيف ينكر عليها تدليها ، والمنزل يطرب على دلال
الحبيب وتدلله ؟ والبيت الثانى قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن
لا تغتر بما يربها من أن حبها يقتله ، وانها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والحب اذا
أخبر عن مثل هذا صدق ، وان كان المعنى غير هذا الذي عيب عليه وانما ذهب
مذهبها آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجرد فهذا خلاف ما اظهر من نفسه فيما
تقدم من الايات من الحب والليكاء على الاحبة ، فقد دخل في وجه آخر من
انماضه والاحالة في الكلام ، ثم قوله : « تأمرى القلب يفعل » معناه تأمرينى
والقلب لا يؤمر ، والاستعارة في ذلك غير واقعة ولا حسنة ، وقوله :

فإن كنت قد ساءتلك منى خليفة فلي ثيابي عن (٢) ثيابك قاتل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بهميك في أعشار قلب مقتل

البيت الأول قد قيل في تأويله : انه ذكر التوب وأراد البدن ، مثل قول
الله تعالى : « وثيابك فطهر » وقل أبو عبيدة : هذا مثل لهمج ، وتسل تبين

(١) في المخطئة (مرحت)

(٢) في المخطئة والسيوان (من)

وهو بيت قليل المعنى وكيكه وضيقه ، وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف [و] يوجب ^(١) قطعه ، فلم لم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خلية توجب هجرانه والتقصي من وصله وأنه مهذب الاخلاق شريف الشئالي لذلك يوجب أن لا ينفك من وصله ، والاستعارة في المصراع الثاني فيها تواضع وتقارب وإن كانت غريبة . وأما البيت الثاني فمعدود من محاسن القصيدة وبها تمها ، ومعناه ما حكيت الاتعرج حي قلبا معشراً - أي مكسراً - من قولهم : برمة أعشار اذا كانت قطعاً - هذا تأويل ذكره الأصمعي رضي الله عنه ، وهو أشبه عندنا كثرهم . وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التي تقسم الجزور عايجها ، وبني بسمك الملبى وله سبعة أنصباء ، والرئيس وله ثلاثة أنصباء . فأراد أنك ذهبت بفلي أجمع ، وبني بقوله : « قتل » مذل ، وأنت قتل أنه على ما يعني به فهو غير موافق للآيات المتقدمة لما فيها من تناقض الذي بينا ، ويشبه أن يكون من قل بالتأويل الثاني فزع اليه لانه رأى اللفظ متكرراً على المعنى الأول لأن القائل اذا قل « ضرب فلان بسهمه في الهدف » يعني أصابه كل كلاماً ساقطاً مردولاً ، وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينها كالسهمين النافذين في إصابة قلبه المجرع فلما حكمتا وذرفنا بالدموع كأننا ضاربين في قلبه ، ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ ، واستكنه اذا حمل على الثاني فقد المعنى واختل ، لأنه إن كان محتاجاً على ما وصف به نفسه من الصباية - قلبه كله لها فكيف يكون بكاء ما هو الذي يخلص قلبه لها ؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لأنه لم يسبق كلام يقتضي كفاءه ولا سبب يوجب ذلك ، فتركبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال ، ثم لو سلم له بيت من عشرين

(١) في الخطبة : ويوجب .

بيتاً وكان بديعاً ولا عيب فيه فليس بعجيب ، لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين ، وانما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال انه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين فضلاً عن المتقدمين ، وانما قدم في شعره لآيات قد برع فيها وإن حذقه بها ، وانما أنكرنا أن يكون شعره متناسياً في الجودة ، ومتشابهاً في صحة المعنى واللفظ ، وقننا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كامل مستنكرة ^(١) وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين مخف مستنم ، ولهذا قال الله عز اسمه : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فأما قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من نحو بها غير معجل
نجاوزت أحرأماً إليها ومشرأ على حراساً لو يسرون مقتلى
فقد قلنا : عنى بذلك انها كبيضة خدر في صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها ، بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ، ونعني بقوله : « غير معجل » انه ليس ذلك مما يتفق فليلاً وأحياناً ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله غيره على انه رابط الجأش فلا يستعجل اذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها . وليس في البيت كبير فائدة ، لانه الذي حكى في سائر أبياته فلا تتضمن مطاركة في المماثلة واشتغالها بها فنكر يره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ، الا الزيادة التي ذكر من منعتها ، وهو - مع ذلك - بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني ، والبيت الثاني ضعيف . وقوله : « لو يسرون مقتلى » أراد أن يقول لو أسروا ، فإذا نقله الى هذا ضعف ووقع في مضار الضرورة ، والاختلال على نظمه بين ، حتى أن المحرز يحترز من مثله ، وقوله :

(١) في الخفية (مستنكرة)

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أنشاء الوشاح المنفصل
قد أنكر عليه قوم قوله : « إذا ما الثريا في السماء تعرضت » وقالوا :
الثريا لا تعرض ، حتى قال بعضهم : سمى الثريا وانما أراد الجوزاء لأنها تعرض
والعرب تفعل ذلك ، كما قال زهير : « كأجر عاد » وانما هو أجر نمود
وقال بعضهم في تصحيح قوله « تعرض » . أول ما نطالع ، كما أن الوشاح
إذا طرح يترك عرضه وهو ناحيته ، وهذا كقول الشاعر :

تعرضت لي بعجان خل تعرض المهرة في الظول
يقول : ترك عرضها وهي في الرسن ، وقال أبو عمرو : يعني إذا أخذت
الثريا في وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة . والاشبه عندنا أن البيت
غير^(١) معجب من حيث عايوبه ، وإنه من محاسن هذه الفصيدة ، ولولا أبيات
حدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره ، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو
ويستولي على الأمد

أنت تعلم أنه ليس المتقدمين ولا للتأخرين في وصف شيء من النجوم
مثل ما في وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن ، فلما أن يكون قد عارضه
أوزاد عليه ، فمن ذلك قول ذي الرمة :

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق

ومن ذلك قول ابن المعتز :

وترى الثريا في السماء كأنها يعضات أدهي يلحن يندفد

وكقوله :

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور أوجام مفضض

(١) من هنا رسمت النسخة الخطية إلى سائر النسخ

وقوله أيضا :

فناولنها والثريا كأنها جنى ترجس جبالندامى به الساقى
وقول الأشهب بن زميلة :

ولاحت لسايرها الثريا كأنها لدى الألقى الغربى قرط مسلسل
ولابن المعتز :

وقد هوى النجم الجوزاء فبقعه كذات قرط أرادته وقد سفيطا
أخذه من ابن الرومى في قوله :

طيب ريقه اذا ذقت فاه والثرى بجانب الغرب قرط
ولابن المعتز :

قد سقاني المدام والصبح بلأيل مؤثر
والثرى كنور غصن على الأرض قد نثر
وقوله :

ونروم الثريا في السماء مراما
كانكباب طمر كاذ يلقى بلاما^(١)

ولابن الطبري :

اذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وهى من سلكه تنبدا

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع في وصف الثريا لطلعت عليك
الكتاب وخرج عن الغرض ، وأما تريد أن تبين لك أن الأبداع في نحو هذا أمر

(١) رواية في الديوان هكذا :

يخيل حيا	وأنفق المدام
قد لبنا مياها	وخلعت ظلاما
ونروم الثريا	في القروب مراما
كانكباب طمر	كاذ يلقى النجا

قريب وليس فيه شيء غريب ، وفي جملة ما اختلفنا ما يزيد على تشبيهه في الحسن أو يساويه ، أو يقاربه ، فقد علمت أن ما حلق فيه ، وقدر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه أمر مشترك ، وشرعية موروثة ، وباب واسع ، وطريق مسلول ، وإذا كان هذا يثبت الفصيحة ودرة الفلاحة ، واسطة العقد ، وهذا محله فكيف بما تعداه ؟ ثم فيه ضرب من التكاف لا أنه قال « إذا ما التريا في السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح » فقوله : « تعرضت » من الكلام الذي يستغنى عنه لأنه يشبه اثناء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، قلنا بل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له ، وفيه أن التريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله « تعرض اثناء الوشاح » وإنما أراد أن يقول : تعرض قطعة من اثناء الوشاح فلم يستقيم له اللفظ ، حتى شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع ، وقوله :

لجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى السر الالسة المنفضل
فقلت : بين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك العاية^(١) المتجلي

انظر إلى البيت الأول والابيات التي قبله ، كيف خلط في النظم ، وفرط في التأليف ، فقد ذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحراس ، ثم يذكر كيف كان صحتها لما دخل عليها ووصل إليها من نزاعها ثيابها الاثواباً واحداً ، والمفضل الذي في نوب واحد وهو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه أمسا ذكره مؤخراً ، وقوله : « لدى السر » حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس في البيت حسن ، ولا شيء يفضل لأجله . وأما البيت الثاني ففيه تمليق واختلال ، ذكر الاصمعي أن معنى قوله « مالك حيلة » أي ليست لك جهة نجى . فيها والناس حوالى^(٢) ، والكلام في المصراع الثاني منقطع

(١) بروي : القواية

(٢) في الخطبة (احوال)

عن الأول ، ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت ، وقوله :

فقمتم بها أمشي نجر وراءنا على إثرنا أذيل مرط مرجل^(١)
فلما أجزنا صاح الحى واشجى بنا بطن خبت ذي حفاف عتقل
البيت الأول من مساعدها إياه حتى قامت منه ليخلوا وإنما كانت
نجر على الأثر أذيل مرط مرجل ، والمرجل ضرب من البرود يقال لوشيه
الترجل وفيه تكلف لانه قل « وراءنا على إثرنا » ولو قل « على إثرنا »
كان كائناً والذيل إنما يجر وراء الماشي فلا تدة لذكره وراءنا ، وتقدير القول
فقمتم أمشي بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف ، وقوله أذيل مرط كان من
سبيله أن يقول ذيل مرط على أنه لو سلم من ذلك كان قريباً ليس بما يفوت بمثله
غيره ، ولا يتقدم به سواه ، وقول ابن المعتز أحسن منه :

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلاً وأسحب أذيالي^(٢) على الأثر
وأما البيت الثاني فقولنا بمعنى قطعنا ، والحبت طن من الأرض ،
والخفف رمل متعرج ، والمعتقل المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض ،
وهذا بيت متفاوت^(٣) مع الأبيات المتقدمة ، لأن فيها ما هو سلس قريب
يشبه كلام المولدين وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة
الوحشية المنعقدة ، وليس في ذكرها والتفضيل الجائزها بكلامها فائدة ، والكلام
الغريب واللفظة الشديدة المباعدة لنسيج الكلام قد نحمد إذا وقعت موضع الحاجة
في وصف ما يلاءمها ، كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة (٧٦ : ١٠) « يوماً
عبوساً قطريراً » فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مقدمة بحسب
ما نحمد في موضعها ، وروي أن جريراً أنشد بعض خطباء بني أمية قصيدة :

(١) يروي (على إثرنا ذيل مرط مرجل)

(٢) في الحلية (أكلي)

(٣) في النسخة المطبوعة « متفارت » وما انتاء عن الخطبة

بان انطليط براتين فودعوا أركلنا جدوا لين نوزع ؟

كيف العزاء ولم أجد مدينتهم قلبا يقر ولا شرايا ينقع ؟

قل : وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :

و تقول بوزع : قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا وبوزع

فقال : أفسدت شعرك بهذا الاسم

وأما قوله :

هصرت بغصني دوحة تمايلت ^(١) علي هضيم الكشح يا المخلخل

مهذبة بيضاء غير مفاضة تراثها مصقولة كالسججل

فمعنى قوله « هصرت » جذبت وثبت ، وقوله « بغصني دوحة » نصف

ولم يكن من سبيله أن يجعلها اثنين : والمصراع الثاني أصح ، وليس فيه شيء

إلا ما يتكرر على السنة الناس من هاتين الصفتين . وأنت تجد ذلك في وصف

كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على الألسن صالح إنما معنى قوله « مهذبة » أنها

مخففة ليست منقاة ، والمفاضة التي اضطرب طولها ، والبيت - مع مخالفته في الطبع

الآيات المتقدمة ، ونزجه فيه إلى الألفاظ المستكرهة ، وما فيه من الغلط من

تخصيص التراتيب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبيحض - فليس بظائل ولكنه

قريب متوسط ، وقوله :

تصد وتبدي عن أسيل وتفتي بناظرة من وحش وجرة مصقل

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصه ولا يمهال

معنى قوله « عن أسيل » أي بأسيل ، وإنما يريد خدأ ليس بكز ، وقوله

« تفتي » يقال اتقاء يترسه ^(٢) أي جعله بينه وبينه . وقوله : « تصد وتبدي

عن أسيل » متفاوت ، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دين الصد ، وقوله :

« تفتي بناظرة » لفظة مليحة ، ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل

(١) في السوان والملائك (هصرت بقودي رايها تمايلت) (٢) في الخطبة (يمهال)

وهو قوله : « من وحش وجرة » وكان يجب أن تكون العارة بخلاف هذا ،
 كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو إليها دون اطلاق الوحش ففهم
 ما استنكر عيونها ، وقوله : « مطفل » فسروه على أنها ليست بصبية وإنما
 قد استحكمت ، وهذا اعتذار متعسف ، وقوله : « مطفل » زيادة لا فائدة فيها
 على هذا التفسير الذي ذكره الأصمعي ، ولكن قد يحتمل عندى أن يفيد غير
 هذه الفائدة فيقال أنها إذا كانت مطفلاً لحظت أظفارها بعين رقة في نظر هذه
 رقة نظر المودة ، ويقع الكلام مطلقاً تعليقاً متوسطاً . وأما البيت الثاني فمعنى
 قوله : « ليس بفاحش » أي ليس بفاحش الطول ، ومعنى قوله : « نصته »
 رفعت ، ومعنى قوله : « ليس بفاحش » - في مدح الاعتدال - كلام فاحش
 موضوع منه ، وإذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الاعتدال ما يشبه
 السحر ، فكيف وقع على هذه الكلمة ، ودفع إلى هذه اللفظة ؟ وهلا قل كقول
 أبي نواس :

مثل للظباء سمت إلى روض صوادع عن غدبر
 ولست أطول عليك فستقتل ، ولا أكنز النول في ذمه فستوحش ،
 وأكلت الآن إلى جملة من القول ، فإن كنت من أهل الصدمة فطئت واكتفيت
 وعرفت ما رميتا إليه واستغفيت ، وإن كنت عن العاطفة خارجاً ، وعن الاتقان
 بهذا الشأن خالياً ، فلا يكفرك البيان وإن استقر بنا جسيم شعره ، وتنبعنا عامة
 الفاظه ، ودلنا على ما في كل حرف منه

اعلم أن هذه القصيدة قد رددت بين أبيات سوقية مبتدلة وأبيات
 متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة ، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة ، وأبيات
 معدودة بديعة ، وقد دلنا على المبطل منها ، ولا يشبه عليك الوحش المستنكر

الذي يردع السمع ، ويهول القلب ، ويكبد اللسان ، ويعبس معناه في وجه كل خاطر ، ويكفر مقلعه على كل متأمل أو ناظر ، ولا يقع بمثله التمدح والنفاصح ، وهو بجانب لما وضع له أصل الاقحام ، ومخالف لما بني عليه التغام بالكلام ، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ، ويلحق باللفز والاشارات المستهمة

فلما الذي زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها ثوم الضحى لم تنطق عن تفضل
والصراع الأخير عندهم بديع ، ومعنى ذلك أنها مترفة متعصية لها من يكفها ، ومعنى قوله : « لم تنطق عن تفضل » يقول لم تنطق وهي فصل^(١)
وعن هي بمعنى يمد ، قل أبو عبيدة : لم تنطق فتعمل ولسكنها تفضل
وما يمدونه من محاسنها :

وليل كعرج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الغيوم^(٢) ليلتي
قلت له لما نطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكككل
ألا أيها الليل الطويل ألا الجبل يصبح وما الاصبح منك بأمنل
وكان بعضهم يعارض هذا بقول النافذة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقدية بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
فعاى حتى قلت ليس بمنفض وليس الذي يتلو النجوم بآيب^(٣)

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء فتدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استمارتها ، وقد جعل ليل صدرا يشغل تمنيه ويبطئ تنضيه ،

(١) يقال رجل أو امرأة منفل - بمنزلة - أي منفضل في ثوب واحد ، كذا في اللغوس . والمنفل للذي يبقى في ثوب واحد لينام أو يعمل عملا

(٢) في اللؤلؤ والنفقات (الغيوم)

(٣) ل نسخة ليليان : تطاول حتى قلت ليس بمنفض وليس الذي يرمي النجوم بالآيب

وجعل له أردافاً كثيرة ، وجعل له صلياً يمتد ويتطاول ، ورأوا هذا بخلاف ما يستعبره أوتنام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستكرة ، ورأوا ان الالفاظ جميلة ، واعلم أن هذا صالح جميل ، وليس من الباب الذي يقال انه منناه عجيب ، وفيه المام باشكاف ، ودخول في التعامل

وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر مما كجلود صخر حطه السبل من عل
وقوله أيضاً (١) :

له أيتلا ظلي وصافا نعامه وارخا مسرحا وتقريب تشغل
فأما قوله « قيد الأوابد » فهو مليح ، ومثله في كلام الشعراء وأهل
الفصاحة كثير ، والتعامل بمثله ممكن . وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا
تصنيفاً ، ويؤلفون الحاشن تأليفاً ، ثم يوشحون به كلامهم . والذين كانوا من
قبل اغزارهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك ، انما كان يتفق لهم اتفاقاً ،
ويطرد في كلامهم اطراداً . وأما قوله في وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقة
وتشبيها ، وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا والطف ،
وكذلك في جمه بين أريمة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة ، ولكن
قد عورض في وزوج ، والتوصل اليه يسير ، وتطلبه سهل قريب

وقد بينا لك أن هذه القصيدة ولفظاتها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيذاً في
الجلودة والردامة والسلامة ولائعقاد والسلامة والانعزال والتمكن والتسمل
والاسترسال والتوحش والاستكراه ، وله شركاء في لفظاتها ومنازعين في محاسنها
ومعارضون في بدائنها ، ولاسواء كلاماً يئحت من الصخر نارة ويندوب نارة ،
وبتلون تلون الخرباء ، ويختلف اختلاف الاهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه ،

(١) هذه الكلمة مأخوذة من النسخة الخطية

وتتألف به أسبابه ، و بين قول بحرى في سبكه على نظام ، وفي وصفه على مناهج وفي وضعه على حد ، وفي صفاته على باب ، وفي بهجته ورواقه على طريق . مختلفه مؤلف ، ومؤلفه متحد ، ومتباعد متقارب ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد . وهو على متصرفاته واحد ، لا يستصعب في حال ، ولا يتعقد في شأن

و كنا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فنشكلم عليها ، ونبدل على معانيها ومحاسنها ، ونذكر لك من فضائلها وقائصها ، ونسط لك القول في هذا الجنس ، ونفتح عليك في هذا النهج . ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا والكلام فيه يتصل بقصد الشعر وعيانه ووزنه وبمزانه ومعياره ، ولذلك كتب وان لم تكن مستوفاة ، ونصانيف وان لم تكن مستقصاة . وهذا القدر يكفي في كتابنا ، ولم نحب أن ننسخ لك مأسطره الادباء في خطأ امرى . الفيس في العروض والنحو والمعاني ، وما عابوه عليه في أشعاره ، وتكلموا به على ديوانه ، لان ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ، وبجانب المقصوده . وانما أردنا أن نبين الجملة التي يراها لتعرف أن طريقة الشعر شريفة مورودة ، ومترلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم . وأنت تجد المتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أير عليه فيه ، وتجد المتأخر معنى قد أغلظه المتقدم ، وتجد معنى قد توافدا عليه ، وتوافيا اليه ، فها فيه شريكا . حال ، وكأتهما فيه وضعا لبيان ، والله يؤتي فضله من يشاء .

فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ووصفه ، فإن القول نفيه في جهته ، ونحوه في بحره ، ونفضل دون وصفه . نحن ندكر لك في تفصيل هذا ما قسمنا به على الغرض ونستولى به على الأمد ، ونصل به الى المقصد ، ونصور اعجازه كما

تصوّر الشمس ، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر ، وأقرب عليك الغامض
وأسهل لك العسير . واعلم ان هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل
الطلاب ، ضعيف الاصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تغطن
لما فيه . وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف
لا يكون كذلك وأنت نحسب ان وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل
كلام الا ان يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فان احمدى اللفظين قد
تفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الاخرى بل تتمكن فيه
وتضرب بجرائها وتراها في مظاهرها ونجوها فيه غير منازعة الى أوطائها ،
وتجود الاخرى لو وضعت موضعها في محل يفار أو مرمى شراد ، نائية عن استقرار
ولا أكثر عليك المنال ، ولا أضرب لك فيه الامثال ، وأرجع بك الى
ما وعدتك من الدلالة ، وضمت لك من تقريب المفالة ، فان كنت لا تعرف
الفصل الذي يأتى بين اللفظين على اختلاف مواقع الكلام ومتصرفات بحاري
النظام ، لم تستفد مما تقر به عليك شيئاً ، كان التقليد أولى بك والاتباع أوجب
عليك ، واكمل شيء سبب ولكل علم طريق ، ولا مسيل الى الوصول الى
الشيء من غير طريق ، ولا بلوغ غايته من غير سبيله

خذ الآن - هداك الله - في تفريغ الفكر ونخاية البال ، وانظر فيما تعرض
عليك ونهده اليك ، متوكلاً على الله ومعتمداً به ومستعيناً به من الشيطان
الرجيم ، حتى تنف على اعجاز القرآن العظيم . معناه الله عز ذكره حكماً وعظماً
ومجيداً ، وقال (٤١ : ٤٢) : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد ، وقال (٥٩ : ٦١) : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل
رأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال تضربها للناس لعلهم
يفكرون ، وقال (١٣ : ٣١) : ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت
به الارض أو كُلم به الموتى بل قد الامر جميعاً ، وقال (١٧ : ٨٨) : قل

لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو
كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين الفزاري ، حدثنا
أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان ، حدثنا أبو يوسف الصديقي ، حدثنا محمد
ابن سلمة ، عن أبي سنان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري الطائي ، عن
الحارث الأعور ، عن علي رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله إن أمتك
مستغفرون من بعدك ، فسأل أوسل - ما المخرج من ذلك : قال : « يكتب الله العزيز
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تغريباً من حكمه حميد ، من
ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولي هذا من جبابرة حكم بغيره قصمه الله ،
وهو الذكركم الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، فيه خير من قبلكم ،
وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل . وهو الذي سمعته الجن يقولوا :
﴿ إنا سمعنا قرآنًا عجيباً يهدي إلى الرشاد ﴾ ، ما به لا يخلق على طول الرد ، ولا
تدقضي غير ، ولا تغني عجائبه ، وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن ، أخبرنا
أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب
ابن شريك ، عن عبيدة ، عن أسامة ، عن أبي عطاء ، قال : أرسل النبي ﷺ
إلى علي رضي الله عنه في ليلة . فذكر نحو ذلك في المعنى ، وفي بعض النسخ
اختلاف . وأخبرنا أحمد بن علي بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن
عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب بن شريك ، عن
بشر بن عمير ، عن القاسم ، عن أبي أسامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من
قرأ ثلث الترات أعطي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف
النبوة ، ومن قرأ القرآن كله أعطي للنبوة كلها غير أنه لا يوحى إليه »
وذكر الحديث

ولم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواراً ، وجلل الآفاق
ضياءه ، ونفذ في العالم حكمه ، وقبّل في الدنيا رحمته ، وطمس ظلام الكفر بعد

ان كان مضروب الرواق ، محدود الاطراف ، بسوط الاباع ، مرفوع للعباد ، ليس على الارض من يعرف الله حق معرفته أو يعبد حق عبادته أو يدرك بمقامته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته ، فمكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور فقال (٤٢ : ٥٢) : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الایمان ، ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا ، وانك انهي الى صراط مستقيم » فانظر ان شئت الى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية نامة وكل لفظ بديع واقع ، قوله « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » يدل على صدور من الربوبية ، ويبين عن وروده عن الالهية ، وهذه الكلمة بمنزلة دواء أخونها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير عجز عن جمعه ، وكان واسطة رقيقة ، وفاتحة تقفده ، وغرة شهرة ، وعين دهره . وكذلك قوله : « ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا » فجعله روحاً لأنه يحيى النطاق ، فله فضل الارواح في الاجساد ، وجعله نوراً لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق ، ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته ، ووقف وقوف الاسترشاد به على ارادته ، وبين أنه لم يكن ليهتدي اليه لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليهتدي وكيف كان يهدي لولاه ، فقد صار [يهدي ولم يكن ^(١)] من قبل ذلك ليهتدي ، قال : وانك لتهدي الى صراط مستقيم « (٤٢ : ٥٣) » صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ، ألا الى الله نصير الامور ، فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمات الاولى ^(٢) مؤلفتان ، وقوله : « ألا الى الله نصير الامور » كلمة منفصلة مباينة الاولى ، قد صيرها شريف النظم أشد اتصافاً من الكلام المألوف وأدق انتظاماً من

(١) هذه الكلمات غير موجودة في نسخة الخطبة وفي مكانها ياضر بقع دا

(٢) بالنسخة المطبوعة (والاولان) وهي لغة قليلة

الحديث الملائم، وهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته. الامر
أظهر الحمد لله، والحمد لله من أن يحتاج الى كشف، تأمل قوله (٩٦: ٩)
« فأتى الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز
العليم » انظر الى هذه الكلمات الأربع التي ألف بيدها، واحتج بها على ظهور
قدرته ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها فقرة، وبفردتها ذرة؟ وهو
مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الامر، ونفاذ القهر، ويتجلى في جملة القدرة،
ويتجلى بمخالفة العزة ويجمع السلامة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة،
والرفق الضافي، والبهاء الضافي. واست أقول أنه جعل الاطلاق المبلغ والاعجاز
الطريف والتعديل والتأويل والتقريب والتشكيل، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر
منه، لأن المعجيب ما يتأتى من افراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين
رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة، فإذا أتت ازديادت حسناً وازدادت
إذا تأملت معرفته وإعماها به ثم تأمل قوله (٣٦: ٣٧ - ٣٩) : « وآية لهم الليل
نساج منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري مسقرها ذلك تقدير العزيز
العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » هل تجد كل لفظة
وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتنصن شرط القول المبلغ؟
فإذا كانت الآية تنظم من البديع وتأنف من البلاغات فكيف لا تقوت
جهد المهود ولا تحوز^(١) شأوا المؤلف؟ فكيف لا تحوز قصب السبق ولا
تعالى عن كلام الخلق؟ ثم أقصد الى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها،
وراع ما فيها من براعمها وقصصها تأمل السورة التي يتذكر فيها الخلق وانظر في
كل كلمة وفصل فصل. بدأ بتذكر السورة الى أن بين أن القرآن من عنده

(١) في النسخة الخطية لا تحوز الجهد

فقال (٢٧ : ٦) : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى نارا فقال لاهله امكثوا (٢٧ : ٧) : « اني آنست نارا رأيا صائبيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب مبسور » فصار لكم تصطلون » وقال في سورة طه في هذه القصة (٢٠ : ١٠) : « لعل آتيكم منها بقبس أو أجعد على النار هدى » وفي موضع (٢٨ : ٢٩) : « لعل آتيكم منها بخبر أو نجدة من النار لعلكم تصطلون » قد تصرف في وجوه ، وأتى بذكر القصة على ضرب ، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرُق ذلك ، ولهذا قل (٥٢ : ٣٤) : « فليأتوا بحديث مثله » ليكون أبلغ في تعجزهم ، وأظهر للحجة عليهم . وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها نامة في معناها . ثم قل (٢٧ : ٨) : « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » فنظر إلى ما يجري له الكلام من علو أمر هذا النداء العظيم شأن هذا النداء ، وكيف انتظم مع الكلام الأول ، وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلا يده عليه ومعجزة نهديه إليه ، وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن ، وفيها تتضمنه من المعاني الشريفة ، ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء - عن نور البرهان - من غير سوء . ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة لعل نجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبيدع الرصف ، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قرئتها اخوانها وصامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها ، ثم من قصة إلى قصة ، ومن باب إلى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلا بيديم التأليف وبلغ التنزيل وإن أردت أن تنبين ما قلناه فضل تبين ، وتحقق بما ادعينا زيادة تصديق . فإن كنت من أهل الصنعة فاعمد إلى قصة من هذه القصص ، وحديث من

هذه الاحاديث فغير عنه بعبارة من جهتك وأخبر عنه بالفاظ من عندك ، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر ، وتقين في نظم القرآن الدليل الباهر ، ولذلك أعاد قصة موسى في سور ، وعلى طرق شتى ونواصل مختلفة ، مع اتفاق المعنى ، فلملك ترجع الى عقلك ، وتسقر ما عندك ، ان غاظت في أمرك أو ذهبت في مذاهب وهلك أو ساطت على نفسك وجه فذلك به متى نهيأ لبايع أن يشصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤلفة من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعميل ! وأحسب انه يسلم من هذا - ومحال أن يسلم منه - متى ^(١) يظهر بمثل تلك الكلمات الأفراد ، والالفاظ الأعلام ، حتى يجمع بينها فيجمل فيها فقرة من كلامه ، وقطعة من قوله ؟ ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة ففني يشفق له في قدر ما نقول انه من القرآن معجز ؟ هيهات هيهات ! ان الصبح يعلّس النجوم وان كانت زاهرة ، والبحر يفر الانهار وان كانت زاهرة ، متى نهيا للأدعي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية (٢٧ : ٣١) : « أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتَوْهُنَّ مِنْهُنَّ مَخْلُوصَاتٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا صَارَتِ إِلَيْهِ مِنَ التَّيْبِيرِ ، وَاشْتَعَلَتْ بِهِ ^(٢) مِنَ الْمَشُورَةِ ، وَمِنْ تَعْلِيمِهَا أَمْرَ الْمُسْتَشَارِ ، وَمِنْ تَعْلِيمِهِمْ أَمْرَهَا وَطَاعَتَهَا بِتِلْكَ الْإِلْفَافِ الْبَدِيعَةِ ، وَالْكَلِمَاتِ الْمَجِيئَةِ الْبَالِغَةِ ، ثُمَّ كَلَامُهَا بَعْدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمَ تَمَكَّنَ قَوْلُهَا (٢٧ : ٣٢) : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » ، وذكر قولهم (٢٧ : ٣٣) : « قَالُوا نَحْنُ أَوْلَىٰ قُوَّةً وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » لا تَجِدُ فِي صَفَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ أَبْدَعُ مِمَّا وَصَفَهُمْ بِهِ ، وَقَوْلُهُ « الْأَمْرُ

(١) في العبارة (حتى) وما أُنْتَهَىٰ عَنْ الْحَقِيقَةِ

(٢) الضمائر المؤنثة ما تنه على بلقيس ملكة سبا المذكورة في القصة وشماز الجمع لعدد من جنودها

اليك ، تعلم براعته بنفسه ، وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام ، ويمكن
 الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله فانظري ماذا تأمرين ، ثم الى هذا الاختصار
 والى البيان مع الایجاز ، فان الكلام قد يفسده الاختصار ويضعفه التخفيف منه
 والایجاز ، وهذا مما يزيد الاختصار بسطاً لمكانه ووقوعه موقعه ، ويتضمن
 الایجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه ، وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق
 عن الافهام ، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من الغلام ، ثم لو
 وقع على الافهام ^(١) لما يجب فيه من شروط الاحكام او معاني القصة وما تقتضي
 من الاعظام ، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيت تافساً في وجه الحكمة ، او مدخولاً
 في باب السياسة ، او مصغراً في طريق السيادة ، او مشترك العبارات ان كان
 مستجود المعنى ، او جيد البلاغة مستحلب المعنى ، او مستحلب البلاغة جيد
 المعنى ، او مستفكر المظهر وحشي العبارة ، او مستهين الجانب مستكره الوضع ،
 وانت لا تجد في جميع ما قلنا عليك إلا ما إذا بسيط أفاد ، وإذا اختصر كل
 في بابه وجاد ، وإذا شرح الحكيم في جوانبه طرّف خاطره ، وبعث العليم في
 أطرافه عيون مباحته ، لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائم تترى ، ثم فكر بعد
 ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله (٢٧ - ٣٤) : ان الملوك اذا دخلوا قرية
 أفسدها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ، هذه الكلمات الثلاث
 كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره ، كالباقوت يتلأل بين شذوره .
 ثم تأمل تمكن الفاصلة - وهي الكلمة الثالثة - وحسن موقعها وعجيب حكمها
 وبارع معناها ، وان شرحت لك مافي كل آية طال عليك الامر ، ولكن قد
 بينت بما فسرته ، وقررت بما فصلت ، الوجه الذي سلكته ، والنحو الذي
 قصدت ، والقرص الذي اليه رميت ، والسمت الذي اليه دعوت ، ثم فكر بعد

ذلك في شيء أدرك عليه ، وهو تماثل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات
 القصيرة والطويلة والمتوسطة ، فأجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة
 فاصلة ، وتبدير الخوازم والقوائم ، والبوادي ، والمقاطع ، ومواضع الفصل والوصل ،
 ومواضع التنقل والتحول ، ثم اقض ما أنت قض ، وإن طال عليك تأمل الجميع
 فاقصر على سورة واحدة أو على بعض سور ، ما رأيك في قوله (٢٨ : ٤) :
 « إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، فذبح
 أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات ،
 سناوها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وبنائها على ما تشاهد ، ورواقها
 على ما تسمي ، وفصاحتها على ما تعرف ، وهي تشتمل على جملة وتفصيل ،
 وتفسير ذكر الملوك في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء ،
 وإذا نكح في هذين الأمرين فما ظنك بما دونها ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا
 الظلم ، والقلوب لا تفر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ،
 وكفت في التظلم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت حيزه على صدره ،
 ثم ذكر وعده بخلصهم بقوله (٢٨ : ٥) : « وزيد أن تمن على الذين استضعفوا
 في الأرض ويخلصهم أئمة ونجملهم الوارثين » وهذا من التأليف بين المؤلف ،
 والجمع بين المستأنس ، كما أن قوله (٢٨ : ٢٧) : « واتبع فيما آتاك الله الدار
 الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ
 الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » وهي خمس كلمات متباعدة في
 المواقع ، نائية المطارح ، قد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من الشيء المؤلف في
 الأصل ، وأحسن توافقاً من الشطابق في أول الوضع ، ومثل هذه الآية قوله
 (٢٨ : ٦٨) : « وربك بخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله
 وتعالى عما يشركون » ومثلها (٢٨ : ٥٨) . « وكم أهلكنا من قرية بطرت
 معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً وكنا نحن الوارثين » ومن

المؤلف قوله (٢٨ : ٨٦) . « نخسنا به وبداره الأرض ، فما كان له من قوة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المتصربين » وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر . ومن الباب الآخر قوله تعالى (٢٨ : ٨٨) : « ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم » واليه ترجعون » كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفت ، ثم نجد فيما ننظم نقل للنظم ونفور الطبع ، ويشيراد الكلام ، ونهايت القول ، ونعم جانب ، وقصورك في الايضاح عن واجبه ، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل حتى تبين عليك مواضع الوصل ، ويستغضب عليك أما كن الفصل ، ثم لا يمكنك أن فصل بالنقص مواضع زاجرة ، وأمثالا سائرة ، وحكما جبلة ، وأدلة على التوحيد بينة ، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة ، وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء الخلفين ، هل نجد كلاما في المدح والفرح والفخر والمجى بجري بحرى كلامه في ذكر القصص ؟ انك ليراه اذا جاء الى وصف واقعة أو نقل خبر عامي الكلام سوفي الخطاب ، مسترسلا في أمره ، متساعلا في كلامه ، عادلا عن المؤلف من طبعه ، ونا كيا عن المعبود من سجيته ، فإن اتفق له في قصة كلام جيد كان قدر اثنين أو ثلاثة ، وكان ما زاد عليها حشوا وما تجاوزها لغوا . ولا أقول انها تخرج من عادته عفوآ لأنه ينصر عن العفو ، ويقف دون العرف ، ويتعرض للركاكة ، فإن لم تقنع بما قلت لك من الايات فتأمل غير ذلك من السور ، هل نجد الجميع على ما وصفت لك لو لم تكن الا سورة واحدة لكنت في الاعجاز ، فكيف بالقرآن العظيم ؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى وأقنع وشفى ، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء لما طلبت بينة سواها ، هل قصة من قصصه

وهي قوله (٢٦ : ٥٢) : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون »
 إلى قوله (٢٦ : ٥٧ - ٦٠) : « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام
 كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعهم مشرقين » حتى قل (٢٦ : ٦٣)
 « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود
 العظيم » ثم قصة إبراهيم عليه السلام ، ثم لولم تكن الا الآيات التي انتهى إليها
 القول في ذكر القرآن وهي قوله (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٥) : « وأنه لنزول رب
 العالمين ، نزل به الروح الأمين » على قلبك لتكون من المنذرين ، يمسك
 هربى مين » وهذه كلمات مفردة يفصلها ، منها ما يتضمن فائدة وقاصلة ،
 ومنها ما هي فائدة وواسطة وقاصلة ، ومنها كلمة يفصلها فائدة ، دل على أنه نزل
 على قلبه ليكون نذيراً ، وبين أنه آية لكونه نبياً ، ثم وصل بذلك كيفية
 النذارة فقال (٢٦ : ٢١٤ - ٢١٥) : « وأندر عشرتك الأقربين ، وانخفض
 جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز ، وتبين
 التصرف السليم ، والتنقل في الانصول إلى آخر السورة ، ثم راع المقطم المعجب
 وهو قوله (٢٦ : ٢٢٧) : « وصيغ الذين ظلموا أي متقلب يتقلبون » هل
 يحسن أن تأتي مثل هذا الوعيد ، وان تعظم مثل هذا الظلم ، وان تجد مثل
 هذه النظائر السابقة ، وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟

ولولا كراهة الإملال لجئت إلى كل فصل لاستقرت على الترتيب كلماته ،
 وبنيت كل ما في كل واحدة منها من البراعة ومن عجيب البلاغة ، وأملك
 تستدل بما قلنا على ما بعده ، وتستغني بنورده ، وتهتدي بهداه ، ونحن نذكر
 آيات آخر التعداد استحصاراً ، لتقديم نيقنا به تأمل من الكلام المؤلف قوله
 (٤٠ : ١ - ٣) : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل
 التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » أنت قد تدربت
 الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته ، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم

مثل هذا النظم في هذا القدر ، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني
وحسن الفائدة والحاجة ، واتل ما يمدحها من الآي واعرف وجه الخلوص من
شيء الى شيء : من احتجاج الى وعيد ، ومن اذار الى اذار ، ومن فتون
من الامر شئ مختلفة تأتلف بشريف النظم ، ومتباعدة تتقارب بعلى الغم ،
ثم جاء الى قوله (٤٠ : ٥ : ٦) : كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من
بعدهم ، وحث كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق
فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة على الذين كفروا أنهم
أصحاب النار ، الآية الأولى أربعة فصول ، والثانية فصلان ، وجه الوقوف
على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله : « وحث كل أمة برسولهم ليأخذوه »
وهل تقع في الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة ؟ وهل تقوم مقامها في الجزالة لفظة ؟
وهل يسد مسده في الاصالة نكتة أو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجموه أو
ليغروه أو ليظردوه أو ليهلكوه أو يذلوهم ونحو هذا ما كان ذلك بعيداً ولا بارعاً ،
ولا عجباً ولا بالناً ، فأنشد موضع هذه الكلمة وتعلم بها ما تذهب اليه من
نخب الكلام [وجميل] ^(١) الألفاظ والاعتماد المعاني فإن كنت تُقدّر أن
شئاً من هذه الكلمات التي [عددتها] ^(٢) عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا
من هذا الكتاب فلا سبيل لك الى الوقوف على نصايف الخطاب ، فانزع الى
التقاييد ، واكف نفسك مؤنة التذكير ، وإن فطنت فانظر الى ما قل من رد
عجز الخطاب الى صدره بقوله « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم ذكر عقيبها
العذاب في الآخرة وأتلاها تلو العذاب في الدنيا ، على الإحكام الذي رأيت ،
ثم ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات الرسل فقال (٤٠ : ٧)
« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به » الى أن

(١) في مكان هذه الكلمة من الخطبة يا خير مقداره

ذكر ثلاث آيات ، وهذا كلام مفصول ، تعلم عجب اتصاله بما سبق ومضى ،
وانقسابه الى ما تقدم وتقتضى ، وعظم موضعه في معناه ، ورفع ما يتضمن من
تحميد ونسبهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله (٤٠ : ٧) : « ربنا
وسعت كل شيء ، رحمة وعلما » هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى ،
ولطيف هذه الحكاية ، وتلاؤم هذا الكلام ، وتشاكل هذا النظام ؟ وكيف
يهتدي الى وضع هذه المعاني بشري ؟ والى تركيب ما يلائمها من الالفاظ انسي ؟
ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى ، ثم نبه على أمر القرآن وأنه
من آياته ، بقوله (٤٠ : ١٣) : « هو الذي يرثكم آياته وينزل لكم من السماء
رزقاً وما يتذكر الا من ينسب » وانما ذكر هذين الأمرين الذين يختص
بالقدرة عليهما لتناسلتهما في أنهما من تنزيله من السماء ، ولأن الرزاق الذي لو لم
يرزق لم يمكن بقاء النفس فحجب طاعة الفطر في آياته ، ثم قال (٤٠ : ١٤ - ١٦)
« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي
الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون
لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم » الله الواحد القهار » فف على هذه
الدلالة ، وفكر فيها ، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العلية ،
والكلمات السامية ، والحكم البالغة ، والمعاني الشريفة تعلم وروها عن الالمية ،
ودلائها على الربوبية ، وتحقق أن الخطب المنقولة عنهم والاخبار الماثورة في كلامهم
الفضيحة من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية وما نجوم عليه الأفكار
الآدمية ، وتعرف ما ياتها هذا للضرب من القول ، أي خاطر يشوق الى أن
يقول : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم
هم بارزون » وأي لفظ يدرك هذا المضار ، وأي حكم يهتدي الى ما لهذا
من الغور ، وأي فصيح يهتدي الى هذا النظم ؟ ثم استقرى الآية الى آخرها
واعتبر كلماتها ، وراجع بعدها قوله (٤٠ : ١٧) : « اليوم نحزي كل نفس بما كسبت »

لا ظلم اليوم أن الله سريع الحساب ، من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قريشاً وعلى خفتها في النظم وموقعها من القلب ؟ ثم تأمل قوله (٤٠ : ١٨ - ٧)
 « وأنذرهم يوم الآزفة أنذر القلوب لدى الخفاجر كاطمين ما للظالمين من حليم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أن الله هو السميع البصير » كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها من أنه إذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها ، أو في خطبة كانت وجهها ، أو قصيدة كانت غرة غرتها ، وبيت فصيدتها ، كاليافوثة التي تكون فريدة العقد وعين القلادة ودرة الشجر ، وإذا وقع بين كلام وشيء ، وإذا ضمّن في نظام زينة ، وإذا اعترض في خطاب غير عنه ، وبيان بحسنه منه ؛ واست أقول هذا لك في آية دون آية ، وسورة دون سورة ، وفصل دون فصل ، وقصة دون قصة ، ومعنى دون معنى ، لأنني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والاختيار ، وفي التشرائع والأحكام ، وفي الديانة والتوجيه وفي الحجج والتشبيات ، هو خلاف الكلام فيها عدا هذه الأمور . ألا ترى أن الشاعر المطلق إذا جاء إلى الزهد قصره ، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره ، ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في أمر ، ولا يختلف في حال ، بل له المثل الأعلى ، والفضل الأسنى . وفيما شرحناه لك كفاية ، وفيما بيناه بلاغاً ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أخرى منهم قوله (٥ : ٤) : « يستلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما حكم الله فمكّلوا مما أمسكن عليكم » اذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب . أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرف المجيب والنظم البارع ما يدلك - ان شئت - على الإعجاز مع هذا الاختصار والإيجاز ،

فكيف اذا ملأ ذلك آيات وكانت سورة ٢ ونحو هذه الآية قوله (٧ : ١٥٧) :
 « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجيئونه مكتوبا عندهم في التوراة
 والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحمل لهم العيبيات ويحرم عليهم
 انطيائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه
 ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » وكلاية التي بعدها
 في التوحيد واثبات النبوة ، وكلايات الثلاث في الموارث . أي : يلزم يقدر
 على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام ٢ ثم كيف يقدر على ما فيها من
 يدبغ النظم ٢ وان جئت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى (٢١ : ٢٢ - ٢٣) :
 « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا فسيحان الله رب العرش عما يصفون .
 لا يستل عما يفعل وهم يسألون » . وكلايات في التوحيد كقوله (٤٠ : ٦٥) :
 « هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » وكقوله
 (٢٥ : ١ - ٢) : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »
 الذي له ملك السموات والارض ولم ينخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك
 وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . وكقوله (٦٧ : ١) : « تبارك الذي بيده
 الملك وهو على كل شيء قدير » الى آخرها وكقوله (٣٧ : ١ - ١٠) :
 « والصافات صفاً قالوا اجرات زجرا قالتا نبات ذكرنا ان الحكم لواحد رب
 السموات والارض وما بينهما رب المشارق انا زينا السماء الدنيا بزينة
 الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الاطلاق الاعلى ويعتفون
 من كل جانب دمورا ولم عذاب واصب لا من خطف الخطاة فانبعث شهاب
 ثاقب » هذه من الآيات التي قل فيها الله تعالى ذكره (٣٩ : ٦٣) « الله
 نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تفشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم
 تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل
 الله فما له من هاد » وانظر بعين عقلك وراجع حكمة بصيرتك اذا فكرت في

كلمة كلمة مما قلناه اليك وعرضناه عليك ، ثم فيما ينظم من الكلمات ، ثم
الى أن بشكامل فصلا وقصة أو يتم حديثاً وسورة ، لا بل فكر في جميع القرآن
على هذا الترتيب ، وتدبره على نحو هذا التنزيل ، فلم ندع ما ادعيناه لبعضه ،
ولم نصف ما وصفناه إلا في كله ، وإن كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر ،
والآية أكشف وأبهر . وإذا تأملت على ما هديناك اليه ووقفناك عليه فالنظر هل
ترى وقم هذا الدور في قلبك واشتغله على ليك ومريته في حسك ونفوذ في
عروقك وامتلاك به إيماناً واحاطة واهتمامك به إيماناً وبصيرة ، ثم هل تجد
الرجب يأخذ منك مأخذه من وجه الهزة تعمل في جوانبك من لون والأريحية
تقتول عليك من لب ، وهل تجد الطرب يستفزك لطيف ما فطنت له ،
والسرور يحركك من عجيب ما وقعت عليه ، وتجد في نفسك من المعرفة التي
حدثت لك عزة وفي أعطائك ارتياحاً وهزة ، وترى لك في الفضل تقدماً
وتبريزاً ، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً ، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ،
ومهاوهم في ظلال القلة والدقة ، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تدحظ بها مراتبهم
بحيث يجب أن ترتبها . هذا كله في تأمل الكلام ونظامه ، وعجيب معانيه
وأحكامه ، فإن جئت الى ما انسط في العالم من بر كته وأنواره ، وتمكن في
الآفاق من يمنه وأضوائه ، وثبت في القلوب من إكباره وأعظامه ، وتقرر في
النفوس من حتم أمره ونهيه ، ووضي في السماء من مفروض حكمه ، وإلى أنه جعل
عبادة الصلاة التي هي أول الإيمان في التأكيده ، وثانيه التوحيد في الوجوب ،
ومفروض حفظه ، وكل الصفات والكبار بتلاوته ، وأمر عند افتتاحه بما أمر به
العهدي من قوله : فإذا قرأت القرآن فاستمع له من الشيطان الرجيم ، لم يؤمر
بالتمرد لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه فهل يدرك هذا على عظيم شأنه وراجح
ميزانه ، على مكايده ووجه الأمر أن تعد الكلام شديد ، ويميزه صعب .

ومما كتب الي الحسن بن عبد الله العسكري : أخبرني أبو بكر بن دريد
 قل : سمعت أبا حاتم يقول : سمعت الأصمعي يقول : فرسان الشعراء أقل من
 فرسان الحرب . وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : العلماء بالشعر أعز
 من الكبريت الأحمر ، وإذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس بشق
 تميزه ، ويصعب نقده ، يذهب عن محاسنه الكثير ، وينظرون الى كثير من
 قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون في الاحسن منه
 اختلافا كثيرا ، وتباين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحيرون
 فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأتى في مقدورهم ، ولا يمثل بخواطرهم ؟ وقد حذر
 القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم ولا أتم بلاغة ولا أحسن براعة ، حتى
 دمشوا حين ورد عليهم ، وورثت عقولهم ، ولم يكن عندهم فيه جواب غير ضرب
 الامثال ، والتعرض عليه ^(١) ، والتوهم فيه ، وتقسيمه أقساما ، وجعله عشرين .
 وكيف لا يكون أحسن الكلام وقد قال الله تعالى (٢٣ : ٣٩) : « الله زل
 أحسن الحديث كتابا ، مثابها مثافي ، تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين
 جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ومن
 يضل الله فاله من هاد » استقيم فهم هذه الآية و كفاك الاستغناء علم هذه
 الكلمات وقد أغضاك ، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله ، ولا تعرف
 براعته بكثرة فصوله ، ان القليل يدل على الكثير ، والقريب قد يهجم بك على
 البعيد ، ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة وكبر محلها
 ودهاها على أقوام ذكر في آخر هذه الآية ما ذكره وبين ما بين ، فقال : « ذلك
 هدى الله يهدي به من يشاء » فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد .
 وقال (٢٣ : ٣٩) : « ومن يضل الله فاله من هاد » وقال (٢٦ : ٢) :
 « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » وقد بسطنا لك القول رجاء الفهمك ،

(١) الله (والناظر من عليه)

وهذا المنهج الذي رأيته أن سلكته بأخذ بيدك وإبدالك على رشذك وبغيتك
عن ذكر راعته آية آية لك . وأعلم أنا لم نقصد فيها سطرناه من الآيات ومجيبناه
من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والأظهر ، لانا نعتد في كل
سورة ذكرناها وأضر بها عن ذكرها اعتقادا واحدا في الدلالة على الإعجاز ،
والكفاية في التمتع والبرهان ، ولكن لم يكن يد من ذكر بعض فذكرنا ما تيسر ،
وقلنا فيما أنجب في الحال وخطر ، وأن كمننا نعتد أن الإعجاز في بعض القرآن
أظهر وفي بعض أدق وأغمض ، والكلام في هذا الفصل يجي بعد هذا ، فاحفظ
عنا في الجملة ما كررنا والسير بعد ذلك في التفصيل إليك . وحصل ما أعطيناك
من العلامة ، ثم النظر عليك

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين : أحدهما ما يتم بنفسه ، أو
بنفسه وفصلته فيذكر في الكلام أنارة النجم في الظلام ، والثاني ما يشتمل على
كلمتين أو كلمات إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة وغاية البلاغة ،
وأما يبين ذلك بأن تنصور هذه الكلمة مضمنة بين أضغاث كلام كثير أو
خطاب طويل ، فقرأها ما يبينها تدل على نفسها وتعلو على ما قد قرن منها لعلو
جنسها ، فإذا ضمت الى أخواتها وجاءت في ذواتها أثرت القلائد منظومة ، كما
كانت قريش عند تأمل الأفراد منها اليوانيت منتورة والجواهر مبهوثة ، ولولا
ما أكرم من تضمين القرآن في الشعر لأشدتلك الفاظاً وقمت مضمنة لتعلم كيف
تلوح عليه وكيف ترى بهجتها في أثنائه وكيف تتناز منه ، حتى أنه لو تأمله من
لم يقرأ القرآن ليقين أنه أجنى من الكلام الذي تضمنه والباب الذي توسطه ،
وأكثر مكانه واستكبر موضعه ، ثم تناسبها في البلاغة والابداع وتماثلها في السلاسة
والاغراب ، ثم انفرادها بفلك الأسلوب وتخصصها بذلك الغريب ، ثم سائر
ما قدمنا ذكره مما نكره أعادته . وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في
مجاربه ، ويختل نصرفه في معانيه ، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه ،

ويضيق به النطاق في مذهبه ، ويرتبك في أطرافه وجوانبه ، وإسليمه للتكلف
الوحش كفرة تصرفه ، ويحيله على التصنع الظاهر ، وورد تنقله وتخلصه ، ونظر
القرآن في مؤلفه ومختلفه ، وفي فصوله ووصله ، وافتتاحه واختتامه ، وفي كل نهج
يسلكه ، وطريق يأخذه فيه ، وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤممه - على ما وصفه
الله تعالى به - لا يتفاوت ، كما قل (٤ : ٢٢) : « ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ولا يخرج عن تشابهه ونمائه ، كما قل (٣٩ : ٢٨) :
« فرأنا عريباً غير ذي عوج » ، وكما قل (٣٩ : ٢٣) : « كتاباً متشابهاً »
ولا يخرج عن لسانه ، كما قل (٢٩ : ١٩٥) : « بلسان عربي مبين » ، وغيره .
من الكلام كثير التلون ، دائم التغير ، يقف بك على بدع مستحسن ، ويعتبه
قبيح مستهجن ، ويطلع عليك بوجه الحسن ، ثم يعرض للجر بخمد القبيحة
الشوها ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كالآل في الزهر ، وقد
يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهية ، قد يقع اليك منه الكلام المشيج^(١)
والنظم المشوش ، والحديث المشوه ، وقد نجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه ،
ولا يتأنف ولا يتأهل ، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى :
وشعر كعبر الكيش فرق بينه لسان دعى في القربض دخيل
وقال آخر :

وبعض قريض النوم أولاد علة بكدا لسان الناطق المتحفظ

فإن قل قائل : فقد نجد في آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ،
ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وإنما نكون البراعة عندك منه في مقدار
يزيد على الكلمات المفردة ، وحده يتجاوز حد اللفاظ المستبعدة ، وإن كان
الأكثر على ما وصفته به ، قيل له : نحن نعلم أن قوله (٤ : ٢٣) : « حرمت
عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخوانكم وعماتكم وخالاتكم » إلى آخر الآية ليس

من القسبل الذي يمكن اظهار البراعة فيه وابانة الفصاحة ، وذلك يجري عندنا
 مجرى ما يحتاج الى ذكره من الاصماء والالفاظ ، فلا يمكن اظهار البلاغة فيه ،
 فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة ، بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل
 الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل في هذه الآية - ان
 تأملت - ألا ترى انه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها وادلائها بنفسها ومكان
 بمضيتها ، فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن ، لانه ليس في ذوات الانساب
 أقرب منها ، ولما جاء الى ذوات الأسباب الحق لها حكم الام من الرضاع ، لان
 اللحم ينشره اللبن بما ينفذوه فيحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية ، ففشر
 الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالفائدة ، وذكر الأخوات من الرضاة فنبه بها على
 كل من يدلي بغيرها وجعلها نحو الام من الرضاع ، والكلام في اظهار حكم هذه
 الآية وفوائدها يطول ، ولم نضع كتابنا لهذا ، وحيل هذا أن نذكره في
 كتاب معاني القرآن ان سهل الله لنا املاءه وجمعه ، فلم تنفك هذه الآية من
 الحكم التي تخلف حكمة الاعجاز في النظم والتأليف ، والفائدة التي تنوب مناب
 العدول عن البراعة في وجه الترخيف ، فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء ولم
 يهند الاغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته ، وقد
 يتفق في الشعر ذكر الاسامي فيحسن موقعه ، كقول أبي دؤاد الأسدي :

ان يقتلوك فقد ثلث عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
 بأشدهم كليباً على أعدائه وأعزهم قدراً على الاصحاب

وقد يتفق ذكر الاسامي فيفسد النظم ويبيح الوزن ، والآيات الأحكاميات
 التي لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الالفاظ ما يعتبر في غيرها ، وقد
 يمكن فيها ، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في باب ما ليس عليه

مزيد في البلاغة وعجيب النظم ، ثم في جملة الآيات ما أن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والانفاظ الآحاد فقد نجد ذلك مع تركيب الكلمتين والثلاث ، ويترد ذلك في الابتداء ، والخروج ، والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة ، أو اجتماع ذلك أو في بعض ذلك ، ما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات . وإن كانت الجملة والعظم على ما سبق الوصف فيه ، وإذا عرف ما يجري إليه الكلام ، وينتهي إليه الخطاب ، ويقف عليه الأسلوب ، ويختص به القليل بأن عند أهل الصنعة تميزاً بابه وانفراداً سبيله ، ولم يشك البليغ في إثباته إلى الجملة التي يقتضيها ، ولم يرنب الأديب للبارع في انسابه إلى ما عرف من نهجه ، وهذا كما يعرف طريقه منقول في رسالته فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه ، فكأنه يرى أنه يعد عليه مجاري حركاته وأنفاسه . وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه يعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر ، وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها ، وتفصيلها يطول ، وعجائبها لا تنفد في فهمها الكلام^(١) والاشادات ، وإذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً ربما زاد الإفهام به على الإيضاح ، أو ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه ، كان النهاية في معناه ، وذلك كقوله (١٧ : ١) : « سبحانه الذي أمرى عبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لئريه من آياته » انه هو السميع البصير ، فصول هذه الآية وكلماتها على ما شرحناه من قبل البلاغة والاعراف في التقديم وفي تضمن هذا الأمر العظيم والمقام الكريم ، ويتلو هذه قوله (١٧ : ٢) : « وآتيناه موسى الكتاب وحملناه على عنق إبراهيم » هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصوير في صورة المنقطع ، وقد نزل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع ما لا ينفك منه القول ، وقد يتبرأ الكلام

(١) يلاحظ الأصلين ينسج الكلمة واحدة

المتمصل بعضه من بعض ويظهر عليه التثبيح^(١) والتباين للخلل الواقع في النظم ، وقد انصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبين عليه تميز الخروج ، ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر نوح وكيف انتهى عليه ؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها . مع خروجها مخرج البروز من الكلام الاول - الى ذكره ، واجرائه الى مدحه بشكره ، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسبوا بسيرته ، وأن يستنوا بسنته في أن يشكروا كمشكره ، ولا يتخذوا من دون الله وكلاء ، وأن يمتدوا تعظيم تخليصه ايام من الطوفان لما حلهم عليه ونجاهم فيه حين أهلك من عداهم به ، وقد عرفهم أنه انما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيها سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالافعال والاحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولهم ومع من ذريته ، فلما عادوا الى جهالتهم ونمردوا في طغيانهم ، عاد عليهم بالعذاب . ثم ذكر الله عز وجل في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التي كانت لم بكلمات قليلة في العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل ، ثم لم يخل قضايف الكلام مما نرى من الموعظة على أصعب تدريج وأبدع تلويح بقوله (١٧ : ٧) : ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها ، ولم ينقطع بذلك^(٢) الكلام ، وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه ، فكيف بالقاء ما ليس منه في أثنائه وطرح ما بعده في أدراجه ؟ الى أن خرج الى قوله (١٧ : ٨) : عسى ربكم أن يرسلكم وان عدتم عدنا ، يعني ان عدم الى الطاعة عدنا الى العفو ، ثم خرج خروجاً آخر الى ذكر القرآن . وعلى هذا قسم بحسبك عن شرف الكلام ، وماله من علو الشأن ، لا يطلب مطلباً

(١) التثبيح ، والتبج - حركة - اضطراب الكلام ونفثه وتعمية الخط وذكرك به

(٢) هنا النسخة الخطية بأخر بنسب لكلمة واحدة

الا افتح ، ولا يسلك قلبا الا انشرح ، ولا يذهب مذهبا إلا استنار وأضاء ،
ولا يضرب مضربا الا يلق فيه الساء ، لا قمع منه على قائمة فقدوت انها أقصى
فوائدها الا قصرت ، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها الا وقد أخلت ،
ان الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله ، وأحق من
قبيصة لو كان شعره كله كلابيات المختارة التي قدمناها لأوجب للبرادة
من (١) قوله :

وَمِنْ كَسْدِي سَاءَ وَمِنْ ذَعْرَتِي عَدْلَاجُ الْمَجِيزِ نَهْوضُ
قُلُوبِ الْأَصْمَى : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم . وقال بعضهم :
السنيق أكمة . وقال فيها :

لَهُ قَصْرٌ بِأَعْيُرٍ وَسَاقَا لَعَامَةٍ كَفَحْنِ الْمَجَانِ الْفَيْصَرِي الْمَضْوَضِ
وقوله :

عَصَافِيرٌ وَذَبَابٌ وَدُودٌ وَأَجْرٌ مِنْ مَجْلِجَةِ الذَّبَابِ (٢)
وزاد في تقييد ذلك وقوه في أبيات فيها :
فقد طوّفت في الآفاق حتى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْأَيَابِ
وكل مكارم الاخلاق سارت اليه حتى دَنَا اسْكَنْبَانِي
وكفوله في قصيدة قلما في نهاية السقوط :

أَزْمَانٌ فَوْهَا كَلَّا نَهَيْتَهَا كَالْمَسْكِ فَاحِ وَغُلٌّ فِي الْقَدَامِ
أَفْلَا نَرَى أَلْطَانَهُنَّ بِوَاكِرَا كَالنَّخْلِ مِنْ شَوْكَانٍ حِينَ صِرَامِ
وَكُنْ شَارِبَهَا أَصَابَ لِسَانَهُ مُمٌّ بِخَالِطِ جَسَمِهِ بِسَنَامِ
وكفوله :

(١) في المخطئة (٤٠)

(٢) في المخطئة (الكتاب)

لم يفعلوا فدل آل حنظلة
لا خيرى وفى ولا عدس
ان بنى عوفرا ابنتوا حسبا
وكفوله :
انهم خير بشما اثمروا
ولا است غير يحكمها الثمر
ضيعه الداخلون (١) اذ غدروا

أبلغ شهابا وأبلغ
انا تركنا منكم قذلى
بمشين بين رجالا
ولم يقع مثل ذلك له وحده ، فقد قال الاعشى :

فادخلك الله برد الجنا ن جدلان في مدخل طيب
وقال أيضا :

فرسيت غفلة عينه من شاته فأصبت حبة قلبها وطمعها
وقل في فرسه :

ويأمر ليحموم كل عشية بقت وتعليق فقد كاد يسبق
وقال :

شاو مثل شول شل شول (٢)

وهذه الألفاظ في معنى واحد ، وقد وقع لزهير نحوه كقوله :

فأقسمت جهداً بالنازل من منى وما سفت فيه المقادم والأعر
كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها :

وهل يذبت الخطى الا وشيجه وتفرس الا في متابها النخل
وكقول الطرمح :
وكقول الطرمح :
وكقول الطرمح :

(١) في الخطبة (الداخلون)

(٢) في الخطبة (هل اناك الخير مال)

(٣) صدر هذا البيت : وقد غدوت الى الحانوت يتبنى

صوف تدريك من ليس مبتدأ : امارت بالبول ماء السكراض
 السبعة : الناقة الصلبة ، والسكراض : ماء الفحل ، أسالت ماء الفحل مع
 البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف ، والمائر : السائل
 فان قال قائل أجدهم نحاملت على امرئ القيس ورأيت أن شعره يتفاوت
 بين اللين والشراسة ، وبين اللطف والشكاسة ، وبين التوحش والاستئناس ،
 والتقارب والتباعد ، ورأيت الكلام الأعدل أفضل ، والنظام المستوفى
 أكمل ، وأنت نجد البحري يسبق في هذا الميدان ، ويفوت الغاية في هذا
 الشأن ، وأنت ترى للكتاب بفضلون كلامه على كل كلام ، ويقدمون رأيه في
 البلاغة على كل رأي ، و كذلك نجد لآبي نواس من بهجة اللفظ ودقيق المعنى
 ما يتحير فيه أهل اللفظ ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر ، ويرون لنظمه
 ودعة لا يرون لنظم غيره ، و زبرجأ لا يتفق لسواه ، فكيف يعرف فضل
 ماسواه عليه ؟ فلهذا ان الكلام في أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن
 قد تقدم ، واذا كنا قد بينا ان شعر امرئ القيس - وهو كبيرهم الذي يقرون
 بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأنعون به ، و امامهم الذي
 يرجعون اليه - كيف سبيله وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن ، وانه
 لا يخلط بشعر غير ذلك النظم ، وهو اذا لحظ ذلك كان كما قال :

فأصبحت من ليل الغداة كناظر مع الصبح في اعجاز نجم مغرب
 وكأ قال أيضا :

راحت مشرقة ورحلت مغربا ففى التقاء مشرق ومغرب
 واذا كنا قد أبنا في القاعدة ما علمت ، وفصلنا لك في شعره ما عرفت ،
 لم نحتاج الى أن تسلك على شعر شاعر ^(١) وكلام كل بليغ ، والقليل يدل على

(١) لعل العبارة ممكنة (على شعر كل شاعر) الخ

الكثير، وقد بينا في الجلة مبانة أسلوب نظم القرآن جميع الاساليب،
ومزيت عليها في النظم والترتيب، وتقدمه عليها في كل حكمة وبراعة، ثم
تكلّمنا على التفضيل^(١) على ما شهدت، ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال
ثم قول: أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحري في الصنعة به من الشغل
في تفضله على ابن الرومي أو تسوية ما بينهما مالا يطعم معه في تقديمه على امرئ
القيس ومن في طبعته، كذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاه،
وبقابل كلامه بكلام أضرا به من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير
والتفاوت القليل، فلما إن يظن ظان أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض
لنظم القرآن فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو نهوي به الريح في مكان
سحيق، وإنما هي خواطر يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض،
والفرض الذي يرمي اليه ويصح التوافق عليه في الجلة فهو قبيل متداول وجنس
متنازع، وشريعة موروثة، وطريقة مملوكة، ألا ترى إلى ما روى عن
الحسين بن الضحاك، قل: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها:

وشاطري اللسان تحتاق السكرية زان الجون بالفسك
كأنه - نصب كأسه - قرّ يكرع في بعض أنجم الفلك

قل: فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها:

أعذل أعتبت الإمام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأهربا
وقلت لساقيها^(٢) لجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
لجوزها حتى عقارا ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعا مطنبا
إذا عب فيها شارب القوم خلته يشبل في داج من الليل كوكبا

قل: فقلت له: يا أبا علي هذه مصالحة، فقال: أنظن أنه يرى لك معنى
وأنا حي؟ فتأمل هذا الاختراع وهذا الوضع وهذا الاتباع، أما الخليل فقد رأى

(١) في الخطبة (التمثيل) (٢) في الخطبة (الساقي)

الابداع في المعنى ، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنه ، لأن قوله « يكرع » ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت ، وفيه إحالة ، لأن الفعر لا يصح تصور أن يكرع في نجم ، وأما قول أبي نواس : « إذا عب فيها » فكلية قد قصد فيها المثانة وكان سبيله أن يختار موارها من ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح ، وقوله : « شارب القوم » فيه ضرب من التشكف الذي لا بد له منه أو من مثله لاقامة الوزن ، ثم قوله : « خلته يقبل في داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله ، وهي أن يشرب حيث لا ضره هناك ، وإنما يتقوله ليلا ، فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع والملاحاة . وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

ومفهمي نمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
نصبو الكئوس الى مراشفه ونحن في يده الى الحبس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل الخس
وكانها وكان شاربها قر يقبل عارض الشمس

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب ، إلا أنه تمكن من إبراده في بيتين وهما - مع سبقها الى المعنى - أنيا به في بيت واحد وإنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة يقع فيها التنافس والتعارض ، والاطماع متعلقة بها ، والهم تسوء اليها ، وهي ألف طباعنا وطوع مدار كنا ومحاسن الكلامنا ، وأعجاب قوم بذبح هذا وما يجري مجراه ، وإيثار أقوام لشعر البحتري على أبي تمام وعبد الصمد وابن الرومي ، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه ، وذهاب قوم عن المعرفة ، ليس بأمر يضربنا ، ولا يجب بعرض على افهامنا

ونحن نعد الى بعض فصائد البحتري فنشكركم عليها كما تشكلمنا على

قصيدة امرئ القيس ، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة ، ويستخلص من سر المعرفة سريرة ، ويعلم كيف تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقاربة ، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره .

سمعت صاحب اسماعيل بن عباد يقول : سمعت أبا الفضل بن العميد يقول : سمعت أبا مسلم الرستمي يقول : سمعت البحتري يذكر أن أجود شعره قاله :

أهلاً بذلك الخيال المقبل

قل : وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول : أجود شعره هو قوله في الشيب : زجر له لو كان يترجر

قال : وسئلت عن ذلك فقلت : البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا ، قوله :

أهلاً بذلك الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل
برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل
البيت الأول ، في قوله « ذلك الخيال » نقل روح وتطويل وحشو ، وغيره أصلح له . وأخف منه قول الصنوبري :

أهلاً بذلك الزور من زور شمس بدت في فلك الدور
وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير إلى الكرازة ونعود ملاحظته بذلك ملحوظة ، وفصاحته عيباً ، وبراعته تكلفاً ، وسلاسته تصفاً وملاسته تلويهاً وتعقداً ، فهذا فصل . وفيه شيء آخر ، وهو أن هذا الخطاب إنما يستقيم معها خوطب به الخيال حال إقباله ، فأما أن يحكى الحال التي كانت وسلفت على هذه العبادة ففيه عهدة ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عهدة ، وهو - لبراعته وحذقه في هذه الصنعة - يعاقب نحو هذا الكلام ولا ينظر في عواقبه ، الآن ملاحظة قوله تفتى على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور . ثم قوله :

« فعل الذي نهواه أو لم يفعل » ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ، وإن كانت كسائر الكلام . فأما بيته الثاني فهو عظيم الموقع في البحجة ، ويديع المأخذ حسن الرواء ، أنيق المنظر والمسمع ، يملأ القلب والفهم ، ويفرح الخاطر ، وترى بشاشته في العروق . وكان البحرني يسمي نحو هذه الآيات عروق الذهب ، وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة ، وحذقه في البلاغة : ومع هذا كله فيه ما فشرحه من الخلل ، مع الديباجة الحسنة والرونق المليح ، وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لاشراقه في مسراه كما يقال أنه يسري كنسيم الصبا فيطيطب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينور ما مر به وهذا غلو في الصناعة إلا أن ذكره بطن وجرة حشو ، وفي ذكره خلل ، لأن الثور القليل يؤثر في بطون الأرض وما اطمان منها ، بخلاف ما يؤثر في غيرها ، فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك بطن وجرة ، وتحديد المكان على الحشو أحد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط الأوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ، لم يقع يذكر حد حتى حده بأربعة حدود ، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى - أن أحل بمحمد - أن يكون بيعه فاسداً أو شرطه باطلاً ، فهذا باب . ثم انما يذكر الخيال بخفاء الاثر ودقة المطالب ولطف المسلك ، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه اصل الباب . ولا يجوز أن بقدر مقدر أن البحرني قطع الكلام الاول وابتدأ بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة ، لأن هذا القطع ان كان فعله كان خارجاً به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعاً ، ثم كان لا تكون فيه فائدة ، لأن كل برق شمل وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام ، وكان لا يكون بما نظمه مقيداً ولا متقدماً ، وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود ، ومعنى مستحب غير مقصود ، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات ، وتعليق القول بالاشارات ، وهذا من الشعر الجفلس الذي يحلو لفظه وتتل فوائده .

كقول القائل :

ولما قضينا من معنى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهارى وحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائج^(١)
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الابلح
هذه الفاظ بعيدة المطالع والمقاطع، حلوة الهجائي والمواقع، قليلة المعاني
والفوائد. فأما قول البحرى بعد ذلك :

من عادة منعت ونعم نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل
كالبدر غير مخيل والفصن غير مميل والدعص غير مهيل
فالبيت الاول - على ما تكلف فيه من المطابقة، ونجشم الصنعة - الفاظه
أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وضع العبارات
في مثله، ولو قل هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام
وتحويله، ثم هو معنى متداول مكرور على كل لسان. وأما البيت الثاني، فأتت
تعل أن التشبيه بالبدر والفصن والدعص أمر منقول متداول، ولا فضيلة في
التشبيه بخود ذلك، وإنما يبقى تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا أيضا
قريب لأن المعنى مكرر، ويبنى له بعد ذلك شيء آخر وهو عمله فترصيع في
البيت كله، إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضرب من التكلف، لأن التشبيه
بالفصن كاف، فإذا زاد فقال كالفصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف
خطلا، وكان ذلك زيادة يستغنى عنها، وكذلك قوله « كاللعمص غير مهيل »
لأنه إذا انهل خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفا إليه، فلا يكون
لتفنيده معنى، وأما قوله :

ما الحسن عندك يا معاد بحسين فيما أتاها ولا الجمال بمجمل
عذل المشوق وان من سبها الهوى في حيث نجهله لجناح العذل
قوله - في البيت الاول - « عندك » حشو، وليس بواقع ولا بديع

(١) في غير هذا الكتاب : وشدت على نعم المطايا وحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائج

وفيه كلفة ، والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء ، وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنهما لم يحسن في تهيج وجده وتهيج قلبه ، وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب . وبيت كشاجم أسلم من هذا وأبعد من الخلل ، وهو قوله :

— بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجلال عليك وفقاً أجلي

وأما البيت الثاني فإن قوله « في حيث » حشا بقوله في كلامه ، ووقع ذلك مستكراً وحشياً نافراً عن طبعه ، جافياً في وضعه ، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن ، فهو بمحو حسنه ، ويأتي على جماله . ثم في المعنى شيء لأن الجلاج العذل لا يدل على هوى مجهول ، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعذل عليه ، فلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعاني ، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل ، فإن ذلك جعلهم الذلول ، وقولهم المكرر . وأما قوله :

ماذا عليك من انتظار متيم بل ما يضرك وقفة في منزل

ان سيل عى عن الجواب فلم يطق رجماً فكيف يكون ان لم يُسأل

لست أنكر حسن البيتين ، وفظيهما ورشاقتهما ولطفهما وما هما وجهان ، إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضرباً من الانقطاع ، لأنه لم يجر لمشافة العاذل ذكر ، وإنما جرى ذكر العذل على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم . ثم الذي ذكره من الانتظار - وإن كان مليحاً في اللفظ - فهو في المعنى متكلف ، لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمراً ، وإنما يقف تحسراً وتذلاً ونحيباً والشطر الأخير من البيت واقع والاول مستجلب ، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لأن وضع البيت يقتضي تقدم عذل على الوقوف ، ولم يحصل ذلك المذكوراً في شعره من قبل ، وأما البيت الثاني فإنه معلق بالاول لا يستقل إلا به ، وهم

يمسبون وقوف البيت على غيره ، ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصراع التام بنفسه - بحيث لا يقف على المصراع الآخر - أفضل وأنم وأحسن - وقوله : « فكيف يكون ان لم يسأل » مليح جداً ، ولا تستمر ملاحظة ما قبله عليه ، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه ، وفيه شيء آخر ، لانه لا يصلح أن يكون السؤال سبباً لان يعيا عن الجواب ، وظاهر القول يقتضيه . فأما قوله :

لا تكلفن له الدموع فإن لي دمعا ينم عليه ان لم يفضل

ولقد سكنت الى الصدود من التوى والشرى أرى عند طعم الخنظل

وكذلك طرفة حين أوجس ضربة في الرأس هلز عليه فصد الاكل

فالبيت الاول يخالف لما عليه مذهبه في طلب الاسعاد بالدموع ، والاصناف بالبكا . ويخالف لاول كلامه ، لانه يفيد مخاطبة المذلل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق . وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ ونصيحها دون ضبط المعاني وترتيبها ، ولذلك قال الله عز وجل « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم ، واللفظ كيف أطاعهم ، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم ، وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب ، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن ، فصار بهذا أبلغ خطابهم . ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفرق شعر شاعر أو كلام متكلم . وأما قوله : « والشرى أرى » فانه وإن كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهي كلمة ثقيلة على اللسان ، وهم يذمون نحو هذا ، كما عابوا على أبي تمام قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ومتى ^(١) ما لمته لمته وحدي
ذكر لي الصاحب بن عباد أنه جرى أبا الفضل بن العميد في محاسن

(١) الذي في كتب النماز (وإذا ما ك)

القصيدة حتى انتهى الى هذا البيت فذكر له أن قوله « أمدحه أمدحه » معيب
لثقله من جهة تدارك حروف الخلق ، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا
في هذه التكة فقلت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف . ثم أن قوله « عند
أكل الحنظل » ليس بحسن ولا واقع . وأما البيت الثالث فهو أجنى من كلامه
غريب في طباعه ، نافر من جملة شعراء ، وفيه كرازة ونجاجة وإن كان المعنى
صالحا ، فأما قوله :

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رخت منه على أغر محجل
كلهكل المبس إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيك

فالبيت الاول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من
الكلام ، وعامة خروجه نحو هذا ، وهو غير بارع في هذا الباب ، وهذا مفسوم
معيب منه ، لأن من كان صناعته الشعر ، وهو يأكل به ، و تافل عما يرفع
اليه في كل قصيدة ، واستهان بإحكامه ونحو يده مع تتبعه لأن يكون عامة ما
يصدر به اشعاره من التسيب عشرة أبيات وتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب
العبارات وتنقيح الالفاظ ونزويرها - كان ذلك أدخل في عيبه ، وأدل على
تقصيره أو قصوره ، وأنه لا يقع له الخروج منه ، وأما قوله : « وأغر في الزمن
البهيم محجل » فإن ذكر التحجيل في الممدوح قريب ، وليس بالجميل ، وقد
يمكن أن يقال أنه إذا قرن بالأغر حسن ، وجري مجراء ، وانخرط في سلكه ،
وأهوى الى مضيله ، ولم يشكر لمكانه من جواره ، فهذا عذر ، والممدوح عنه
أحسن . وإنما أراد أن يرد المعجز على الممدوح ويأتي بوجه التجنيس ، وفيه
شيء ، لأن ظاهر كلامه يوم أنه قد صار ممتطي الأغر الاول ورأى على عليه ، ولو
سلم من ذلك لم يكن فيه ما يثبت حدود الشعراء ، وأقوليل الناس ، فلما ذكر
الهيكل في البيت الثاني ورده عجز البيت عليه وخطه أنه قد ظفر بهذه اللفظة
وعمل شيئا حتى كرها فهي كلمة فيها ثقل ، ونحن نجد إذا أرادوا أن يصنعوا

نحو هذا قلوا : « ما هو الا صورة ، وما هو الا مثال ، وما هو الا ذمية وما هو الا ظنية » ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان ، وقد استدرك هو أيضا على نفسه قد كرر أنه تصورة في هيكل ، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل كان أولى وأجمل ، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب الزام على الشياطين لراعوا بها ، وأزعجوا بها ، وذلك من كلامهم وشبهه بصناعتهم . وأما قوله :

وفي الضلوع يشد عقد حزامه يوم اللقاء على ممع مخول

أخو اله للرُسَمَيْنِ بفارس وجدوده التَّيْمَيْنِ بؤكل

فيل المحزم مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع ، وقوله : « يشد عقد حزامه » داخل في التكلف والتعسف ، لا يقبل من مثله وان قيلناه من غير ، لانه يتبع اللفاظ وينقدها نقداً شديداً ، فها قال يشد حزامه ، أو يأتي بحشو آخر سوى العقد ، فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله « يوم اللقاء » حشو آخر لا يحتاج اليه ، وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من الفاظه ، لانها غير مجانسة لطباعه ، وفيها غلط ونفار ، وأما قوله :

بهوى كانهوى للمقاب وقد رأت صيدا وينفض انفضاض الأجل

متوجس برقيقتين كائما قربان من ورق عليه مؤصل

ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوما خلألق حشكوىة الاحول

البيت الاول صالح ، وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل ما لم يقولوه بل هو منقول ، وفي سرعة عبور الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها ، وقد يقولون : « يفوت الطرف ، ويسبق الريح ، ويجاري الوم ، ويكر النظر » ولولا أن الاتيان على محاسن ما قلوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض المكشاة لنقلت ^(١) لك جملة مما ذهبوا اليه في هذا المعنى ، فتشبع تعلم أنه لم

(١) كذا في المطبعة وهو الصواب . وفي المطبعة (نقلت)

يأت فيها بما يحل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد . على أن الهوى يذكر عند
 الانقضاء خاصة ، وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة ، إلا أن يشبه هذه
 في العدو بمقالة انقضاء البازي والعقاب ، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال
 طيراتها . وأما البيت الثاني فقوله إن الاذنين كأنهما من ورق موصل ، وإنما
 أراد بذلك حدتهما ، وسرعة حركتهما واحساسهما بالصوت كما يحس الورق
 بحفيف الريح ، وظاهر التشبيه غير واقع ، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى
 حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وإنما يجري مجرى المضمن ، وليس هذا البيت
 برائق اللفظ ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله متوجس برقيقتين فإن هذا القدر
 هو حسن . وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب
 الاستطراد ، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره ، وقطعة أبي تمام في نهاية
 الحسن في هذا المعنى . والذي وقع البحتري في هذا البيت عندي ليس بحيد في
 لفظ ولا معنى ، وهو بيت وحش جداً قد صار قذى في عين هذه القصيدة ،
 بل وغزا فيها ووبالا عليها ، قد كدس صفاءها وأذهب بهامها وماءها وطمس
 بظلمته سناها ، وما وجه مدح الفرس بأنه لا يخاف قذى من المياه إذا وردها ؟
 كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار في قوله :

ولا يشرب الماء إلا بدم

وإذا كان لهذا الباب مجانباً ، وعن هذا سمت بعيداً ، فهلا وصفها بمرّة
 الشرب كما وصفها المتنبي في قوله :

وصول إلى المستصعبات يتخيله فلو كان قرن الشمس ماء ، لأوردا

وهلا سلك فيه مسلك الفائل :

وإني للماء الذي شابه القذى إذا كثرت ورآده لعيوف

ثم قوله « ولو أوردته يوماً » حشو بارد ثم قوله « حدوديه الاحول » وحش

جدا ، فما أمقت هذا البيت وأبغضه ، وما أثقله وأسغفه ، وإنما غطى على عينه عيبه وزين له إirاده طبعه في الاستطراد ، وعلا طمع فيه على وجه لا يغض من بهجة كلامه ولا معنى الفاظه ، فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر ، فأما قوله : ذَنْبٌ كَأَسْحَابِ الرِّدَاءِ يَذُبُّ عَنْ مُعْرِفٍ وَعَرَفٍ كَالْقَنَاقِ الْمَسْبِلِ تنوهم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جيبه المتهلل فالبيت الاول وحش الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام ، وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه الى بعض ، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه ، وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء . فقد حذف الوصل غير منسق ولا مليح ، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله . ثم قوله : « كَأَسْحَابِ الرِّدَاءِ » قبيح في تحقيق التشبيه ، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة إلا على اضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء . وقوله : « يَذُبُّ عَنْ مُعْرِفٍ وَعَرَفٍ » ليس بحسن ولا صادق ، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس ، وهو قوله :

فوق الأرض ليس بأعزل

وأما قوله : « تنوهم الجوزاء في أرساغه » فهو تشبيه مليح وإسكناه لم يسبق إليه ولا انفرد به ، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الفرقة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الامور وتشبيه المجول لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها ، وأمر مليحة قد ذهبوا إليها ، وليس ذلك موضع كلامنا ، فتنبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك

واعلم انا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس لانه ذكر عشرين بيتاً في ذلك ، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يبدو ما تركناه أن يكون متوسطا الى حد لا يفوت طريقة الشعراء ولو تثبتت أقاويل الشعراء في وصف الخيل علمت أنه وإن جمع فأوعى وحشر فنادى فقيهم من سبقه في مبدائه ، ومنهم من ساواه في شأوه ، ومنهم من دأله

فالتبديل واحد ، والفسيح منشا كل ، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك انتف على ما قلت ، فتجاوزنا الى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة ، قال :

محمد بن علي الشرف الذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عل
وسحابة لولا تتابع مرثها فينا لراح المزن غير مبخل
والجود بمذله عليه حاتم مرقاً ولا جود لمن لم يُفضل
البيت الأول منقطع مما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني
وفصله بينها وقلة تأنيه لتجويد الخروج والوصل ، ذلك نقصان في الصناعة
وتخالف في البراعة ، وهذا اذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها ، وأما اذا كان بناء
الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له . وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء
مما سبق اليه ، وهو شيء مشترك فيه ، وقد قالوا في نحوه : ان مجده صباه السماء
وقالوا في نحوه الكنيز الذي يصعب نقل جميعه ، وكما قال المتنبي :

وعزومة مثتها همة زحل من تحتها يمكن الترب من زحل
وحدثني اسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل ثم قال
لن حضرة : أنتدري من هذا ؟ هو الذي قال في أبيه البحتري : محمد بن
القاسم الشرف الذي ، فذلك يدل على استعظامه البيت (١) بما مدح به من
البيت . والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب ، وهو حديث مكرر
ليس بملك مدح شاعر منه ، وكان من سبيله أن يمدح فيه زيادة ابداع كما قد
يقع لهم في نحو هذا ، ولسكنه لم يتصنع له وأرسله أرسالا ، وقد وقع في
المصراع الثاني ضرب من الخلل ، وذلك ان المزن انما يبخل اذا منع نيله ، فذلك
موجود في كل نيل ممنوح ، وكلاهما محمود مع الاسعاف ، فان أسعف أحدهما
ومنع الآخر لم يمكن التشبيه ، وان كان انما شبه غالب أحدهما بالآخر ، وذكر
قصود أحدهما عن صاحبه حتى أنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال ،

فهذا جيد ، وليس في حمل الالفاظ على الاشارة الى هذا شيء ، والبيت الثالث وان كان معناه مكرراً لفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه الالفاظ المبتدئين ، وأما قوله :

فضل وافضل وما أخذ المدي بعد المدي كالفاضل المنفضل
سار اذا ادخل العفاة الى المدي لا يصنع المعروف غير معجل
فالبيت الاول منقطع عما قبله وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس
بيدع لتكرره على كل لسان ، وقوله : « ما أخذ المدي » فانه لفظ ملبع ، وهو
كقول القائل :

قد أركب الآلة بعد الآلة

وروي : الحالة بعد الحالة . وكقول امرئ القيس :

صو حجاب الماء حالاً على حال

واسكنها طريقة مذلة فهو فيها تابع . وأما البيت الثاني فمقرب في اللفظ
والمعنى ، وقوله : « لا يصنع المعروف » ليس بلفظ محمود . وأما قوله :
عال على نظر الحود كأنما جذبتهم أفراد النجوم بأحبل
أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول
فالبيت الاول منكر جعلاً في جر للنجوم بالارسان موضعه الى العلو
والتكلف فيه واقم ، والبيت الثاني أجنبي عنه ، بعيد منه ، وافتاحه رديء
وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانه والتوقيف ؟ والبيتان أجنبيان من
كلامه ، غريبان في قصيدته ، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد ،
ألا ترى أنه قال بعد ذلك :

نفسى فداؤك يا محمد من فنى يوفى على ظلم الخطوب فتنجلي
انى أريد أبا سعيد ، والعدى يعني وبين صحابه المتهايل
كان هذا ليس من طبعه ولا من سبكه ، وقوله :

مضر الجزيرة كلها وريبعة الـ مخابور توعدني وأزدد الموصول
 قد جدت بالطرف الجواد فتنه لأخيك من أدد أيك بمنصل
 البيت الأول حسن المعنى وإن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه
 التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إبراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق
 منه، كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
 والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلفظ،
 وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه : « فتنه لأخيك من أدد أيك » ومن أخذه
 بهذا التمرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره. وأما قوله
 بعد ذلك في وصف السيف : يقول :

يقاوم الروح البعيد منهاها عفا وبفتح في القضاء المقتل
 بآبنة في كل حنف مظلم وهداية في كل نفس مجهل
 ماض وإن لم يفض يد فارس بطل ومصقول وإن لم يصقل
 ليس لفظ البيت الأول بمضاد لبداحة شعره، ولا له بهجة نظمه، لظهور
 أمر التكلف عليه، وتبين ثقل فيه، وأما القضاء المقتل وفتحته فكلام غير
 محمود ولا مرضي، واستعارة لو لم يسترها كانت أولى به، وهلا عيب عليه
 كما عيب على أبي تمام قوله :

فضربت الششاء في أخدعيه ضربة فادوته عودا ركوبا
 وقالوا يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه، وقد اتبعه البحتري
 في استعارة الأخدع ولوعا باتباعه فقال في الفتح :

وإني وقد بلغتني الشرف العلا وأهنت من كل المظالم أخدعي
 إن شيطانه حيث زين له هذه الكلمة كآبده حين حسن عنده هذه اللفظة
 غلبت ما رد وردى معانده، أراد أن يطلق أخته الذم فيه، ويسرح جيوش

العتب اليه ، ولم يفتح بفعل القضاء حتى جعل للحنف ظلة تجلي بالسيف ،
وجعل السيف هاديا في النفس المجهل الذي لا يهتدي اليه ، وليس في هذا مع
تحسين اللفظ وتوبيخه شيء لأن السلاح وإن كان مهيأ فانه يهتدي الى النفس ،
وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله :

كأن الهام في الميعا عيون وقد طبعت سيوفك من ردة
وقد صغت الاسنة من هوم فما يخطرُ إلا في الفؤاد

فالاكتفاء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن . وفي البيت الاول شيء
آخر ، وذلك أن قوله : « ويفتح في القضاء » في هذا الموضع حشو رديء
يلحق بصاحبه الشكنة ، ويلزمه المعجزة . وأما البيت الثالث فانه أصلح هذه
الآيات وإن كان ذكر الفارس حشوا وتكلفا وفوا لأن هذا لا يتغير بالفارس
والراجل ، على أنه ليس فيه بديع . وأما قوله :

يفشى الوغى والترس ليس بجدة من حده والدرع ليس بمغل
مصغ الى حكم الردي فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يعدل
متوقد يبري بأول خربة ما أدركت ولو أنها في يندل

البيتان الاولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه وهي طريقة الذي
يحتجها ، وذلك من السبك الكتابي والكلام المعتدل ، إلا أنه لم يبدع فيها
شيء ، وقد زيد عليه فيها ، ومن قصد الى أن يكمل عشرة أبيات في وصف
السيف فليس من حكمة أن يأتي بأشياء متقولة وأمور مذكورة ، ومبيله أن
يقرب ويبعد كما أبدع المتنبي في قوله :

سنة الرقص بعد ومن ينجده فتصدي الغيث أهل الحجاز
هذا في باب صفاته وأضوائه وكثرة مائه ، وكفوله :
ريان لو قذف الذي أسبغته لجرى من المهبات بحر مزبد

وقوله : « مصغ الى حكم الردى » ان تأملته مقلوب ، كان ينبغي أن يقول : يصغى الردى الى حكمه ، كما قال الآخر :

فالسيف يأمر والاقدار تنتظر

وقوله : « واذا قضى لم يعدل » متكرر على ألسنتهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى ، والبيت الثالث سليم وهو كالاولين في خلوه عن البديع ، فاما قوله :

فإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

وكأنما سود النبال وجرها دبت بأيد في قراء وأرجل

البيت الأول يفصد به صنعة اللفظ ، وهو في المعنى متفاوت ، لأن المضرب قد لا يكون مقتلاً ، وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبي وأنه بضده :

يقتل السيف في جسم القتيل به والسيوف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمسحون بها في قصف الرمح طعنا وتقطيع السيف

ضرباً . وفي قوله : « وإذا أصيب فما له من مقتل » تعسف لأنه يريد بذلك أنه لا يتكسر ، فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه يتضمن التشكف وضرباً من الخيال ، وليس بالنادر ، والذي عليه الجلة ما حكيناه عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان :

يقصف في القارص السهمي وصدر الخيام فربما فربما

والبيت الثاني أيضاً هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء ، وأما تصنيعه بسود النبال وجرها فليس بشيء ، ولعله أراد بالجر الذر ، والتفصيل بارد ، والاعراب به منكر ، وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الغيا بجذا . رأسي على سواء ، أو منحرفاً قدر شبر أو نصف شبر أو اصبع أو ما يقارب ذلك فقيل له : هذا من الورع الذي يبعثه الله ، وبقته الناس ، ورب زيادة كانت

نقصانا ، وصفة النمل بالسواد والحرة في هذا من ذلك المجلس وعليه خرج بقية البيت في قوله :

دبت بأيد في قرانه وأر جل

وكان يكفي ذكر الار جل عن ذكر الايدي . ووصف القرند بجذب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم ، وأما قوله :

وكان شاهره اذا استضوى به الزحفان يعصى بالسماك الاعزل

جئت حمائله القديمة بقلة من عهد عاد غضة لم تذبل

البيت الاول منهما فيه ضرب من التكاف ، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم ، وإنما ^(١) يقول : « قر يشد على الرجال بكوكب » فجعل ذلك السكوكب السماك ، واحتاج الى أن يجعله أعزل للغافية ولو لم يحتاج الى ذلك كان خيرا له ، لأن هذه الصفة في هذا الموضع تغضه من الموضع وموضع التكاف الذي ادعيناه الحشو الذي ذكره من قوله : « اذا استضوى به الزحفان » وكان يكفي أن يقول : كان صاحبه يعصى بالسماك ، وهذا وإن كان قد عمل فيه للفظ فهو لغو على ما بينا ، وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله : « حمائله قديمة » ولا فضيلة له في ذلك ، ثم تشبيه السيف بالبقة من تشبيهات العامة والكلام الرذل للتذل ، لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن . ثم انظر الى هذا المقطع الذي هو بالعمى أشبه منه بالفصاحة ، والى اللكنة أقرب منه الى البراعة ، وقد بينا أن مراعاة الفوائد والمطام والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بد منه ، وإن الاخلال بذلك يخل بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ، ويأخذ مائه ويهائه .

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرت ، لأن هذا القليل قبيل

(١) كنا بالاصابين . ولعل البارز (وانما اراد ان يقول)

موضوع متعمل مصنوع ، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة
ثم يتعمل الالفاظ ، ولا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها ، ولا يتأمل مطارحها . وقد
يقصد تارة إلى تحقيق الأغراض ، وتصوير المعاني التي في النفوس ، ولكنه
يلحق بأصل بابه ، ويعمل بك إلى موضعه ، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها
التفاضل . وإن أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء
قد تصرفوا في ذلك بما يقع اليك . إن كنت من أهل الصنعة مما يطول على فقهه
وكذلك في السيف . وذكر لي بعض أهل الادب أن أحسن قطعة في السيف
قول أبي الهول الحيري :

حاز صِصامة الزبيدي من بين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان - فيها ممنا - خير ما أطبقت عليه الجفون
أخضر اللون بين برديه حد من دُعاغ تيس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت له الدعاغ الفيون
فإذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكده تقيين
يستطير الإبصار كالقيس المشعل لا تستقيم فيه العيون
وكان الفرند والزوق الجا ري في صحفته ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهير جاء يعصى به ونعم القرين
ما يبالي إذا انتحاه بضرب اشمال سطت به أم عين
وأما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقة ومن أهل عصره
ومن هو في مضماره أو في منزله . ومعرفة أجناس الكلام والوقوف على أسراره
والوقوف على مقداره شيء . وإن كان عزيزاً وأمر وإن كان بعيداً فهو سهل على
أهل مستحجب لأصحابه مطيع لأربابه ينفدون الحروف ويعرفون الصروف وأما
تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحتري وأبي تمام وابن الرومي وغيره . ونحن

وان كنا نفضل البحرى بدبياجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه
وقدحه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله ، والشعر
قبيل ملتبس مستدرك وأمر ممكن منطبع وانظم القرآن على أن يعلق به
الوهم أو يسو إليه الفكر أو يطعم فيه طامع أو يطلبه طالب ، لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وكنيت قد ذكرت لك قبل هذا
أنك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف
على ما ذكرنا والنفاذ فيها وصفنا والا فاجلس في مجلس المذايدين وارض بمواقف
المتحيرين ونصحت لك حيث قلت النظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن
الجوهر وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور
ومقدماتها وهل يقطع سمك البلاد من غير اعتدائه فيها ولكل شيء طريق يتوصل
إليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة
بجميع ما وصفت لك وانغمض وأدق وألطف . وتصوير ما في النفس وتشكيل ما
في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يتم بالاشارة ويحصل بالدلالة
والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الغصيح فللاشارات أيضا مراتب
والسان منازل ورب وصف بصورة الموصوف كما هو على جهته لا خلاف فيه ،
ورب وصف برؤ عليه ويتعداه ، ورب وصف يقصر عنه . ثم اذا صدق
الوصف انقسم الى صحف اثنان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء
وتقريب والى غير ذلك من الوجوه . وكل مذهب وطريق له باب وسبيل :
فوصف الجلة الواقعة كقوله تعالى (١٨ : ١٨) « لو اطلعت عليهم لوليت منهم
فراراً ولملت منهم دعياً » والتفسير كقوله (١٨ : ٤٧) « ويوم نسير الجبال ونرى
الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » الى آخر الآيات في هذا
المعنى وكنحو قوله (٢٢ : ١ - ٢) « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء »

عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكَّاراً وما هم بسُكَّارٌ ولكن عذاب الله شديد وهذا مما يصور الشيء على جهته ويمثل أهوال ذلك اليوم . ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفه كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا ٢٦ : ٥٠ - ٥١ قالوا لاضرب انا الى ربنا منقلبون انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين » وقال في موضع آخر (٧ : ١٢٥ - ١٢٦) » انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا ان آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » وهذا يعني عن كلام الحزين لما ناله ، الجازع لما مره ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى (٣٦ : ٨٢) » إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وقوله ٢ : ٦٥ » قلنا لهم كنوا قردة خاشعين » وكقوله (٢٦ : ٦٣) » فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم » . وتخصي أقسام ذلك مما يطول ، ولم أقصد استيفاء ذلك وإنما ضربت لك النمل بما ذكرت لتستدل واشتد اليك بما اشتد لتأمل

وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحري لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من في عصره ، ومنهم من يدعى له الاعجاز غلوا ، ويزعّم أنه يناغي النجم في قوله علوا . والمقدمة تستظهر بشعره ، وتكثر بقوله وتدعى كلامه من شبيهاهم ، وعباراته مضافا الى ما عندهم من ترهاتهم ، فبقيا قدر درجته وموضع رتبته وحد كلامه ، وهيات أن يكون المطبوع فيه كالأبوس منه ، وإن يكون الليل كالنهار ، والباطل كالخلق ، وكلام رب العالمين ككلام البشر

فإن قل قائل : فقد قدح الملحد في نظم القرآن ، وأدعى عليه الخلل في البيان ، وأضاف إليه الخطأ في المعنى واللفظ وقال ما قال فهل من فصل ؟

قبل الكلام على مطاوع الملحدة في القرآن مما قد سبقنا اليه، ومنصف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه في التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافياً. وإن سهل الله لنا ما نؤيدنا من إملأ معاني القرآن ذكرنا في ذلك ما يشبهه من الجنس الذي ذكره، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فأنما يتم على جهل القوم بالمعاني أو بطريفة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قل النبي ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». وقد قصدنا فيما ألبناه الاختصار ومهدنا الطريق، فمن كل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيننا، ومن تغذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والاحتفال، والحكم بين فضل زهير والنايفة، أو الفضل بين البحتري وأصحابه، ولم يعرف سخط مسيلة في نظمه ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه كشعر أبي العيس في جملة الشعر وشعر علي بن صلافة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بيننا.

فإن قال قائل فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر والأبلغ، قيل له هذا أيضاً خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الأدباء. ويحتاج أن يحدد لنحو هذا كتاب ويفرد له باب، وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل. وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمد في الفصاحة والنظم العجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيت بما قضيت به في القرآن دون غيره من الكلام، وإنما لم يصح هذا السؤال وما نذكر فيه من أشعار في نهاية الحسن وخطب ورمائل في غاية الفضل لانا قد بينا أن هذه الاجناس قد وقع

التزاع فيها ، والمساماة عليها ، والتنافس في طرقها ، والتنافس في بابها ، وكان
 اللبون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريباً والتفاوت خفيفاً وذلك
 للقدر من السبق ان ذهب عن الواحد لم يأس من الباقون ، ولم ينقطع الطمع
 في مثله وليس كذلك سميت القرآن لانه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته ،
 والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته ، وان السكل في المعجز عنه على حد واحد .
 وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الملاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه ،
 والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت نجد فوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه
 مميهاً ونطاق قوله ضيقاً حتى يستعين بكلام غيره ، ويخرج الى ما يوشح به كلامه
 من يوت سائر ومتصل نادر ، وحكمة مبهمة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة . وأما
 كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة ، فإذا أخرج الى تطويل
 الكلام خالياً عن شيء يستعين به . فيخلط بقوله من قول غيره . كان كلاماً
 ككلام غيره . فان أردت أن تحقق هذا فانظر في كتيبه في نظم القرآن وفي
 الرد على النصاري وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل تجد
 في ذلك كله ورقة نشتمل على نظم بديع او كلام مليح . على أن متأخري الكتاب
 قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه ففهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم
 من أبر عليه اذ باراه هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه
 فلم يقصر عنه وأمله قد بان تقدمه عليه لانه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفى فيها
 على حدود مذهبه ويكملها على شروط صمته ولا يقتصر على أن يأتي بالاسطر
 من نحو كلامه كما ترى الملاحظ يفعله في كتب متى ذكر من كلامه سطرأ أتبعه
 من كلام الناس أوراقاً ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً .
 وهذا يدل على أن الشيء اذا استحسن اتبع ، وإذا استملح قصد له وتعمد .
 وهذا الشيء يرجع الى الاختلاف والتنافس في التقدم . لو كان في مقدور

البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها ، وجواب لا حد لكثرتها ، لانهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه ، ثم الى قطع المحامين دونه عنه ، أو تنفيرهم عليه وادخال الشبهات على قلوبهم ، وكان القوم يكتفون بذلك من بدل النفوس ، ونصب الارواح والاعطار بالأموال والذرائع في وجه عداوته ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربته وطول منافسته ومجادلته . وهذا الذي عرضناه على قلبك يكفى ان هدبت لرشدك ، وبشفي ان دلت على قصدك ، ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد ، انه لا معرفة الا بهدائه ، ولا عصمة الا بكفايته ، وهو على ما يشاء قدير وحسيبنا الله ونعم الوكيل

فصل

فان قال قائل قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد معجزوا عن الاتيان بمثل القرآن وان كان من بعدهم من أهل الاعصار لم يعجزوا . قيل هذا سؤال معروف وقد أجيب عنه بوجوه منها ما هو صواب ومنها ما فيه خلل لان من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته في الاخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسألة ، لانا ذكرنا أن نظمه معجز لا يقدر عليه ، فاذا أجلب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده . والوجه أن يقال فيه طرق : منها انا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الاتيان بمثله فمن بعدهم أعجز ، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول بما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم وأحسن أحوالهم أن يقاربهم أو يساووهم فلما أن يتقدمهم أو يسبقوهم فلا . ومنها انا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار

كلمتنا بعجز أهل العصر الأول والطريق في العلم بكل واحد من الأمور
طريق واحد لأن التحدي في الكل على جهة واحدة ، والتناظر في الطباع على حد ،
والتكلف على منهاج لا يختلف ، وإليك قول الله تبارك وتعالى (١٧ : ٨٨) « قل
لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً »

فصل

﴿ في التحدي ﴾

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا
فيها أنها من دلائلهم وآياتهم لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة
ويؤيد بآية لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشيء
آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه فيستدل به على صدقه ، فإذا ذكر لهم أن
هذه آيتي وكانوا عاجزين عنها صبح له ما ادعاه ، ولو كانوا غير عاجزين عنها
لم يصح أن يكون برهاناً له ، وليس يكون ذلك معجزاً إلا بأن يتحداهم إلى أن
يأتوا بمثله فإذا تحداهم وبأن عاجزهم صار ذلك معجزاً

وأما الحقيق في باب القرآن إلى التحدي لأن من الناس من لا يعرف كونه
معجزاً فأنما يعرف أولاً اعجازه بطريقة ، لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره
بحروفه وصورته وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزاً ،
فإن كان لا يعرف بعضهم اعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل
به متى رأى أهل ذلك اللسان قد عاجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي إليه والتقرير
به والتكبر منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب المصى لعباناً
تختلف ما يفتكون . وأما من كان من أهل صنعة العربية والتقدم في البلاغة
ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فإنه يعرف - حين يسمعه - عجزه عن الاتيان

بمثله ويعرف أيضا أهل عصره من هو في طبخته أو يدانيه في صناعته عجزم عنه فلا يحتاج الى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يحز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي اليه وإذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي الى التحدي الى أقصاهم وحتى يعرف عجز مسيلة الكذاب عنه ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً . وهذا القول ان قيل أغش ما يكون من الخطأ ، فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة في معرفة اعجاز القرآن بانفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وخلق البحر بأن ذلك معجز . وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة يعرف بها كونه معجزاً فيساوي حينئذ أهل الصنعة فيكون استدلالهما في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواء اذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانه على صدقه ، فلما من قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي اليه فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وموسى عليها السلام ليست بآيات حتى يقع التحدي اليها والحض عليها ثم يقع المعجز عنها فيعلم حينئذ انها معجزات وقد سلف من كلامنا في هذا الموضع ما يفي عن الاعادة . وبين ما ذكرناه في غير المبلغ ان الاعجمي الآن لا يعرف اعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الاعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهداً له لان من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولاً أن العرب عجزوا عنه وإنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة اليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه ويحتاج في النقل الى شروط وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً كذلك لا يصير معجزاً بأن يعلم العربي الذي ليس ببليغ انهم قد عجزوا عنه بأبلاغهم بل هو معجز في نفسه وإنما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه

فصل

﴿ في قدر المعجز من القرآن ﴾

الذي ذهب اليه عامة أصحابنا وهو قول أبي الحسن الأشعري في كتبه ان أقل ما يُعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها قال فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة وإن كانت سورة السكون فذلك معجز قال ولم يقدّم دليل على محزّم عن المعارضة في أقل من هذا المقدّر وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها فهي معجزة . وقد حكى عنهم نحو قولنا الا ان منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات الكثيرة وقد علمنا أنه تحداهم تحدياً الى السور كلها ولم يخص . ولم يأتوا بحديث مثله ، فلم أن جميع ذلك معجز وأما قوله عز وجل ٥٢ : ٥٤ « فليأتوا بحديث مثله » فلم يخالف لهذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكده ما ذهب اليه أصحابنا ويؤيده وإن كان قد يتناول قوله فليأتوا بحديث مثله على أن يكون راجعاً الى القبيل دون التفصيل وكذلك يحمل قوله تعالى ١٧ : ٨٨ « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » على القبيل لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الاتيان بجميعه من أوله الى آخره .

فإن قيل : هل تعرفون اعجاز السور القصار بما تعرفون به اعجاز السور الطوال ، وهل تعرفون اعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به اعجاز سورة البقرة ونحوها . فالجواب ان أبا الحسن الأشعري رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بمعجز

للعرب عنها . وصحمت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول ان ذلك يصح
أن يكون علم ذلك توقيفا . والطريقة الاولى أسد وليس هذا الذي ذكرناه أخيرا
بغلاف له لأنه لا يمتنع ان يعلم اعجازه بطرق مختلفة تتوافق عليه وتجتمع فيه
واعلم ان تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة لأن الطريقة الاولى
تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزاً موجود في كل سورة صغرت أو
كبرت فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً . والطريقة الاخيرة تتضمن
تعلم معرفة اعجاز القرآن بالطريقة التي سلكتها في بناء من التفصيل الذي
بينما قمنا به في الكلام النصيحة وتبين فيه البلاغة حتى يعلم ذلك بوجه
آخر فيستوي في هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلم معجزاً حتى يستدل به من
وجه آخر سوى ما يعلمه البلاء من التقدم في الصنعة وهذا غير ممتنع ، ألا ترى
أن الاعجاز في بعض السور والآيات أظهر وفي بعضها غرض ، وقد لا يحتاج
في النظر في حال بعضها الى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى تبين له الاعجاز ويقرر
في بعضها الى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل الى المطلب
ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور فيحتاج أن يزرع فيه الى اجماع
أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قطبة عنه فان ادعى ملحد أو زعم زنديق
أنه لا يقع العجز عن الاثبات بمثل السور القصار أو الآيات بهذا المقدار قلنا
له ان الاعجاز قد حصل بما بيناه وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه ثم
فيه شيء آخر وهو ان هذا سؤال لا يستقيم للملحد لانه يزعم أنه ليس في
القرآن كله اعجاز فكيف يجوز ان يدخره على تفصيله واذا ثبت لنا مع اعجازه
في السور الطوال قامت الحجة عليه وثبت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة
الأدلة والمعجزات . ونحن قلنا أن اعجاز البعض بما بيناه والبعض الآخر بأنه

إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا، لأننا عرفنا في البعض الاعجاز بما
بينما ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك وليس بممتنع اختلاف حال الكلام
حتى يكون الاعجاز على بعضه أظهر وفي بعضه أغمض ومن آمن ببعض دون
بعض كان مذموماً على ما قال الله تعالى ٢: ٨٥ «أنتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون
ببعض» وقال ١٧: ٨٢ «ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»
فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع وإن كفا
نقول أنه يدل على أن الشفاء في جميعه

واعلم أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة
«بقيمة» ويسمون البيت الواحد «بذبا»، سمعت اسماعيل بن عباد يقول
سمعت أبا بكر بن قيس يقول سمعت نعلباً يقول سمعت الغراء يقول:
للعرب تسمى البيت الواحد بقباً، وكذلك يقال الدرّة القيمة لأفرادها
فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي تبة وإلى العشرة تسمى قطعة وإذا بلغ العشرين
استحق أن يسمى قصيداً وذلك مأخوذ من اللغ للقصيد وهو المتراكم بعضه على
بعض وهو ضد الرار ومثله الرئيد. انتهت الحكاية ثم استشهد بقول ليبيد:
فتذكرا ثقلاً رثيداً بعد ما ألفت ذكاه يمينها في كافر

يريد بيض النعام لأنّه ينضد بعضه على بعض. وكذلك يقع في الكلام البيت
الوحشي والنادر والمثل السائر والمعنى الغريب والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه
فيتفق له ويصادفه قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريتة في ذلك: إن هذا مما
لا سبب له بمحضه وإنما سببه القرارة في أصل الصنعة والتقدم في عيون المعرفة،
فاذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب وما يشذ عن تفصيل
الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز فإن ذلك صحيح

فصل

﴿ في أنه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة ﴾

ذهب ابو الحسن الاشعري الى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم باستدلال وهذا المذهب يحكى عن المخالفين . والذي نقوله في هذا أن الاعجبي لا يمكنه أن يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بايقنا . فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وخرائب الصنعة فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الاثبات بعينه ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه ، كما أنه إذا علم الواحد منها أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالا

فصل

﴿ فيما يتعلق به الاعجاز ﴾

ان قال قائل ينفوا لما في الذي وقع التحدي اليه ، أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك . قبل الذي نحدد به أن يأتي بمثل الحروف التي هي نظم القرآن ، منظومة كنظامها ، متتابعة كتنابها ، مطردة كاطرادها ولم يتحدد الى أن يأتي بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له ، وان كان كذلك فالتحدي واقع الى أن يأتي بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها ، وهي حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبي ﷺ . ولا

يجب أن يقدر مقدر أو يظن ظان أننا حين قلنا ان القرآن معجز فانه يتحدث
الى أن يأتوا بمثله أو دنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القام
بالذات . وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزاً لكونه عبارة عن الكلام
القديم ، لان التوراة والانجيل عبارة عن الكلام القديم . وليس ذلك بمعجز
في النظم والتأليف ، وكذلك مادون الآية - كالقطفة - عبارة عن كلامه
وايست ينفرد بها بمعجزة ، وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحدثهم الى مثل
كلامه القديم القام بنفسه ، والذي عول عليه مشايخنا ما قدما ذكره ، وعلى
ذلك اكثر مذاهب الناس ، ولم يجب أن يفسر وقد كرم موجب هذا المذهب
الذي حكيمناه وما يتصل به لانه خارج عن غرض كتابنا لان الاعجاز وقع
في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه ، والى مثل هذا النظم
وقع التحدي ، فبيناً وجه ذلك وكيفية ما يتصور القول فيه ، وأزلنا توهم من
يتوهم أن الكلام القديم حروف منقوطة أو حروف غير منقوطة ، أو شيء
مؤلف أو غير ذلك مما يصح أن يتوهم على ما سبق من اطلاق القول فيما مضى

فصل

﴿ في وصف وجوه من البلاغة ﴾

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام :
الابحاز ، والنشيب ، والاستعارة ، والتلازم ، والغواصل ، والتجانس ،
والقصيف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ؛ فاما الابحاز فاما يحسن
مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى ، فبأن يبالغ في اللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة ،
وذلك ينقسم الى حذف وقصر والحذف الاسقاط للتخفيف كقوله (١٢ : ٨٢)

« واسأل القرية » وقوله (٤٧ : ٢٦) : « طاعة وقول معروف » وحذف
الجواب كقوله (١٣ : ٣١) : « ونو أن قرآنا سُبرت به الجبال أو قطعت
به الأرض أو كلم به الموتي » كأنه قيل لكان هذا القرآن . والحذف أبلغ من
الذكر لأن النفس تذهب كل مذهب في الفصد من الجواب . والابحاز بالقصور
كقوله (٢ : ١٧٨) : « ولستم في القصاص حياة » وقوله (٦٣ : ٤) :
« يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » وقوله (١٠ : ٢٣) : « انما يفتكم
على أنفسكم » (٣٥ : ٤٣) « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » . واطناب
فيه بلاغة ، أما التطويل ففيه عي . وأما التشبيه بالمقد على أن أحد
الشبهين يسد مسد الآخر في حسن أو عقل كقوله (٢٤ : ٣٩) « والذين
كفروا أعمالهم كمراب يقيعة يحميه الظلمات ما حتى اذا جاءه لم يجد شيئا »
وقوله (١٤ : ١٨) : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به
الريح في يوم عاصف » وقوله (٧ : ١٧٦) : « واذا تلقنا الجبل فوقهم كأنه
ظلة » وقوله (١٠ : ٢٤) « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء
فالخيل به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الأرض
زخرفها وزاينت وطم أهلها أنهم قادرون عليها انماها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها
حصباً كان لم تكن بالأمس » وقوله (٥٤ : ١٩ و ٢٠) : « انما أرسلنا
عليهم دجاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعة »
وقوله (٥٥ : ٣٧) : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله :
(٥٧ : ٢٠) « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في
الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم
يكون حطاباً » وقوله (٥٧ : ٢٦) : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض »
وقوله (٨٢ : ٥) : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل

أسفارا « وقوله تعالى : (١٧٦ : ٧) « فتكاه كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث « وقوله (٦٩ : ٧) : « كأنهم أعجاز نخل خاوية « وقوله : (٢٩ : ٤١) : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت « وقوله (٥٥ : ٢٤) : « وله أنوار المنشآت في البحر كالاعلام « وقوله (٥٥ : ١٤) : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار « ونحو ذلك

ومن ذلك باب الاستعارة وهو بيان التشبيه كقوله تعالى (٢٥ : ٢٣) « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا « وكقوله (١٥ : ٩٤) « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين « وكقوله (٦٩ : ١١) « إنا لما ملئنا الماء حملناكم في الجارية « وقوله (٧ : ١٥٤) « ولما سكنت عن موسى الغضب « وكقوله (١٧ : ١٢) « فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة « وقوله (٢١ : ١٨) : « بل ننظف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق « قاله مع والنظف مستعار . وقوله (٣٩ : ٣٧) « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار « وقوله (٨ : ٧) « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم « وقوله (٤١ : ٥١) « فذودعاء عريض « وقوله (٤٧ : ٤) « حتى تضع الحرب أوزارها « وقوله (٨٩ : ١٨) « والصبح اذا تنفس « وقوله (٢ : ٢١٤) « مستهم البأساء والضراء « وقوله (٣ : ١٨٧) « فنبذوه وراء ظهورهم « وقوله (١٠ : ٢٤) « أنماها أمرنا ليل لا أرتها آ فجعلناها حصيدا « وقوله (٣١ : ١٥) « حصيدا خامدين « وقوله (٢٩ : ٢٢٥) : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون « وقوله (٣٣ : ٤٦) « وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا « وقوله (١٧ : ٢٩) « ولا نجعل يدك مغلولة إلى عنقك « وقوله (٣٢ : ٢١) « ولنفيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر « وقوله (١٨ : ١١)

« فضرينا على آذانهم » يريد ان لا احساس بآذانهم من غير صمم . وقوله
(٧ : ١٤٩) : « ولما سقط في أيديهم » وهذا أوقع من اللفظ الظاهر وأبلغ
من الكلام الموضوع

واما التلاؤم فهو تعديل الحروف في التأليف . وهو نقيض التنافر ؛
كقول الشاعر :

وقبر حرب بمسكان فخر وليس قرب قبر حرب قبر

قلوا هو من شهر الجن حروفه متنافرة لا يمكن انشاده الا بالتفتيح فيه .
والتلاؤم على ضربين : أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله :

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم

ريمم التي قالت لجارات بينها ضمنت لكم أن لا يزال جيم

الأدب يوم لورمتني رمينها ولكن عهدي بالنضال قديم

قلوا والمتلاؤم في الطبقة العليا القرآن كله وان كان بعض الناس أحسن
احساسا من بعض كما أن بعضهم يفتن للوزون بخلاف بعض . والتلاؤم أحسن
الكلام في السمع وسهوانه في اللفظ ووقع المعنى في القلب وذلك كالخلط الحسن
والبيان الشافي والمتنافر كالخلط القبيح فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان
وحسن البرهان في أعلى الطبقات ظهر الانحياز لمن كان جيد الطبع وبصيرا
بحودة الكلام كما يظهر له أعلى حايقة الشعر . والمتنافر ذهب التليل الى أنه من
بعد شديد أو قرب شديد ، فاذا بعد فهو كالظفر واذا قرب جدا كان بمنزلة مشي
التيقيد ويبين ذلك بقرب مخرج الحروف وتباعدها

واما الفواصل فهي حروف متشاككة في المقاطع يقع بها افهام المعاني .
وفيه بلاغة . والاسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى والفواصل تابعة للمعاني
والسجع كقول مسيلة . تم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على

حروف متقاربة ولا تحتل القوافي ما تحتل الفواصل لأنها ليست في الطيفة العليا في البلاغة لان الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن، وأما التجانس فانه بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد وهو على وجهين مزاوجة، ومناسبة، فالمزاوجة كقوله تعالى (٢: ١٩٤) «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وقوله (٥٤: ٣) «ومكروا ومكر الله» وكقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجاهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما المناسبة فهي كقوله تعالى (١٢٧: ٩) «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم» وقوله (٣٧: ٢٤) «يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والا بصار» وأما التصريف فهو تصريف الكلام في المعاني كتصريفه في الدلالات المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصرف في معنى مالك ومالك وذي الملكوت والمليك وفي معنى التملك والتملك والاملاك، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة كما ذكر من قصة موسى في مواضع

وأما التضمن فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه أو ذلك على وجهين تضمنين توجبه البنية كقولنا معلوم يوجب أنه لابد من عالم أو تضمنين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به كالصفة يضارب يدل على مضروب، والتضمن كنه الإيجاز، والتضمن الذي يدل عليه دلالات القياس أيضا إيجاز. وذكر ان بسم الله الرحمن الرحيم من باب التضمن لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى أو التبرك باسمه، وأما المبالغة فهي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه: منها مبالغة في الصفة المبينة لذلك، كقوله الرحمن عدل عن ذلك المبالغة، وكقوله غفار وكذلك فعال وفعل كقوله شكور وغفور، وفعل كقوله رحيم وقدير، ومن

ذلك أن يعالِم باللفظة التي هي صفة عامة كقوله (٣٩ : ٦٢) : « خالق كل شيء »
وكقوله (١٦ : ٢٦) : « فأتى الله ببيانهم من القواعد » وكقوله (٧ : ٤٠)
« ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » وكقوله (٣٤ : ٢٤)
« وإنا أو إياكم لمنى هدى أو في ضلال مبين » وقد يدخل فيه الحذف الذي
تقدم ذكره للبلاغة

وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام : كلام ، وحال ، وإشارة ،
وعلمة . ويقع التفاضل في البيان وذلك قل عز من قال (١ : ٤ - ١ : ٥٥) :
« الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وقيل أعيان من ياكل ، مستل
عن ظبية في يده بكم اشتراها فأراد أن يقول بأحد عشر فأشار بيديه ما
سابعة عشرة ثم أدخل لمساته وأفلت الظبي من يده
ثم البيان على مراتب قلنا قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ
أعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب
مما مضت أمثله في الشرع من الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه
التي عددناها في هذا الفصل ، وأعلم أن الذي بيناه قبل هذا وذهبنا إليه هو سديد
وهو أن هذه الأمور كتفسيرها ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ويترك بالتعلم
فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة أعجاز القرآن به وإنما مالا سبيل إليه بالتعلم
والتعمل من البلاغة فذلك هو الذي يدل على أعجازه ونحن نضرب لذلك أمثلة
لنصف على ما ذهبنا إليه ، وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه
نصف به البلاغة وذلك مسلم ، ولكن إن قلنا ما وقع من التشبيه في القرآن
معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار مالا يخفى عليك ، وأنت
تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تقع في هذا
المالم يتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء . وكذلك كثير من

وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره فإن كان إنما يعني هذا القائل أنه إذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه إلى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة ، فهذا مما لا تأباه بل نقول به وإنما نشكر أن يقول قائل إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام وينفصلي إليه مثل ما يقول : إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز وإن التشبيه معجز وإن التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة . وأما الآية التي فيها ذكر التشبيه فإن ادعى اعجازها لا لفاظها ونظمها وتأليفها فإني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا أدعي اعجازها لموضع التشبيه وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك إلى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه بمن وتلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان وذلك لا يختص بمذنب من المئين دون جنس ولذلك قل (١٣٨ : ٣) « هذا بيان للناس » وقال (٨٩ : ١٦) : « تبياناً لكل شيء » وقال (١٩٥ : ٢٦) « بلسان عربي مبين » فكرر في مواضع ذكره أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جعم وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهة حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسناً وبهجة ومناداة ورفعة . وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتأثير في النفوس ما يتوغل ويهيج ويقلق ويؤنس ويطمع ويؤنس ويضعف ويهيج ويهيج ويهيج ، ويسكن ويزعج ، ويشجي ويغرب ، ويهز الأعطاف ، ويستميل نحوه الاستماع ، ويورث الأريحية والعزة وقد يبعث على بذل المال لشجاعة وجوده وبري السامع من وراء رأيه مرمي بعيداً ، وله مسالك في النفوس

لطيفة ، ويدخل الى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب في نظمه ، وينزل في
موقعه ويجري على سميت مطلعته ومقطعه يكون عجيب تأثيراته ويدغم مقتضياته ،
وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارد . وقد ينفي الكلام عن
محل صاحبه ، ويدل على مكان متكلمه ، وينبه على عظيم شأن أهله ، وعلى
جلو محله . ألا ترى أن الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ،
واذا صدر عن متغول وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجنة ، وأخير
عن خبيثة في المرايعة . وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع
فيعلم وجه صدوره ويدل على كنهه وحقيقته . وقد يصدر عن المثبته ويخرج عن
المتصنع ، فيعرف من حاله ما ظن انه يخفيه ، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه ،
وأنت تجد لقول المتنبي :

فأنليل والليل والبيداء تعرفني والحرب والظعن والقرطاس والقلم
من الوقع في القلب - لما تعلم أنه من أهل الشجاعة - مالا تجده للبحرني
في قوله :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفني بمفرقس والمشرقية شهدي
وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره مالا تجده لغيره
لأنه اذا قل :

إذا شئت أوفرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار
وهم السماء الذقن حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
وقل :

قد تردت بالمكارم دهرأ وكفتني نفسي من الافتخار
ألا جيش اذا غزوت وحيداً ووحيد في الجحفل الجرار

وقال :

أبها للسائل عن الحسب الأوطى يب ما فوقه ظلفي مزيد
نحن آل الرسول والعنزة الحق وأهل القرى فما ذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات إميل سود
وكا أنشدنا الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز
قصيدته التي يقول فيها :

أنا ابن الذي سادهم في الحبا ة وسادهم بي نحت الثرى
ومالي في أحد مرغب بلى في مرغب كل الورى
وأسمو المعجذ والمكرما ت اذا كحلت أعين بالكرى
فانظر في القصيدة كلها ثم في جميع شعره تعلم أنه ملك الشعراء وأنه يلحق
به من الفخر خاصة ثم مما يتبعه مما يتعاطاه ما لا يلحق بغيره بل يفخر عن سواه .
ولم أحب أن أكثر عليك فاطول الكتاب بما يخرج عن غرضه ، وكان يرى
من قول أبي فراس الحمداني في نفسك اذا قل :

ولا أصبح الحمي الخلف بفاة ولا الجيش ما لم يأنه قبلي الفذر
ويارب دار لم تخفى منيع طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيل تحوي لقيتها فلم يلقها جاني الأقدار ولا وعر
وهبت لها ما حازها الجيش كله وأبت ولم يكشف لآياتها ستر
وما راح يظفني بأثوابه الغنى ولا بات يأنيني عن الكرم الفقر
وما حلجني في المال أبني وفوره اذا لم أفر وفري فلا وفر الوفير
والشيء اذا صدر من أهله ، وبدا من أصله ، وانفسب الى ذويه سلم في
نفسه ، وبانت نفاسته وشواهد أثر الاستحقاق فيه . واذا صدر من متكلف
وبدا من متصنع بان أثر القرابة عليه ، وظهرت مخايل الاستبحاش فيه ، وعرف

شمال التخيير منه

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة ، وتمكن البطالة ،
وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله من أمر المغازلة ووصف الحر والخمار كما
نعرف موقع كلام ذي الرمة في وصف المهامه والبهادي والجمال والانواع
والأزمنة وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطول والرباع والوحش فذكر
في قوله :

دع الأطلال تسقيها الجنوب	وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجفاء أرضا	تخب بها العجيبه والتعجب
بلاد نبتها عنبر وطلح	وأكثر صيدها ضيع وذئب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا	ولا عيشا فبيتهم جديب
دع الألبان يثربها رجال	رقوق العيش عندهم غريب
إذا راب الحليب قبل عليه	ولا تخرج فإني ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول	يطوف بكأسها صافي أديب
كان هدبرها في الدن بمكي	قراءة القوس قابله الصليب
أعاذل أقصيري عن طول لوى	فراجي توبى عندي يخيب
تعييب الذنوب ، وأي حر	من الفتيان ليس له ذنوب

وقوله :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لا ينفذ السكرم
وسمعت الصاحب اسماعيل ابن عباد يقول : سمعت براسكويه الزنجاني
يقول : أشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الاعشى :
ودع هريرة أن الركب مرتحل وهل نطيق وداعا أبها الرجل
وكان وصف فيها الطلل قال براسكويه : فقال لي هلال فقلت بديها :
إذا سمعت فني يبكي على طلل من أهل زنجان فاعلم أنه طلل

وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشيء في معديته أعز ، وفي مظانه أحسن ، وإلى أصله أنزع ، وبأسبابه اليق ، وهو يدل على ما صدر منه ، وينبئ ما انتج عنه ، ويكون قراره على موجب صورته ، وأنواره على حسب محله ، ولكل شيء حد ومذهب ، ولكل كلام سبيل ومنهج . وقد ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام مسيلة ما أخبرتك به ، فقال : ان هذا كلام لم يخرج من إله فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الالهية يتميز عما لم يكن كذلك . ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان ولو لم يكن فيه إلا ما من به الله على خلقه بقوله : (٥٥ : ٣ و ٤) « خلق الانسان علما » . فلما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه ، وأكمله وأعلاه ، وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى (٤٣ : ٥) « اقتضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين » في شدة التنبيه على تركهم الحق والاعراض عنه وموضع امتثاله بالذكر والتحذير . وقوله (٤٣ : ٣٩) « ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنفسكم في العذاب مشركون » وهذا بليغ في التحذير . وقوله (٦ : ٢٨) « ولورثوا ايمانوا لما هموا عنه » وهذا يدل على كونهم محبولين على الشر معادين لخالفه النهي والأمر . وقوله (٤٣ : ٦٧) « الا خلا يومئذ بعضهم لبعض عدوا الا المتقين » هو في نهاية الوضع من الخلقة الا على التقوى . وقوله (٣٩ : ٥٦) « ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » وهذا نهاية في التحذير من التفريط . وقوله (٤١ : ٤٠) « أفمن يلقى في النار خيرا أم من يأتي آتنا يوم القيامة اعملوا ما شاتم الله بما تعملون بصير » هو النهاية في الوعيد والتهديد . وقوله (٤٣ : ٤٤ - ٤٥) « وتري الظالمين لما برأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل » و تراهم يُعْرَضُونَ عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » نهاية في الوعيد . وقوله (٤٣ : ٧١) :

« وفيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون » نهاية في الترهيب .
 وقوله (٢٣ : ٩١) : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من الله إذا ذهب
 كل شيء ما خلق ولعل بعضهم على بعض » وكذلك قوله (٢١ : ٢٢) : « لو
 كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » نهاية في الحجاج . وقوله (٦٧ : ١٣٤ : ١٤٤)
 « وأمرنا بقولكم أو اجبروا به انه عليم بذات الصدور » ألا يعلم من خلق وهو
 اللطيف الخبير » نهاية في الدلالة على علمه بالظنيات . ولا وجه للتطويل فان بيان
 الجميع في الزفة وكبر المنزلة على سواء . وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن
 يتعلق به الاعجاز وهو معجز من القرآن وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة
 في اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لأن الوجوه التي ذكرها قد تنفق في كلام
 غيره وليس ذلك بمعجز بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه
 من اللفظ ينتمى الاعجاز . ونضمن المعاني أيضا قد يتعلق به الاعجاز اذا حصلت
 للمادة طريق البلاغة في أعلى درجاتها . وأما التواصل فقد بينا انه يصح أن
 يتعلق بها الاعجاز ، وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا وبيننا في تلازم
 الكلام ما سبق من صحة تعلق الاعجاز به . والتصرف في الاستعارة البديعة
 يصح أن يتعلق به الاعجاز كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام ، لأن البلاغة
 في كل واحد من البابين تجري مجرى واحدا وتأخذ مأخذاً مفردا

وأما الابتجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما اعجاز كما يتعلق بالحقائق .
 والاستعارة والبيان في كل واحد منهما مالا يضبط حده ولا يقدر قدره ، ولا
 يمكن التوصل الى ساحل بحرهما بالتعلم ، ولا يتطرق الى غوره بالنسب ، وكل
 ما يمكن تعلمه وينتهي تلفنه ويمكن تخليصه ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب
 وقوع الاعجاز به ، ولذلك قلنا أن السجع مما ليس يلتمس فيه الاعجاز لأن ذلك
 أمر محدود وسبيل موزود ، وفيه تدرب الانسان به واعتياده لم يستصعب عليه

أن يجعل جميع كلامه منه ، وكذلك التعجيب والتعظيم مني أخذنا حدهما وطلب وجههما استوفى ماشاء ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه ، كما أولع بذلك أبو تمام والبحراني ، وإن كان البحراني أشرف المطابق وأقل طلبا للمجانس

فإن قل قائل هلا قلت إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل إليها بالتعلم ولا تلك بالتعلم كما ذكرتم في البيان وغير ذلك ، قلنا لو عهد إلى كتاب الاجناس ونظر في كتاب العين لم يتعذر عليه التعجيب الكثير ، فاما الاطباق فهو أقرب منه وليس كذلك البيان والوجوه التي رأينا الاعجاز فيها لأنها لا تستوفي بالتعلم

فإن قيل : فالبيان قد يتعلم ، قيل إن الذي يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس وتنتهي فيه العادات وهو كما يعلم من مقادير القوى في حل التذليل وإن الناس يتفارقون في ذلك فيؤمنون فيه إلى حد فإذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطي ولم يقدروا على التهدي إلا أن يحصل ما يتفرق العادة ويتنقض العرف ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان ويتجاوز الوهم ويشد عن الصنعة ويقذفه الطبع في التذلل القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التي تنفق في ديوان شاعر ، والفقرة تنفق في لسان كاتب حتى يكون الشاعر ابن بيت أويشيين أو فطمة أو قطعتين ، والاديب شهيد كلمة أو كلمتين وذلك أمر قليل ولو كان كلامه كله يطرده على ذلك المسلك ويستمر على ذلك المنهج أمكن أن يدعى فيه الاعجاز ولكنك إن كنت من أهل الصنعة تعلم فلة الأبيات الشوارد والكلمات الغرائد وأمهات القلائد فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتهم مرضية لم تجد ذلك في الدورين ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين - ونحن لم نشكر أن يستمر لك البشر كلمة ثمينة ولفظة بديعة وإنما انكرنا أن يقدروا على

مثل نظم سورة أو نحوها وأحلنا أن يتمكنوا من حشد في البلاغة ومقدار في الخطابة، وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن وإن لم يكن له حكم الشعر. فاما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة طالت أو قصرت وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال مقدار كل سورة أو أطول آية هو معجز، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تقتبين بأقل من ذلك، فلذلك لم نحكم بإعجازها وما صح أن تقتبين فيه البلاغة ومحصولها الإبانة في الإبلague عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام، إذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغاً وبلغاً، فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات. وقد ذكرنا أنه يحسنه وأسلوبه مبادئ أسائر كلامهم ثم بما يقضون من تجاوزها في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر.

فان قيل: فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة نبين جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف ما لو طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد إلى ذلك سبيلاً. وله سبب في الجملة وهو التندم في الصناعة، لأنه يتفق من المتأخر فيها، فهلا قلتم إنه إذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وحمت تلك القطعة، وهلا قلتم إن القرآن من هذا الباب؟ فالجواب أنا لم نجد أحداً بلغ الحد الذي وصغتم في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا مخفولة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأنورة، وبلغاتهم مروية، وحكمهم مشهورة. وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وأثل،

ومثل شق وسطيح وغيرهم ، كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ، ولا خطابة خطيب ، ولا براعة شاعر مفلح ، ولا كتابة كاتب مدقق . فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة أو يشاكلة في الاعجاز مع ما وقع من التحدي إليه المدة الطويلة ، وتقدم من التفريع والمجازاة الأمد المديد ، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الأمر ، وعجز الكل عنه ووقفوا دونه حيارى يعرفون عجزهم وإن جهل قوم سببه ، ويعلمون نقصهم وإن أغفل قوم وجهه ، رأينا أنه ناقض لقاعدة ورأينا أنه خارق المعروف في الحيلة وأخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه اقالة البرهان على النبوات وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية إليه صادق فيما يدعيه من نبوته وبحق في قوله ومصيب في هديه ، قد سادت له الحجة البالغة والكلمة التامة والبرهان الثبر والدليل البين

فصل

﴿ في حقيقة المعجز ﴾

معنى قولنا أن القرآن معجز على أنصوانا أنه لا يقدر العباد عليه وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ لا يصح دخوله تحت قدرة العباد وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل معجزهم عن فعل الأجسام . فنحن لا نقدر على ذلك وإن لم يصح وصفنا بأفعا عاجزون عن ذلك حقيقة ، وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا . فلما لم يقدر عليه أحد شبه بما يعجز عنه العاجز ، وإنما لا يقدر العباد على الاتيان بمثله لأنه لو صح أن يقسروا عليه بطلت دلالة المعجز ، وقد أجرى العادة

أن يتعذر فعل ذلك منه وان لا يقدروا عليه ولو كان غير خارج عن العادة
 لأتوا بمثله وعرضوا عليه من كلام فصحاتهم وبلغتهم ما يبارضه. فلما لم يشتغلوا
 بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأما ليب نظامهم وزالت
 أطباعهم عنه. وقد كنا بينا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه
 النظم المستحسنة في الاوزان المطابقة للسمع ولا يحتاج في مثله الى توقيف وانه
 يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوا
 أنواع الاوزان والقوافي ثم وقفوا على حسن ذلك وقدروا عليه بتوفيق الله
 عز وجل وهو الذي جمع خواطرهم عليه وهداهم له وهياً ذرايعهم اليه ، ولما
 أقدمهم على حد محدود وغاية في العرف مضروبة ، علمه بان سيجعل القرآن
 معجزاً ، ودل على عظم شأنه بأنهم قدروا على ما بينا من التأليف وعلى ما وصفنا
 من النظم من غير توقيف ولا اقتضاء أثر ولا تحمة اليه ، لا تقريه ، فلو كان هذا
 من ذلك القليل أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه لم تزل أطباعهم عنه ، ولم
 يدعشوا عند وروده عليهم فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم في الوقت و كان يدعو
 اليه سنين كثيرة وقال عز من قائل (٣٥ : ٣٧) : « أو لم نمر كم ما يتذكر فيه
 من تذكري وجاءكم النذير » وبظهور المعجز عنه بعد طول التفرغ والتحمدي بان
 أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرون عليه . وقد ذكرنا أن العرب كانت
 تعرف ما يبين عاداتها من الكلام البليغ لان ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا
 الى تجربة عند سماع القرآن ، وهذا في اللفاء منهم دون المتأخرين في الصنعة
 والذي ذكرناه يدل على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن وكل من
 جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن
 القرآن معجز بحال ولو لم يكن جرى في العلوم أنه سيجعل القرآن معجزاً لكان
 يجوز أن تجري عادات الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما
 انضمته من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي فلا

يخرج من أن يكون متاولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبه صابقة تفدح في معجزته أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته واعجازه وهذا أشبه بسباق الكلام ونظامه . ثم قال (٤٤ : ٤١) : « ولو جمناه فرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » فالخير أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحشجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطيبهم أو كانوا يعتقدون بشهادتهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بخير ذلك من الأمور وأنه إذا نفعهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على ما نبينه في وجه هذا الفصل . إلى أن قال (٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينسب على غيرهما من السور وذكر هنا سرد القول فيها فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه بحججه كذلك . ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥١ و ٥٠) « رقلوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنا لنذير مبين . أولم يكفهم إذا أنزلنا عليك الكتاب بشئ عليهم » فالخير أن الكتاب آية من آياته ، وعلم من أهلها ، وإن ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواء من الأنبياء صلوات الله عليهم . ويدل عليه قوله عز وجل (٢٥ : ١) : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » وقوله (٤٧ : ٢٤) : « أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك ونعص الله الباطل ويحق الحق بكلماته » فدل على أنه جعل قلبه مستودعاً لروحيه ومستنزلاً لكتابه ، وأنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وإبطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشياء كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها ، فإن بهذا وبظواهر ما قلنا أن بناء نبوته

على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه
 أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى . وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة
 على الأنبياء لأنها لا تدل على أنفسهم إلا بأمر زائد عليهم بوصف منضاف إليها ،
 لأن نظمها ليس معجزاً وإن كان ما تضمنته من الأخبار عن الغائبات والغيوب
 معجزاً . وليس كذلك القرآن لأنه يشار إليها في هذه الدلالة ، وبزيد عليها في
 أن نظم معجز فيمكن أن يستدل به عليه . وحل في هذا من وجه محل صحاح
 الكلام من القديم سبحانه ، لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه في
 الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وإن اختلف الحال في
 ذلك عند البشر بقدر زائد على ما أفوه من البلاغة وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة
 وأما نظم القرآن فقد قل أصحابنا إن الله تعالى يقدر على نظم القرآن في
 الرتبة التي لا مزيد عليها ، وقال مخالفونا إن هذا غير ممكن لأن فيه من
 الكلمات الشريفة الجامعة للعاني البديعة وانضاف إلى ذلك حسن التوقيع فيجب
 أن يكون قد بلغ النهاية ، لأنه عديم وإن زاد على ما في العادة فإن الزائد عليها
 وإن تفاوت فلا بد من أن ينتهي إلى حد لا مزيد عليه . والذي نقول أنه لا يمكن
 أن يقال أنه يقدر الله تعالى على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله ، وأما
 قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه ، ما نصح قدرتهم عليه

فصل

﴿ في كلام النبي ﷺ وأمره تحصل بالاعجاز ﴾

إن قل قائل إذا كان النبي ﷺ أنصح العرب . وقد قل هذا في حديث
 مشهور وهو صادق في قوله . فهل قلتم إن القرآن من نظم أقدرته في الفصاحة على

مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل قد علمنا انه لم يتحدّم الى مثل قوله وفصاحته، والقدر
الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشعراء وكلام
الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الاحجاز. وقد بينا قبل هذا انا اذا وازنا
بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل
ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس، ولا معنى لقول من ادعى أن كلام
النبي ﷺ معجز وان كان دون القرآن في الاعجاز

فان قيل لولا ان كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين
وبين غيرهما من القرآن، وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن
أم لا؟ ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره. وعدد السور عندهم محفوظ
مضبوط، وقد يجوز أن يكون شذوذاً عن مصحفه لا لأنه نفاذ من القرآن بل عول
على حفظ الكل اياه على أن الذي يروونه خير واحد لا يسكن اليه في مثل هذا
ولا يعمل عليه ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت ثلاثاً يساء كما
يكتب الواحد منها بعض الادعية على ظهر مصحفه. وهذا نحو ما يذكره الجاهل
من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان راحة الله عليهما،
ونحن لانكر أن يخط في حروف ممدودة كما يخط الحافظ في حروف ونسي، وما
لا نحيزه على الحافظ مما لم نحزه عليه ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا
لكانت الصحابة تناخروا على ذلك و كان يظهر ويتشرف قد تناخروا في أقل من
هذا وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل فكيف يجوز أن يقع التخصيف فيه
وقد علمنا اجماعهم على ما جمعه في المصحف فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات
الثابة المولدة بالاجماع المتقرر والاتفاق المعروف ويجوز أن يكون النقل أشبه
عليه لانه خالف في النظم والترتيب فلم يثبتها في آخر القرآن والاختلاف
بينهم في موضع الاثبات غير الكلام في الاصل ألا ترى أنهم قد اختلفوا في

أول ما أنزل من القرآن فهم من قال قوله (٩٦ : ١) : « اقرأ باسم ربك »
ومنه من قال (٧٤ : ١) : « يا أيها المدثر » ومنهم من قال فاتحة الكتاب .
واختلفوا أيضا في آخر ما أنزل فقال ابن عباس : (١ : ١١٠) « إذا جاء نصر
الله » وقالت عائشة : سورة المائدة وقال البراء بن عازب : آخر ما أنزل سورة
براءة . وقال سعيد بن جبيرة آخر ما أنزل قوله تعالى (٢ : ٢٨١) : « واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله » . وقال السدي : آخر ما أنزل (٩ : ١٢٩)
« فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت » ويجوز أن يكون في
مثل هذا خلاف وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع . ولو كان القرآن من
كلامه لكان البيون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل
واحد وكانوا يعارضونه لانه قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام
الذي ^{مطابق} لا يخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكبير ، ولا يخفى
كلام من جنس أوزان كلامهم ، وليس كذلك نظم القرآن لانه خارج من
جهم ذلك

فان قيل لو كان على ما ادعينم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره .
فيل معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه والفرق بينه وبين غيره من الاوزان
بحسب الحاجة الى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب وان كان النظم يختلف الشديد للنبيا
اذا وجد أحرك اختلافه بالحاسة الا ان كل وزن وقبيل اذا أودنا بمميزه من
غيره احتجنا فيه الى الفكرة والتأمل . فان قيل لو كان معجزاً لم يختلف أهل
الملة في وجه اعجازه . قيل قد ثبت الشيء دليلاً وان اختلفوا في وجه دلالة
البرهان كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون
والاجتماع والافتراق . فاما المخالفون فانه يعتمد عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام
الله لان مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله

عز وجل في كونه معجزاً ، لانه ان خصه بقدر من العلم لم نجر العادة بمثله أمكنه
أن يأتي بما له هذه الرتبة و كان متمذراً على غيره لفقد علمه بكيفية النظم . وليس
القوم عاجزين عن الكلام ولا عن النظم والتأليف . والمعنى المؤثر عندهم في
تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم ، وقد بينا قبل هذا أن المهام
عوانهم لا يفسرون عليه . والمفهوم . يعلم كيفية الاوزان واختلافها وكيفية
التركيب ، هو لا يقدر على نظم الشعر ، وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة وإذا
قلا الشعر جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة وقد
زاد في شعر المبتدى والمتأخر في الخلق النظمه الشريفة والبيت النادر مما لا
يتفق للشاعر المتقدم . والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يغني ، ويحتاج معه الى مادة
من الطبع وتوفيق من الاصل . وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجه ثم
يبنى لاحدهما من اللطف في الصناعة ما لا يتفق في الآخر . وكذلك أهل نظم
الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم ، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في
الاصابة مع العلم بكيفية الاصابة . وإذا وجدت للشاعر بيتاً أو قطعة أحسن من
شعر امرئ القيس لا يبدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه لانه لو كان كذلك كان
يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الخلد ، وبحسب ذلك البيت في الشرف
والحسن والبراعة ، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها ، وان كان كذلك
علم أن هذا لا يرجع الى قدرة من العلم ، ولذا نقول : انه يستغنى عن العلم في
النظم بل يكفي علم به في الجملة ثم يقف الامر على القدرة . وهذا يبين لك بانه
قد يعلم الخط فيكتب سطرًا فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يضاد منه شيئاً لتعذر
والعلم حاصل . وكذلك قد يحسن كيفية الخط ويميز الجيد منه من الرديء ولا يمكنه
أن يأتي بأرفع درجات الجيد . وقد يعلم قوم كيفية ادارة الاقلام وكيفية تصوير
الخط ثم يتفاوتون في التفصيل ويختلفون في التصوير والزمهم أصحابنا أن يقولوا

فقد تنا على أحداث الأجسام وإنما يتمدد ونوع ذلك منا لانا لانعلم الاسباب التي اذا عرفنا ايقاعها على وجود اتفاق لنا فعل الأجسام . وقد ذهب بعض المخالفين الى ان العادة انقضت بان أنزله جبريل فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه ومن قبله لم يكن معجزا . وهذا قول أبي هاشم وهو ظاهر الخطأ لانه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن وان لم يتمدد عليهم فعل مثله وإنما تمدر بنزوله ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله وان كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله فهو قولنا

وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينا لان معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله وكان ذلك متمذرا قبل نزوله وبعده فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه فمنهم من قال ليس لذلك نهاية كالمعدد فلا يمكن أن يقال انه لا يتأتى قول قصيدة لا وقد قيلت من قبل ، ومنهم من قال ان ما جرت به العادة فله نهاية وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه ، وقد بينا أن على أصح لنا قد تمدر لكلامنا حد في العادة ولا سبيل الى تجاوزه ولا يقدر فان القرآن خرق العادة فزاد عليها

فصل

ان قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه آتى به من ظهر عليه ؟ قيل لا به من ذلك لانا لو لم نعلم أن النبي ﷺ هو الذي آتى بالقرآن وظهر ذلك من جهته لم يمكن أن يستدل به على نبوته . وعلى هذا لو قلنا : جل منه سورة فأتى بها بلدا وادعى ظهورها عليه وانها معجزة له لم أقم الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يبينوا أنها ظهرت عليه ، وقد حققنا أن القرآن آتى به النبي ﷺ وظهر من جهته وجعل علما على نبوته وعلما ذلك ضرورة فصار حجة علينا

فصل

قد ذكرنا في الابانة عن معجز القرآن وجيزاً من القول وجونا أن يكفى
وألمنا أن يقيم ، والكلام في أوصافه ان استقصي بعيد الاطراف واسم الاكتاف
لعل شأنه وشريف مكانه والذي سطرناه في الكتاب وان كان موجزاً وما أمليناه
فيه وان كان خفيفاً فإنه يذهب على الطريقة ويدل على الوجه ويهدي الى الحقبة
ومنى عظم محل الشيء فقد يكون الاسباب فيه عيياً والا كشار في وصفه تقصيرا
وقد قال الحكيم - وسئل عن البليغ متى يكون عيباً - فقال متى وصف هو أو
حبيباً . وضل اعرابي في سفر له ليلا وطلع القمر فاهتدى به ، فقال ما أقول لك ؟
أقول رفلك الله وقد رفلك ؟ أم أقول نورك الله وقد نورك ؟ أم أقول جملك
الله وقد جملك ؟ ولولا أن العقول تختلف والافهام تباين والمعارف تتفاضل لم
تخرج الى ما تكلفنا والسكن الناس يتفاوتون في المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجوز أن
ينفقوا في معرفة هذا الفن أو يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم لاتصاله باسباب
وتعلقه بعلوم غامضة الغور حقيقة القمر كثيرة المذاهب قليلة الطلاب ضعيفة
الاصحاب ، وبحسب تأني موافقه يقع الافهام دونه ، وعلى قدر لطف مسالكه
يكون القصور عنه

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال : أنشدني المتنبى لنفسه القطعة التي

يقول فيها :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
والسكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم
وأنشدني الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا بعض مشايخنا البحرى :
أهز بالشعر أقواماً ذوى سنة لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا

على نحت القوافي من مقاطعها وما على لهم أن تنهم البقر
 فإذا كان نقد الكلام كله صعباً وتمييزه شديداً والوقوف على اختلاف
 فنونه متعذراً ، وهذا في كلام الآدمي ، فما فائدة بكلام رب العالمين
 قد أبدا لك أن من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام لا يعرف
 من البلاغة إلا القليل ولا يظن منها إلا اليسير ، ومن زعم أن البديع يقتصر
 على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر فهو متطرف . إلى أن كانوا يقولون أن
 هذه من وجوه البلاغة وقرر البديع وأصول الطيف ، وأن ما يجري مجرى
 ذلك ويشاكله مانح بالاصل ومردود على القاعدة فهذا قريب . وقد بينا في نظم
 القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة والاسلوب يختص بمعنى آخر من
 الشرف ثم الفوائد والخواتم والمبادئ والمتاني والعلوالم والمقاطع والوسائط
 والفواصل ثم الكلام في نظم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل ثم في التكميل
 والقليل ثم الكلام الموشع والمرصع والمفصل والمصرع والمجنس والموشى
 والمخلى والمكمل والمطوق والمتوج والموزون والمخرج عن الوزن والمتمثل
 في النظم والمشابه فيه ، ثم الخروج من فصل إلى فصل ووصل إلى وصل
 ومعنى إلى معنى ومعنى في معنى ، والجمع بين المؤنث والمختلف والمتفق
 والمنسوق ، وكثرة التصرف وسلامة القول في ذلك كله من التعمق وخروجه
 عن التعمق والنشيق ويعد من التعمق والتكلف والانتفاظ المفردة ، والابتداء
 في الحروف والأدوات كالأبداع في المعاني والكلمات ، والبسط والقبض
 والبناء والقبض ، والاختصار والشرح والتشبيه والوصف وتمييز الأبداع من
 الاتباع كتمييز المطبوع عن المصنوع والقول الواقع عن غيرتكلف ولا تعمل
 وأنت تدب في كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على ممت شريف
 ومرفق منيف ، يهر إذا أخذ في النوع الرفي والأمر الشرعي والكلام

الالهى الدال على أنه يصدر عن عزة الملوك وشرف الجيوش وما لا يبلغ الوهم موافقه من حكمة وأحكام واعتماد وتقدير واستشهاد وتقريع واعذار وانذار ونبشير وتحذير وتنبية وتلويح واشباع وتصريح وإشارة ودلالة وتعليم أخلاق زكية وأسباب رعية وسياسات جامعة ومواعظ نافعة وأوامر صادقة وقصص مفيدة وثناء على الله عز وجل بما هو أهله وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه وأخبار عن كائنات في الثنائى صدقت وأحاديث عن المؤنثف تحققت ونوادر زاجرة عن القبانج والنواحيش وإباحة الطيبات وتحريم المضار والنجاسات وحث على الجليل والاحسان ونهي عن الجفنة والحكمة وفصل الخطاب مجلوة عابث في منظر بهيج وفلم أفين ومعرض رشيق غير متماس على الاستماع ولا مطلق على الانتهام ولا مشكوك في اللفظ ولا متوحش في النظر غريب في الجنس غير غريب في القبول متملىء ماء ونضارة ولطفاً وغضارة يسري في القلب كما يسري السرور ويمر الى موافقه كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب جموح على التناول المنتاب كالروح في البدن والنور المستطير في الأفق والفيض الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد من توهم أن الشعر يلحق شأوه بأن ضلاله وصح جهله إذ الشعر صحت قد فنأولته الألسن وتداولته القلوب وأنثت عليه الهواجس وضرب الشيطان فيه بسهمه وأخذ منه بحفظه وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلاً وأقرب مأخذاً وأسهل مطلباً ولذلك قالوا فلان مفهم فأخرجوه مخرج العيب كما قالوا فلان عبي فأوردوه مورد النقص

والقرآن كتاب دل على صدق متحمده ورسالة دلت على صحة قول المومل بها وبرهان شهد له براهين الاولياء المتقدمين وبينة على طريقة ما سلف الأولون

نجداهم به اذ كان من جنس القول الذي ذموا انهم ادر كوا فيه النهاية وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج والوصول الى أعلى مراتب الطب فجاهم بما بهرهم من احياء الموتى وبراء الاكفرة والأبرص ، وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم وأتت على ما أجهلوا عليه من أمرهم ، وكما سخر سليمان من الرياح والطير والجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة ويدائع من اللطف ، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الاول والآخر وقفاً واحداً ويبقى حكمها الى يوم القيامة

انظر وقتك الله لما عهد بك اليه وفكر في الذي دلتك عليه ، فاطق منهج واضح والدين ميزان واضح ، والجهل لا يزيد إلا غم ولا يورث إلا نداما . قل الله عز وجل (٣٩ : ٩) : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يندكر أولو الاسباب » وقل (٥٢ : ٥٢) : « وكنشك أو حيناً اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » وقال : (٢٦ : ٢) : « يسئل به كثير آ ويهدي به كثير آ » وعلى حسب ما آتي من الفضل وأعطى من الكمال والعقل تنفع الهداية والذبيح فان الامور تترأسها وتتحصل بآتها ، ومن سلبه التوفيق وحرم الرشاد والنسب يد ، فكانما خرج من السماء فنخطه الطير أو نهوى به الريح في مكان سحيق لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت ، وقل رب زدني علماً ، وقل رب أهوذك من كهرزات الشياطين . وان ارجعت فيها بيناه فازدد في تعلم الصنعة وتقدم في المعرفة فسيقم بك على الطريق الارشد ويقف بك على الوجه الاحمد ، فانك اذا فعلت ذلك أحطت علماً وتيقنت فها

ولا يوسوس اليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية وأرجح منك في الفصاحة أقوام وأقوام ورجال ورجال فكذبوا وارتابوا ، لأن القوم لم يذهبوا عن الاعجاز ولكن اختلفت أهواهم : فكانوا بين جاهل وجاهد وبين كافر ثمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات وحائر عن النظر في الدلالات ، وناقض في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان وغاوت تحت حيلة الشيطان ومقذوف بمخذلان الرحمن . وأسباب المخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة . وهلا جعلت بأزاء الكفرة مثل ليبيد بن ربيعة العامري في حمن اسلامه وكمب بن زهير في صدق ايمانه وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا . على أن المصدر الأول ما فيهم إلا نعيم زاهر أو بحر زاهر . وقد بينا أن لا اعتصام إلا بهداية الله ولا توفيق إلا بنعمة الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فتأمل ما عرفناك في كتابنا وفرغ له قلبك واجمع له لبك ، ثم اعتصم بالله يهتك وتوكل عليه يغلك ويحرك ، واستغشده برشدك ، وهو حسي وحسبك ونعم الوكيل

فهرس

صفحة

٣	مقدمة الفهرس
٤	ترجمة المؤلف
٩	خطبة المؤلف
١٣	فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن
١٦	في أن القرآن لا يحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى
١٧	في أن القرآن آية كافية في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره
٢٠	فصل في الدلالة على أن القرآن معجز
٢١	التحدي الى القرآن وعجز بلغاء العرب عن أن يأتيوا له بمثل
٢٧	أنما احتيج الى التحدي لاقامة الحجة و اظهار وجه البيان
٢٨	تفاوت الناس في ادراك الاحجاز ومعرفة وجه دلالة
٢٩	اعتراف بلغاء العرب بمعجزهم عن مثل بلاغة القرآن دال على عجز غيرهم
٣١	صوارف العرب عن الاسلام في نه اية الدعوة
٣٢	هل كانت المعارضة ممكنة ومنعها الصرفة أم الذي منع منها هو الاحجاز
٣٣	هل غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز أيضا ؟
٣٦	فصل في جملة وجوه اعجاز القرآن :
٣٦	١ - الاخبار عن القيوب مما لا يقدر عليه البشر
٣٧	٢ - أمية النبي ﷺ وأنه لم يقرأ كتب الاقدمين وسيرهم
٣٨	٣ - أن القرآن متشابه في البلاغة الى الحد الذي يُعلم به عجز الخلق عنه
٣٨	٤ - خروج القرآن في جلته عن المهود من نظام جميع كلام العرب

صفحة

- ٣٨ أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغراية والتصرف البديع
- ٣٩ أن بديع تأليفه لا يتفاوت رغم ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها
- ٤٠ أن كلام الفصحاء يتفاوت في الفصل والوصل والعلو والترؤل الخ
- ٤١ أن نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة يخرج عن عادة كلام المخلوقات
- ٤٢ أن الذي ينقسم عليه الخطاب من الوجوه التي توحد في كلام العرب موجود في القرآن
- ٤٣ أن لطف التعبير القرآني عن الأحكام والرد على الملحدين مما يتعذر على البشر
- ٤٤ في أن الكلمة القرآنية إذا تحل بها في تضاعيف كلام كثير كانت واسطة مفقده
- ٤٥ الحروف التي في أوائل بعض السور
- ٤٦ سهولة أساليب القرآن وكونها غير معطوع أن يقدم البشر عليها
- ٥١ فصل في شرح ما بيننا من وجوه اعجاز القرآن
- ٥٢ الاختبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله
- ٥٣ اخبار عن قصص الاولين وسائر المتقدمين
- ٥٤ الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والوصف
- ٥٥ فصل في نفي الشعر من القرآن
- ٥٦ أن الفصحاء حين أورد عليهم القرآن لم يكونوا يعتقدونه شعرا
- ٥٧ ما في القرآن من كلام موزون
- ٥٨ فصل في نفي السجع من القرآن
- ٦٢ فصاحة القرآن لا يجوز أن يقع فيها سجع موصوف بالاضطراب
- ٦٤ إعادة ذكر القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة دليل على الاعجاز
- ٦٥ العرب ونظمها الشعر
- ٦٦ رجوع إلى مذهب القائلين بالصرقة

- ٦٩ فصل في ذكر البديع من الكلام
- ٦٩ هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع
- ٧٠ كلمات من البديع مأثورة عن الصحابة وفصحاء العرب
- ٧٢ أنواع من البديع في شعر امرئ القيس وغيره
- ٩٥ في أن البديع شيء ووجوه الإعجاز في القرآن شيء آخر
- ٩٧ في أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع لانه ليس فيه ما يخرق العادة
- ٩٨ فصل في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن
- ١٠٥ امكان تشابه أساليب الشعراء والكتاب
- ١٠٩ تعريف البلاغة عند بعض الأمم
- ١١٠ خطبة نبوية « توبوا إلى ربكم قبل أن نموتوا »
- ١١٠ « ان لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم »
- ١١٠ « ان أحسن الحديث كتاب الله »
- ١١١ في أيام التشريق « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »
- ١١٢ يوم فتح مكة « قل مائة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي »
- ١١٢ بالخيف « نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها »
- ١١٣ « ألا ان الدنيا خضرة حلوة »
- ١١٣ كتاب نبوي إلى ملك فارس
- ١١٣ « إلى النجاشي »
- ١١٤ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية
- ١١٤ في أن مقارنة الكلام النبوي بالكلام القرآني تدل على إعجاز القرآن
- ١١٥ خطبة الصديق الأعظم « ولست عليكم ولست بغيركم »

سبعة

- ١١٥ عهد أبي بكر إلى عمر رضي الله عنهما
 ١١٦ كتاب أبي عبيدة ومعاذ بن جبل إلى عمر رضي الله عنهما
 ١١٧ عهد من عهد عمر رضي الله عنه
 ١١٨ خطبة عثمان رضي الله عنه « أن لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاقبة »
 ١١٩ كتاب عثمان إلى علي حين حصر رضي الله عنهما
 ١١٩ تأييد علي أبي بكر رضي الله عنهما لما قبض
 ١٢١ خطبة علوية « أن الدنيا قد أدبرت وآذنت بدواع »
 ١٢١ « ما خلق امرؤ عبثاً فليهو »
 ١٢١ كتاب علي إلى ابن عباس وهو بالبصرة رضي الله عنهما
 ١٢٢ كلام لابن عباس رضي الله عنهما
 ١٢٢ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه
 ١٢٣ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
 ١٢٤ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
 ١٢٤ خطبة للحجاج بن يوسف في أهل العراق
 ١٢٤ خطبة لقيس بن ساعدة الأيادي
 ١٢٦ خطبة لأبي طالب
 ١٢٦ استنتاج المؤلف أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الأدميين
 ١٢٨ في أن كلام مسيلة أخس من أن يشتغل به
 ١٣٠ نقد معلقة امرئ القيس وبيان عولها في جانب إعجاز القرآن
 ١٤٧ آخر نقد معلقة امرئ القيس
 ١٤٨ الامثلة على أن نهج القرآن ونظمه نشيخ العقول في جهته ونحوه في بحر
 ١٦٥ الآيات قصتان: ما يتم بنفسه أو بنفسه وفصلته ، وما يشتمل على كلمتين أو كلمات

صفحة	
١٦٦	الاعجاز في بعض الآيات يقع في تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى
١٦٧	البلاغة في آيات الأحكام
١٧٣	في أن جنس الشعر لا يعارض نظم القرآن
١٧٥	نقد أجود قصائد البحري « أهلاً بذلك الخيال المقبل » وبيان عوارها
١٨٩	آخر نقد قصيدة البحري اللامية
١٩٢	الإشارة إلى مطاعن الملاحدة في القرآن
١٩٥	فصل هل عجز أهل العصر النبوي عن المعارضة يقتضي عجز من بعدهم ؟
١٩٦	فصل في التحدي
١٩٨	فصل في قدر المعجز من القرآن
٢٠٠	في أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ
٢٠١	فصل في أنه هل يعلم إجماع القرآن ضرورة ؟
٢٠١	فصل فيما يتعلق به الإعجاز
٢٠٢	فصل في وصف وجوه من البلاغة
٢٠٤	الاستعارة في القرآن
٢٠٥	التلازم في القرآن وأن بعض الناس أحسن إحساساً به من بعض الفواصل
٢٠٦	المناسبة ، والتصريف ، والتضمين
٢٠٧	حسن البيان
٢١٣	الايجاز والبسط
٢١٤	تفاوت الناس فيما يتوصل اليه من البيان بالتعلم
٢١٥	هل يجوز أن يقال إن بلاغة القرآن هي أقصى ما يلائمه البشر من البلاغة ؟
٢١٦	فصل في حقيقة المعجز
٢١٩	فصل في كلام النبي ﷺ وأمره تتعلق بالإعجاز
٢٢٣	فصل من شرط المعجز أن يسلم أنه آتى به من ظهر عليه
٢٢٤	فصل متى عظم محل الشيء فقد يكون الاسهاب فيه عيباً

مختار من الألف

ولب لباب لسان العرب

وهو شرح على شواهد شرح الكافية للرضي

تأليف

عبد القادر بن عمر البغدادي

طبعت على نسخة العلامة أنشيطي (رقم ١ نحو من بدار الكذب المصرية) وهي منقولة من نسخة المؤلف
وحليناها بتصحيحات العلامة الجليل صاحب السعادة الاستاذ احمد تيمور باشا رحمه الله عليه
وتصحيحات وتعليقات المحقق الكبير الاستاذ عبد العزيز البعني الراجكوتي
استاذ آداب اللغة العربية في جامعة عليكرة الاسلامية بالهند

صدر الجزء الثالث منها في ٤٤٠ صفحة مطبوعا في مطبعتنا السلفية
على مثل الورق النفيس الذي طبعنا عليه الجزء الاول والثاني
وقد فتحنا باب الاشتراك في الجزء الرابع بعشرة قروش
أيضا كما كانت الحال في الاجزاء السابقة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00507858

كتب اسلامية ولغوية يجب أن لا تخلو منها مكتبة قيمة

١٠	الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض
٢٥	شرح الشفا لملا على القاري
٥٠	علل الحديث لابن أبي حاتم
٢٠	مبارق الازهار شرح مشارق الانوار
١٢	شرح العقائد المضدية وحواشيها
٢	المقيدة الواسطية لابن تيمية
٤	مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ اهل الجاهلية
٦٠	نهاية السؤل شرح منهاج الاصول للاسنوي بحاشية الشيخ بنجيت
٢٥	شرح المنار وحواشيه في الاصول
١٠	كتاب الخراج ليجي بن آدم القرشي
٢٥	مجمع الأنهر شرح ملتقى الابرار
٢	نظريه تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها
١٠	شرح شرعة الاسلام بهامشه تسم رسائل للبركوي
٢٥	كشف الحقائق شرح كنز الدقائق للانفاني
١٥	شرح منية المصلي
٢٠	الفتاوى الخيرية
٥	فتاوى النووي
٣	نظام النفقات في الشريعة الاسلامية للعلامة الشيخ أحمد بك ابراهيم
٢	تقد علمي لكتاب الاسلام وأصول الحكم
١٠	لسان العرب - تحت الطبع - يباع بالجزء
١٠	خرانة الأدب للبغدادي - تحت الطبع - يباع بالجزء
٧	الاضداد الانباري
١٠	المزهر للسيوطي
٥	الملاحن لابن دريد